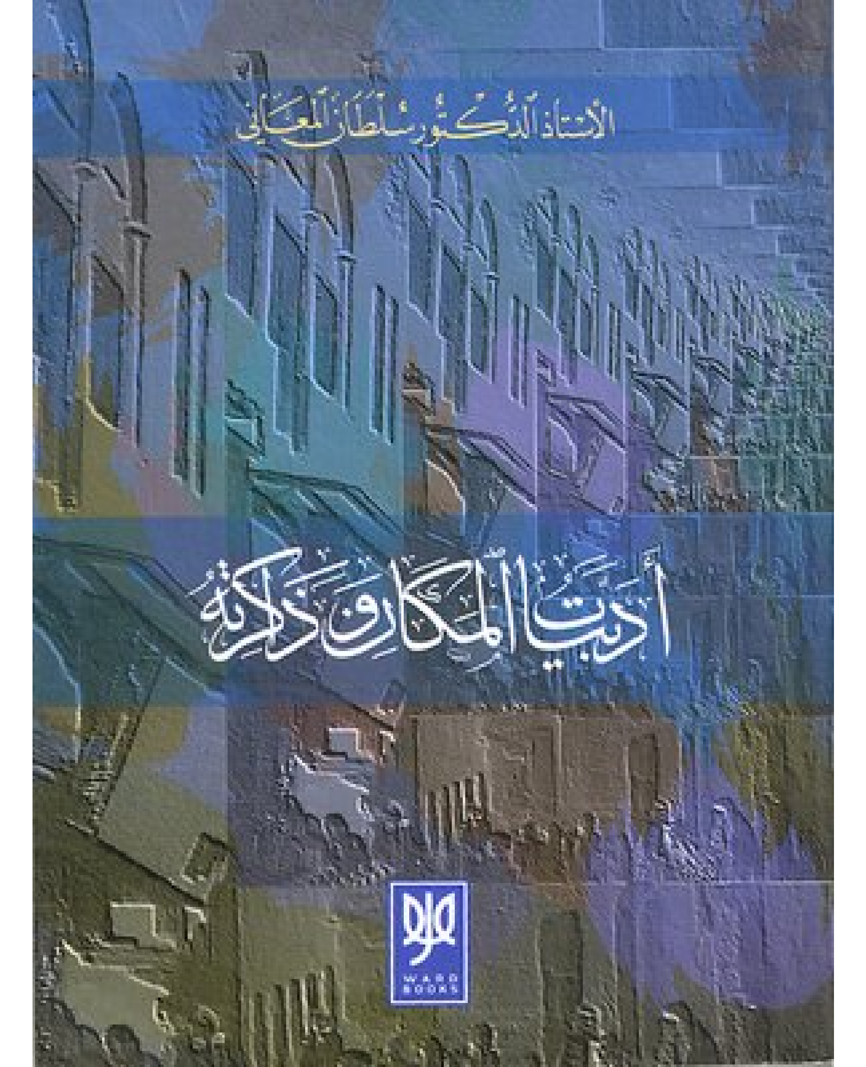

الأستاذ الدكتور سلطان المعاني
أدبيات المكان وذاكرته
ورد
WARD BOOKS



- **أدبيات المكان وذاكرتة**
- أ. **د. سلطان المعاني / مؤلف من الأردن**
- **الطبعة الاولى** : 2008
- **حقوق النشر والتوزيع محفوظة** :



- الإشراف الفني : **محمد الشرقاوي**
- الصف الضوئي : **دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع**
- تصميم الغلاف : **صالح نسب**
- رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : 2008/6/1927

الأستاذ الدكتور سلطان المعاني





إلى روح أبي...

مجد القامة العالية..

المحتويات

عمون تعلو عرش المدائن

يتناثر في الأماكن التي احتضنتنا دفق المشاعر، وأبجديات العشق، ويشيع الهوى في طرقاتها، وتحتشد لحظات الفرح والحنين في كل الأركان والحنايا، فيا لعمان وهي تلملم فينا كبرياءنا وتحفظ علينا نسج وإيقاع الحياة، وتؤجج مكامن لقاءات الأحبة وحكايات العمر على فطرتها.

أسماء عمان أسراب قطا تسبح في فضاءاتها متوامقة في اجتماعها الحاضر.. لا تنبو معانيها، وهي التي تضوعت في تعاقب أحقابها انسكاب شذى في صباحات الندى، فليس ينشز في الدلالة معنىً، بين العمومة.. والشعب.. وما تعبده العرب قبل الإسلام في عمٍّ القتباني.. وهي التي لمّا تعاقب عليها غير العرب في العصر الكلاسيكي منحوها أسماء تتضافر جدائل شمس مع أسماء كبار حواضرهم وسادتهم فَتَسَمَّت بالمُحِبَّةِ لأخيها.. وهو ذات النسق الدلالي مع الأسماء السامية.. فكان اسم فيلادلفيا تأمين الشرق والغرب على حُضْن عمان الدافئ الذي ضم العموم، أقارباً وشعباً وعباداً على المحبة.

وسواء علينا قلَّبنا في صفحات التاريخ تفسيرا أو تأويلا، فإن طغيان الأفق العمّاني نصاعةً وإشراقاً يجمع لنا كل الشواهد الصراح على زهو المدينة وتألقها، ويُشَرِّعُ الأبواب والنوافذ بِمشكاواتِها لنقرأ نصاعةَ الأرض

في حَيِّزِها الممتد.. وسمائها في اتساع فضائه، فما كانت أيام عمان هَوناً فلم تُسْتَكَنْ.. وما عَجَت تلعثماً في سؤلها وسؤالها.. لكنها شرَّعت نواميس نهوض الربوعِ بعمرانها.. وأُنس الشعب بنخبوية ثقافته.. وانعتاق ألوان الفن والأدب فاستشرفت القريض وتوليفة الجمال اليوناني والروماني والفارسي ووالفته مع نتاجها الشرقي واليعربي الأردني.

طوبيا.. عبدُ عمون.. وأحدُ قادتها.. يمتلك السواحل وعُبابَها.. فَمَنْ ذا الذي يجرؤ على رسمِ جُملة المظاهر الحياتية والمجتمعية في بلاد الشام سواه.. وأي هياكل تلك التي يلوي المسبيون على بنائها.. فطوبيا هنا في عمون.. وجشم هناك في آدوم.. وحوروني يقبض على الأفق في فلسطين.

أيُّ إيغالٍ في المعرفة، وتعلُقاً بهدب الحضارة، وانسجام الاتصال مع مُعطى الحضارات شرقها وغربها تعارفت عمان على رؤاها.. فالقلعة، الأكروبوليس، وسبيل الحوريات النمفيوم، والمدرج الأديون، وشوارع الكوردو والديكومانوس بأعمدتها الكورنثية.. وتايكي.. لا تمنح عمان التَعَتُّقَ والانعتاق فحسب، ولا نَقْتَرِئُها أطلالاً خوالي.. ولكنها المُغْتَرَف والمُرْتَشف والهوى وحضورُ النصِّ.. فعمان الدلالة والرمز .. عمان سجعنا وكهانتنا.. عمان طهرنا وصلاتنا.. عمان سِرُّ الشرق.. وهي فيء المصطفى في حوضه .. وفضاء إسرائه ومعراجه..

وما أنّ بدأ الأردنيون إشراق صبح منابتهم حتى راحت الدنيا ترقب جولة أخرى من جولاتهم، وجولات الغد المشرق فوق هام المجد الأردني، فقد كان دأبهم إشهاد سيوف الحق ذائدين عن حماهم، رافعين رسالة أمتهم، مالكين مطي الكلمة، نسائم الحقِّ ضَوعُهُم، فإذا هم فرسانٌ جامحة خيولهم، كللها عزمهم الصادق، وصدق نهجهم بأفئدة واثقة ما كلت ولا وهى خفقها. وكلما حدا الركب طاولت أعناقهم أعنة السماء، تزهو قسماتها به، عذية الشذى، ناضرة الغصون، فالمسيرة تشتاق طيفها. وعهدها الراية شاخصة للعلى، بسيف المعالي في سلسبيلها العذب نهضة أبية، وقد كانت عروبية المبتدا من رحم التاريخ، فكان أهلوها طوداً يحملون العهد، فهم الخالدون، وقد زخرت ينابيع العلم بهم فَوَفَوا لها، رؤاهم الغد المشرق، والحرف النابض فالمنى، سبيلهم لأرض الكرامة والإباء، أوفياء لأهليهم، وأوطانهم وأنفسهم، حاديهم الخلق والمواطنة الصالحة، واستشراف الغد بوعي واقتدار.

عمان.. زهونا الجميل.. ما انحنى المجد يوما في مواكبها.. ولا خارت ذراها.. وظلت مشرعةً سيوفها، وقد التقى العُربُ والعروبة فيها، ولها، من بطاح الجزيرة إلى ضفاف النهرين ... ومن عذب بردى ... وصدق الشهداء ... إلى فخر مؤتة واليرموك. وها هي عمان سيدة العواصم وتاجها ... وزاهرة العرائس، والبطولة، والمدى...

عمان ... وجهتنا إذ يمم الناس شطر غيرها، أو نحوها ... عمان مستقرنا ومقامنا ... والمنطلق... نحملها وقد وعينا درسها وكتابها ... ولن يضنينا أن نقرأ لغيرنا، بل نتلو عليهم من سفر المجد حين نقلب في العزم والذكرى ... فصول رفرافة ألوية ... وأبواب نواميس الشرف وملاحم البطولة، وقد تعلمناها أبجدية عربية في حماها ... ونعمنا في أفيائها ولاء وطيبا ... وكنا طلاب المعالي ... ورثنا الحق ولم نهن ... فكانت ظلال الثورة العربية الكبرى رؤانا، وكنا أقسمنا، على بر القسم، بأن نفتدي الوطن بالدم، ما عزت الدماء.. أليست عمان تاج الزمان، إباؤه وبهاؤه؟

فالعمونيون ذؤابة الشرق، حاملو راية المعرفة بيرقا رفرافا يخترق الآفاق، ويفتح أبواب المجد؛ فعمان أو عمون، أو ربة بني عمون، أسماء حبيبة ... تشي بمعناها ومقصدها .. ففي دلالاتها أن عمان فيؤنا، فنحن عمان، وعمان نحن، سكنتنا فسكناها "بسلام آمنين" ... فعمان خارطة الزمان ... وبوصلة العاشقين صوب نبع الهوى، وكحل العيون، وعذب الكلام. وهاهم أهلها اليوم وقد سكنوا الصدور، فطابت بهم الأنفاس يانعة رياضها، وملتهبة حماستها. والعمونيون بجوانحهم، ضموا حميم الشوق لامتطاء مراكب البناء، ونهج العلى فلا يوحشهم تكالبهم على البناء، إلا بانقطاعهم عنه، أصحاب رفعة مؤمنين بحق

وطنهم عليهم، مخلصين العزم والعزيمة، لوطن العزم والعزيمة.

عمان ذاكرتنا .. وقبضنا الحنون على اللحظة والمسافات ... وهي استعداد خرافي يتملكنا لخوض لعبة كونية تخرج عن نطاق ثوابت المكان والزمان، وتسوغ لنا احتكار المنجز والانتساب إلى كل ذلك المجد الذي تَشَكَّل في وطني مذ كانت الأرض سديما... وكأنما تمنحنا معاول العون لكل أولئك الذي أرادوا لهذا الوطن أن يتبوأ ذروة العطاء الإنساني... فهؤلاء أجدادنا، هم فيافينا، وهنَّ كُحلُ مداها، معسولة وناضرة وجوههم، رقيقة قلوبهم بالخلق والحق، وطافحة صدورهم بالشوق لأخذ الوطن في سفائن مسيرتهم، وفي سواعدهم حبال أعنة عصماء ما وشت بهم ولا أرخوها إلا وقد ضاق المدى بغيرهم ورَحُبَ بهم. فها هي:

"أعمال عمي نداب ملك بني عمون

بن هصل ال ملك بني عمون

بن عمي نداب ملك بني عمون

الكرم والحدائق وقناة الماء والآبار

فليفرح وليبتهج لأيام عديدة وسنين مديدة"

ترتدي عمان عباءة السكون والوقار.. وتُضَمِّخُ عمائِرَها بِحنّاء العرائس.. وتسكب المداد على رُقُمِ الطين في قلعتها، واصفة أحوالنا، وأَعمارَنا، وتقرأ في تَبَصُّرٍ أحلامنا.. وتختبئ في قواريرها البرونزية

السنابل والكروم قرونا.. لِتُشرق عند سؤال الحيرة في اهتراء الكلمات!.. فها هو عمو ندب ملك بني عمون لم يرتحل غريباً في المفازات.. ولم ينفلت من بين يديه عَنان الفعل.. وها هو ابن هصل إيل يُقبل نحونا حاملا ذاكرة عمون وقناديلها.. فَرَحَاً وابتهاجا لأيامٍ عديدة وسنين مديدة ..

هي عمان إذن باختلاف أحقابها وتعاقبها قصة نُسجت أركانها بخيوط نور موشحة بأكاليل الغار ... ففي كل ركن فيها قصة خلق وإبداع أبدعت حروف ملحمتها الضياء على مر الزمان.

لم تكن عمان يوما منزاحة من بُرَه الوجود.. ولم تجرؤ القرون ولا تعاقب الأمم والشعوب إمحاء الوجود العمّاني.. فأديم عمّان أسّس عالمنا الرؤيوي والاستشرافي، وهو جوهر المسألة، وتموضع المناخات، وترميز الخرائط والديموغرافيا. أديم عمان تمسُّك بالمبتغى الإنساني القارُّ في وجدان الأردنيين.. وما حِراكُنا السياسي محليا وعربيا وعالميا إلا من منظومة الالتزام بنداء الأرض في تمرحلاته، وإحساس القيادة بالمسؤولية التاريخية والحضارية.. وهو في الأساس وعي وإدراك لوجع الإنسان واحتياجاته، ورؤيا تؤسس للخير والعدل.. للإنسان؛ هنا وفي الجوار وفي الكوكب.

هي عمان ... ربيع دائم ... غصونها الريا، من كل غادية، استفاقت

شذى ... ومن كل رائحة امتدت ندى، فإذا الفضاءات نور وبهجة ... وإذا الدنيا طوع مناها.

هي عمان زاهرة العواصم ... الرمز، لما كان الرمز نبراس الهدى ... والمتكى حيث استوى على أريكة نداماها الشموخ ... فتماهت الأشياء فما عدت تدري أيهما؛ أهي أم صباحات آذار أم مساءات العاشقين؟ ظلا وارفا ونشيد مستقبل اكتنز الماضي فأينع للقادمين من أجيالها

إنها عمان ... بعبق أنفاسها الطيبة ... وانتشاء صبحها الوضاح ... وباجتلاء نورها غدت مركب الحلم ومستقر الحقيقة وفصل الخطاب.

عمان اشتياق العاشق، وقد كابده الشوق فياضا ومحموما، وراعفا بنبض القلب، فمن الأردن إلى الأردن، ومن لاعج القلب حين البعاد إلى ضجيج الصدر حتى نؤوب.. فيا سيدة العشق.. وسيدة الحضور وسيدة الرؤى والوئام ودليل العاشقين، يا شافية الفؤاد وصالا، وقد سباه الهيام ... يا دوحة الأمل، وصرح الفكر .. وشريعة العدل.

عمان لا حجارتها ولا طرقاتها.. وإنما عمان السلسبيل وتاجها الوضاء.. عمان الأقحوان وفتنة الفيروز وتألق عذاريها رائحة لمشربياتها، وغادية من نشيدها بأزرقها الممتد وفراشاتها على ضفة القلب والحشا.

عمان ذاكرتنا .. تآمرنا الجميل على اللحظة والمسافات ... وهي استعداد خرافي يتملكنا لخوض لعبة كونية تخرج عن نطاق ثوابت المكان

والزمان، وتسوغ لنا احتكار المنجز والانتساب إلى كل ذلك المجد الذي تَشَكَّل في وطني مذ كانت الأرض سديما... وكأنما تمنحنا معول العون لكل أولئك الذي أرادوا لهذا الوطن أن يتبوأ ذروة العطاء الإنساني...

هي عمان باختلاف أحقابها وتعاقبها قصة مشدودة أركانها بخيوط نور وموشحة بأكاليل الغار ... ففي كل ركن فيها قصة خلق وإبداع نُسِجت حروف ملحمتها ضياء على مر الزمان.

عمان أو عمون، أو ربة بني عمون، أسماء حبيبة ... تشي بمعناها ومقصدها ... ففي دلالاتها أن عمان تجمعنا، وأننا أبناء عمومة، وعبادا ... نسكنها فتسكننا، وندخلها " بسلام آمنين" ... فعمان خارطة الزمان ... وبوصلة العاشقين صوب نبع الهوى، وكحل العيون، وعذب الكلام.

هي عمان ... ربيع دائم ... غصونها الريا، من كل غادية، استفاقت شذى ... ومن كل رائحة امتدت ندى، فإذا الفضاءات نور وضياء ... وإذا الدنيا طوع مناها.

هي عمان زاهرة العواصم ... الرمز، لما كان الرمز نبراس الهدى ... والمتكى حيث استوى على أريكة نداماها الشموخ ...

هي عمان ... بعبق أنفاسها الطيبة ... وانتشاء صبحها الوضاح ... وباجتلاء نورها غدت مركب الحلم ومستقر الحقيقة.

جبل القلعة.. الدهشة واليقين

مِن علياء القلعة نطل على فضاء الأماني وزركشات الخافق المطرزة بهدب العيون.. فارداً صفحته البهية فوق المدى.. يرفرف كما الطير يحلو في عيون العاشقين.. هناك في مدارات الصقور ينزرع النوار والدحنون والشهداء وتاريخ أجداد حمّلونا شرف التفيؤ في ظلال الخافق الشغوف للعلى والمنى.. وهو يطلق الصبح فوق عمان، نبض حياة، لغدٍ يجمع العرب على وتين القلب والثورة الكبرى..

هو الخافق.. ترنيمة الحسين بن علي.. وشموس الديار التي تهب الفجر اقتراب الموعد وأشرعة المدى.

وكأنما تخيرت دار الإمارة جبل القلعة عرين أسدٍ وعلياء شممٍ.. وشرعية تاريخ تضرب في الأحقاب والأزمان جذورها وجذوة ألقها.. وقد سيجت أركانها بإرث الحضارات فأبقت شواهدها أبراجا وأسوارا وقصورا ومعابدا ومصادر تجميع المياه.. وهي في كل ذرة تراب منها ترصد وتوثق للماضي التليد وتحتفي بأشرافها وإشراقتها بالغد القادم الموصول مجدا وسؤددا.

من هنا فوق قمة بهية الطلة يعتريك قموص الحضارات والأحقاب.. هرقل كان هنا أطل من علياء المكان على قداسة الأرض العمونية فيا

لجلال الشذى والندى والذكريات.. بأي عطر رُش هذا المدى وقد صنعت له الأسطور حارستها إلهة للحظ..

قلعة عمان تسكن الجبل وذاكرة الوطن، تحيط بها ملامح التاريخ، ورائحة التربة في صباحات الندى.. وهي تتزنر بسور عالٍ يشمخ حارسا لها، ما تزال بعض مداميكة وبقايا الأبراج شاهدة على ضخامته في ركنه الشمالي.. وكأنها وشم حسناء طرزه الزمان فوق روابي عمان.. مدينة الحلم والانجاز التي ما كلت وهي توقظ العزائم وتضئ الدرب للسائرين في ركب البناء الإنساني والحضاري منذ بواكير العصور البرونزية إلى حاضرنا الأجمل وغدنا المأمول عطاء ومنجزا بحجم الطموح والعطاء الذي أعلت عمان سقفه فوق سدف الغمام.

على القلعة قام المعبد كأنما يغازل أهداب النجوم فوقه، فعندما بناه الامبراطور الروماني أوروليوس أدرك أن اللغة العربية ستشعل صوت اللغات التي تناثرت حروفها فوق المكان.. فها هي بقايا معبد هرقل تقف حجة على الزمان العماني الذي ربح الرهان، إذ لا فراغ في الذاكرة يشي بفراغ المكان.. ففيلادلفيا مدينة المرمر والعذارى والحظ في عيون روما، استحالت مدينة الألق والمعابد للآله الحامي هرقل، وإلهة الحظ تايكي.. فقد أنبأ نقش عمو ندب أن الدنان في عمون ملأى والأهراء يطفح من جنباتها القمح والحبوب والطحين.. ذللت المجهول

وأقسمت أنها لن تخذل أصحابها، وأن الله مدرك ناسها وأرضها بالخير والغمام والرجال.

وفوق جبل القلعة يقترب الزمان بكل تفاصيله فمن الكنيسة البيزنطية إلى القصر الأموي إلى المعابد الرومانية.. بنيان علا فوق بنيان، وكأنما يسلسل التاريخ ذاته ليوقظ الزمن الأردني الحديث بعزائم الهواشم في دار الإمارة التي قامت على أساسات التاريخ فانهمر المكان فرحاً وأغنيات.

في عام أحدى وخمسين من القرن الماضي احتضنت متحف الآثار الأردني.. الذي تطاولت اللقى والموجودات الأثرية كبرياء وهي تعرض فيه.. فهل ثمة حقبة من الزمان غفت واختفت من إيقاع اللحن الموصول من العصور الحجرية حتى التاريخ الحديث؟ فلقد عرفت جدران المتحف وخزائنه كل اللغات والعصور والحضارات ووثقت لها بنفيس اللقى وناصح الدلائل.. فذاكرة المكان والتاريخ لا تشكو هذيانها بل تطرق باب الحلم والمجد موسيقى غفت الدنيا على قيثارته في حضرة فاتنة المكان تايكي، وهي تعلن عن نفسها في حديقة المتحف الذي يرحل بالمكان إلى أقدم التماثيل البشرية التي عرفها الإنسان لتعود إلى ثمانية آلاف سنة إلى الوراء حيث كشفت حفريات عين غزال عن هذا الكنز الكبير، ويتسابق التاريخ بزهو في تقديم نفسه فمن نقش تل سيران

العموني إلى لفائف تل قمران إلى اللقى النبطية والإسلامية المنقوشة ببواكير الحرف العربي والمزركشة بالخطوط الاسلامية على أنواعها.

ويعلو بك صدح المكان يماماً تاق إلى رائحة الطين والخلق الأول.. ويوقظ ذكريات تتجمهر جذلة على المدى المترامي فوق السماء العمانية.. تأخذك فيها قصة البدايات.. ومفردات قواميس الأزمنة التي سلّمت نفسها سنامَ المجدِ.. لتهيم عشقاً في بوح القطا والسنونو وعن امتشاق القلعة تلاوين المواسم وبهاءها.. فجالت بنبوءاتها وتعاويذها قروناً تتقلب الحضارات واللغات والشعوب كما الحجيج على عتباتها.

في ذلك المشهد الأكثر بهاء، تقترب المسافات بين عمان الحداثة وعمان الأصالة.. وتتأنق نجوم السماء كل مساء لتلقى أرجوان الجمال الغارق في عماراتها وطرقاتها.. ويتنفس التاريخ بهاء وأنوارا تشعل القلعة والمدرج الروماني وسبيل الحوريات والجامع الحسيني.. فعلى ذاك الجبل يسرج التاريخ أعنة خيله ويمتطي صهوة القرون ليمضي في دروب الذكريات حيث تتهادى القبسات النورانية؛ الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية فوق جبال عمان وروابيها التي تتوضأ بالطهر وأزهار اللوز..

في جبل القلعة تعيد اللحظة صياغة المفاهيم ويتبوأ المكان صدارة الأشياء في فهم التناسق والتسلسل الحضاري وردات الفعل البشري

على اختلاف الحقب والعصور التاريخية وتلك التي سبقت التاريخ، فالتل الذي تقوم عليه قلعة عمان يرسم خريطة التشكل الثقافي والبناء المعرفي المتنامي منذ العصور الحجرية ليتضح بشكل أكبر في العصور البرونزية متتاليا ومتسلسا دونما انقطاع حتى الفترات الاسلامية المتأخرة، وقد كان اتخاذه مقرا للأمير والإمارة مسألة في غاية الانسجام مع ما يقتضية المقام والمكان فالإمارة نهج نهوض وبناء حاضر وتأسيس لمستقبل مشرق بحول الله عايشه الآباء وتوارثناه لنوصلة أمانة غالية لفرسان التغيير وأمل الغد، فاللحظات الكبيرة ليست منة ولا هبة، غير أنها تقدير الخالق في أن يحفظ على هذا الوطن تجليات الحضور، على مر العصور، وأن يجتبيه أمنا وخيرا وأهلاً وحواضراً تفوق سواها وتتناغم بشكل عجيب مع كل حدث إيجابي في الشرق الأدنى القديم، وكذلك مع الحضارات التي عايشت على اختلاف منابتها وأزمانها، فهذا التنوع الحضاري الكبير الذي برز في القلعة وفي مناطق الوطن كافة وعشرات الآلاف من المواقع الأثرية شواهد مادية صراح على أن ما وصل إليه الأردن الحديث بقيادته الهاشمية التي تستمد شرعيتها من الانجاز وشرف الانتساب إلى أطهر بيت عرفه الناس، واقتضته حتمية التاريخ.. ففي الجوار وعلى مرمى النضر من على القلعة ترتسم علامات المدنية والتمدن وبذور نشأة الاستقرار والزراعة ونشوء القرى

في عصور ما قبل التاريخ، وتبرز صروح وشواهد كبيرة في الأفق العماني من على قلعتها لتعلن التنوع اليوناني والروماني والإسلامي والمسيحي بانسجام وتوافق مع عمان الحاضر والحديثة بعمائرها وأضوائها وبناها التحتية وبما ينهض فيها اليوم من أبراج ومنشآت تعلو لخير الوطن، وتسهم في الفعل الإنساني الذي يتجاوز الحدود الجغرافية ليتعامل مع الإنسان أينما كان بسوية عالية وخلق تربينا عليه أردنيين عروبيين إسلاميين نشارك في تعمير وبناء الكون سلوكا وثقافة.

ويحلو السفر مع قلعة عمان عبر القرون التي خلت.. دونما تهويم.. بل مضي في أزمان أكفها ندية ووجوه ذات ملامح.. فالجبل لم يشأ لتاريخه أن يرتحل هائماً على غير هدىً.. فما وني يذهل العلماء في حفرياتهم الأثرية ومسوحاتهم ودراساتهم في المتحف الأثري بكل ذلك الاكتناز والحضور التاريخي في جوانب الحياة وعبر عصورها المتعاقبة.. فالمكان عمان وفوق سمائها.. والناس الذين كانوا هم اليوم بعض أديمها، والناس الذين كانوا هم أيضا أسلافنا أوصلت لنا القلعة أمانتهم فأقسمنا من عليائها والخافق يمخر الأفق قبالتنا بأن نحمي الحمى وأن لا ننكر الدرب.. وأن يسكن الأردن قعر أوردتنا.. وأن يبقى الوطن ألق الروح.. ودهشة اليقين..

عين غزال

باكورة قرى الشرق القديم

الأرض البكر تفتش عمن يرقب المطر في تعاقب الفصول.. تهتدي إلى فجر الغيم مطالع الطيور.. وحكاية الأرض وهي تقرأ وجوه أهلها مطلع كل شمس.. وهل تحفل الأرض بغير ما تهوى؟ فهم بعض أديمها .. بينها وبينهم مسافة الوريد إلى الوريد.. خطوة واحدة يستحيل مجرى النهر صوب الأرض البكر.. ليكفّوا عن التقاط الصدفة وطيش السهام.

ها هم يسترقون السمع في عين غزال إلى ضراعات السقيا.. ونشيد التبتل.. يوقظ الفجر مناجل الصوان.. يسترجع ذكريات البيوت وهي تأخذ شكلها الحائر بين الاستدارة والتزوية.. ها هم يلتقون فيها غير نادمين.. تتسع الغرف كلما اتسع الحلم.. ورفرفت الألفة وقد غادرها نزف الذكرى.. ولهات الصدفة في جمع القوت وتتبع الطرائد.

استفاقت القرية في حضورها المجلي على وهج الدهشة ونداء الحياة الذي يليق بالمكان.. الذي لملم أشلاء الشرق القديم.. ونهض من ركامه.. ليعلن الفرح.. ليلقاه صورة للحلم.. يسطرة بالمعاول والأزاميل والمطارق وفيض من عرق وكد.. يحصد جنى الرحلة الموغلة في

سراديب العصور التي أضاعت تواريخها ودروبها.. فيعلو في عين غزال صوت المخاض.. وتوق الولادة.. وحكايا الأمل.. وخطو الدروب صوب صفصاف الفرح.. وسلال الجنى.. وتقاويم الحياة.

لقد استغرقت رحلة الوصول إلى القرية ألفياتٍ عديدة.. تعود في رحلتها ما ينوف على مليون سنة على أقرب تقدير.. تكاد تغيب في رحلة الحقب هذه مؤشرات الفعل الانساني في فجوات حضارية ومعرفية تنثال فيها أسئلة الحيرة.. ويعتمل التخمين والفرض فينا حدا يقرب بنا إلى الخيال والاسطورة والخرافة لجسر هوة نتوق فيها إلى معرفة أُسِّنا الأول، ومَنْ تناسلنا في رحلة الحياة غفلا عن مدركهم.. وفي رحلة الإنسان من عصور البدأة وحيرة التشكل والتكوين والعقل وما قبله والمدرك ورحلة الصدفة ودهشة الكشف على بداءته وبداهته.. نستجمع من على سطح الكوكب ما تبعثر وتبقى من أثر تدخل فعل الكائن الحي في تشكله شكلا مُعدَّلا عن فعل الطبيعة.. وهي لحظة نادرة تلك التي تشكل فيها وتلك التي عثرنا فيها على أولى خيوط الفعل المعرفي المدرك.. والذي أخذ يتراكم بناء معرفيا في ألفيات تلت.. جوزنا لأنفسنا فيه منح ذلك الجهد سمة الفعل الثقافي.

كانت البيئة الطبيعية ومجالاتها الحيوية المختلفة من عناصر مناخية ونباتية وحيوانية ونشاط بشري هدفا للدرس والبحث

المتشعب كيفية ونوعا.. فلم يترك الباحثون مجالا حيويا إلا وتناولوا فيه أسباب الجهد البشري في رحلة النشأة والتطور.. فكانت البنى الجسدية والعقلية والسلوكية بدايات البحث الطبيعي في رحلة التطور النباندرتالية والهومو سابينزية والهومو إركتوسية وسواها تصاعدياً إلى عصور الثقافات الأولى والمجتمعات البسيطة والحضارات الفاعلة والمتفاعلة وفق أنساق الحياة المختلفة.

كان أسوأ ما واجه الإنسان في محيطه خُلُوُّه، أحياناً، من المحرضات ودوافع الاحتياج.. رغم قسوتها عليه وقهرها له حقبا طويلة.. وتدخلها الحتمي في تشكلاته الجسدية والانفعالية والذهنية والبيئية.. والتي نآء تحت وطأتها ما شاء لها المكان والزمان.. حتى ذلك النمعطف الجذري في حياته الذي تجلى في موقع عين غزال.. حيث الانتقال من دور المفعولية إلى دور الفاعلية.. وتبلور سمات إنسانية تنامت إيجابيا حتى يومنا.. في تمرحلات الفعل الاجتماعي والانثروبولوجي والحضاري المختلفة.

إن منعطفات التاريخ البشري تذهب بالحياة نحو مسارات الرقي وأخرى نحو النكوص والتخلف، وليس أعظم من الوقوف عند المنحنى الهائل والفذ في ارتقاء الفعل البشري من اقتناصه لحظة الإبداع في معرفة الزراعة وتدجين الحيوان، وقد تاه قبل ذلك آلاف السنين صيادا وملتقطا تقوم حياته ومقدراتها على الصدفة وقوت اليوم، وهو صراع

مذهل مع المحيط، وفرصة لحظية يومية نحو البقاء، فردا، أو جماعة.
وقبل حوالي عشرة آلاف سنة من اليوم كان الشرق الأدنى القديم على موعد مع فجر جديد تعذب قبله البشر للحظة الوصول إليه.. وكانت لحظة الدهشة هذه قد استنزفت من البشر والوقت ما لا نستطيع الإحاطة به، ولكن نشوتنا بمعرفة الأجداد في وادي نطوف زراعة القمح والشعير جعلتنا نقف عند تلك اللحظة مبهورين بذلك المنجز الذي أُتبع إيقاعه بتحولات على مناحي الحياة المختلفة دون استثناء، كان أعلاها وأكثرها ألقاً ذلك الفعل المجلي في عين غزال.

وقد مضى الفعل البشري في الأردن في تلك العصور تراكميا في حصيلته المعرفية إلى أن بدأت بوادر القرى الزراعية في العصر الحجري الحديث. وقد جاء انتشارها في مناطق امتدت على رقعة الجغرافية الأردنية في وقت متزامن مع قرى بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين. وقد مثلت مواقع تل أبو حامد وتليلات الغسول في غور الاردن، وسحاب والمقص وتل وادي فينان في جنوب الاردن، صدى المنجز الحضاري في أركان الوطن.. همة بهمة ذاك الفضاء الرحب في عين غزال.

ابتكار الزراعة نهوض ثقافي في الشرق الادنى والاردن شكل مقدمات أساسية لظهور الحضارات التي أعقبت هذا المبتكر الجبار في تطويع المحيط البيئي، وهي فرصة على أية حال منحت المرأة أهلية

الصدارة في تلك التكوينات الاجتماعية في زعم ريادتها ابتكار الزراعة، وتدجين الحيوان والنبات، وتعاطيها مع الرجل تجربة انتاج القوت واقتصاديات الوفرة، والتشاركية والتخطيط للمستقبل في تدبر شأن توفير الغذاء، وقد شكل هذا كله بيئات التكاثف السكاني وتكاتفه في تطويع المحيط البيئي الطبيعي والحيواني والنباتي، فغدا نشوء القرى مسألة حتمية وملحة.

وتعد قرى عين غزال والبسطة والبيضا ووادي شعيب اهم مواقع هذه الفترة ، وقد دلت الحفريات على استمرارية السكن منذ منتصف الالف الثامن قبل الميلاد حتى منتصف الالف الخامس قبل الميلاد.

ويشير الباحثون إلى أن تطور شكل البيت في القرية الزراعية من البيضاوي إلى المستطيل أتاح الفرصة إلى مزيد من القرب الاجتماعي وإلى ازدياد عدد أفراد البيت الواحد أو عدد الأسر المتجاورة لقابلية الشكل المستطيل إلى التوسيع.

في عين غزال تتوق الروح لدفاتر التاريخ وهي تحكي قصة الحضارة التي ما فترت همة صانعيها، ولم تضق بعطائهم أركان المكان.. فلم تعصف ريحها بذاكرة الجمال موصدة بوجهها بابها.. فعمان حاضنة المكان والزمان والذاكرة ووعد لخصب الكلمات على صحائف المجد البيض متوناً ونصلا.

فأي شرف عظيم ذاك الذي يسكن الروح ويحل بالمنجز.. ففي المكان وتداعي تذكاراته نقاء الروح وسلام يستوطن الأفق والمدى.. يؤهل الأثر لآسر القول وعذب المرتشف الذي لا تني الروح عن بث جماله .. ولتبقى على تواصل مع صدقه.. فَرحَةَ وجودٍ.. وصِدقَ تَمَنٍ.. وَشرَفَ انتماء.

الرقيم.. "والقوم في الكهف هُجَّد"

تستفيق قصة أصحاب الكهف في الرقيم آية عجباً كل صباح.. فقد خرجوا من أفسوس سبعة.. أكثر أو أقل.. وصحبهم في طريقهم كلبهم قمطير.. وفي محطة من محطات ترحالهم آووا إلى الكهف آمنين جوار عمون.. المدينة التي يعني فيما يعني اسمُها بلدُ الناس والعامة.. وتجلى حضور المكان بما يفوق الوصف وتعجز الكلمات عن لملمة الحروف.. ففي النصف الأول من القرن العشرين تم اكتشاف كهف الرقيم.. وفيه من القبور ثمانية.. فهل هذا هو عددهم صِدقاً؟... " قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تماري فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفتي منهم أحداً". فقد انطلق الفتية من حضرة اليأس والبطش يسحبون الجهات بل ينسحبون إليها من طغيان ديقيانوس الروماني الوثني... بل لعله تراجان الذي حكم نهاية القرن الأول الميلادي وحتى العقدين الأولين من القرن الثاني... ولم يشأ أهل الكهف تسجيل عبورهم في دفتر اليأس.. بل حلّقوا في فضاء الرؤى.. وارتضوا أزمانا آتية تحمل الهدى، فلم يدرِ ديقياوس الطاغية أن عهد ثيوديسيوس البيزنطي قادم، ينافح عن دين سماوي، يشع نورا على الأكوان، مبشراً مسيحُهُ برسول الهدى محمد عليه وعلى صاحبة السلام.. ولقد كان العِلمُ بالكهف وقومه في

عهد ثيوديسيوس في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي.. أو في عهد جستانيوس الأول من القرن السادس الميلادي.. وكان فتية الكهف ممن اتبعوا دين عيسى عليه السلام، فها هم يسرعون الخطى إلى الكهف المحروس بأشعة الشمس.. والامنيات العذاب.. وها هو الكهف يعاود سيرته المدهشة هنا في رحلة ملائك السماء بين القبلتين.. وهناك في بطحاء مكة في غارين تاقت فيهما الأرض لخير الورى.. غار ثور وغار حراء.. في هاته الأفلاك والمدارات ترتحل الشمس مرتين كل يوم في إشراق وغروب.

هؤلاء النوَّم لقرون ثلاث آية من آيات الخالق فوق الأرض الأردنية التي بارك الله فيها وفي أهلها، وقد حفظت لذاكرة الإنسان قصصاً تفيض عبراً وروحانية وتجلياً يشدّ المرءَ إلى خالقه بحبل متين إيماناً وشعوراً بالعظمة، فبدا تجلي المكان الأردني في الجانب الديني كما غيره من جوانب الحياة والحضارة.. فهو دار الأمان لمن اضطهدوا.. ودار الرحابة والترحاب لمن ضاقت بهم ديارهم، فهؤلاء الفتية الذين هربوا من مدينتهم بدينهم، اطمأنت قلوبهم إلى هذا الكهف جوار عمان، فكيف لهم ألا تسكنهم الرحمة والطمأنينة وقد احتشد على الأردن وفي الأردن صحابة أجلاء روّوا ترابه الطهور بدمائهم وضمت ثراه رفاتهم الحية بإذن ربها تحوم فيه أرواح الطهر والتوحيد بدءا بهارون ويحيى

وشعيب وقافلة الخير والإيمان جيلا بعد جيل في تواتر الأزمان والأيام إلى طهارة الروح والبدن لسليل بيت النبوة الحسين بن طلال تغمده اللّه والشهداءَ والصالحين والتابعين تسلسلاً بواسع رحماته.

إن الكهف وأهله شهود على الأمان والسكينة في مواجهة الخوف والطغيان، فدقيانوس وخميس أصنامه قصة الظلام المقهور بنور الإيمان.. يظهره اللّه بعد قرون على الأرض الطافحة بقصص المجد والفخار والسلام، حيث اكتشف الكهف في مقبرة تعود إلى العصر البيزنطي قرب عمان في منطقة أبو علندا، وقد زين الكهف برسومات وزخارف نباتية وأخرى هندسية وكتابات باللغتين اليونانية والعربية.. نلج من بابه إلى قاعة يتفرع منها ثلاثة محاريب ضمت قبور الصالحين أصحاب الكهف. ولقد تعاقب الاهتمام بالكهف وأهله منذ العصور الإسلامية المبكرة بدءا بالعصر الأموي، إذ بُنِي عليه مسجدان، هُجِرا في فترةٍ متأخرة.. فيا لكهف الرقيم.. ماذا رقمت في صفحة التاريخ وعلى وجه الزمان؟ .. "إنهم فتية آمنوا بربهم.." فرّوا إلى اللّه.. واقتربوا منه في أرض الرسالات والنور منذ عمر الانسان الأرض، وقد كانت الوثنية أقوى فعلا آنذاك من غيرها، فرغم دخول البلاد المسيحية كانت تتصارع مع جبابرة الرومان لأكثر من قرنين من الزمان.. ولعل في قصة الفتية عبرة وآية في حقيقة الموت والبعث تجسدت واقعاً على

مرأى من أعين الخلق في دنياهم.. وقد سمتهم الرواية اليونانية للقصة السبعة النيام، وذلك في كتاب غريغوريوس "مجد الشهداء"، وذكرت المصادر السريانية داقيوس، ملك الرومان في منتصف القرن الثالث الميلادي بالأثيم. وأسمت الذي ذهب بالعملة ليشتري لرفاقة طعاما يمليخا.

وقد تخير الله تعالى الكهف لتكتمل معجزة ازورار الشمس عن يمين أبدانهم إشراقاً وعن شمالهم غروباً فلا تصيبهم أشعتها ليكملوا نومتهم قرونا ثلاثة.. وهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال إلى أن قيض الله لهم الاستيقاظ في وقت غذا الناس على دينهم آمنين. لقد تَخَيرَّ الله تعالى هذا الوطن ارضاً للمعجزات وأرضاً للأمن والأمان والدرب الذي يوصل إلى النجاة. ولقد تاقت نفوس الصحابة إلى المكان فزاره الصحابي عبادة بن الصامت وحبيب بن مسلمة وابن عباس ومعاوية ابن أبي سفيان.. كما تعاقب على الكهف بناء كنيسة فوقه ومسجدين إلى جانبه.. وقد اثبتت الدراسات العلمية الخاصة بتصميم الكهف وعلاقته بسقوط أشعة الشمس ما ينطبق على المكان وفق الوصف القرآني لحركة الشمس وعدم ملامسة أشعتها لأبدان النوم السبعة داخله.

وعندما تتوه عن رشادها الكلمات.. ويكون الواقع والحدث ضربا من الأحجيات.. وتعلن كل التفاسير والحجج سذاجتها.. يكون كتاب الله سبيل الهداية.. فتغدو الحقيقة منجاتنا من حنق المستحيل.. هنا فوق الأرض التي لم تبرحها الأحلام والرؤى يصدق الوعد ويعظم الإحساس باليقين.. ولا تتعثر الخطى نحو الحقيقة وصوب أبواب أشرعت ردهاتها للمؤمنين.. فيها لا تطيش سهامهم ولا يخيب رجاؤهم.

وقد كان المدى مسكونا بهسيس اللغات.. والصلبان المتعبة.. وكانت النجوم تلتحف العتمة المهراق.. والظلم يسرق من واحة العمر.. وكان دقيانوس ربيب الأوثان.. في دنيا غارث بظلمات وثنيتها.. يجذب إلى ذلك العالم "الانسان المهدور" ... ولأن الأرض بيت الزهر.. واغتسلت ببهاء الطهر.. وأفردت ملائك السماء جناحي الرحمة فوقها في الخافقين.. فقد مرت قوافل الأنبياء والصحابة والصديقين والحواريين وكل المؤمنين على شرفاته ودخلت أبوابه ترسل الخير للدنيا.. وتجمع حشود الورد وتعلن صدق الوعد.. وتقتلع حشاش الخطيئة.. وتمر على المتعبين والمقهورين ببسمة رجاء.. ووعد احتفاء بالصباح القريب.. وعقائد سماوية تعلن حضورها في طول البلاد وعرضها.. تُكَسِّر رماح روما وتقطع رأس سالومي معلنة طي سفر الغواية.. ويغدو الكهف وقصته من شهود الزمان على السوسن البري الأسود وخرير السواقي.. وبراري

الحلم الممتد أخضراً تغازله نجمات الصباح كل ليلة بانتظار الفجر.. فالكهف ليس كتلة من صمم وحجر.. إنه صفحة من صفحات سفر عظيم.. سيان أقلَّبته تِباعا أم تخيرَّت منه قبسات.. فإنه ينبئ عن هذي المنازل الطافحة بالأحلام والأسرار.. ويعكس مرايا الزمان الذي تنتشي وهي تفرد صفحاتها تلملم حكايا الناس والتراب.. وتقسم أن الشمس ما برحت تُسبل خيوط الرجاء.. تنسج الأيام على يقظة الأرض غاديةً مهد الحضارات.. وتعاقب الرسالات.. وموئل الآمال.

عراق الأمير

عرين الأُسُود في القلعة العمونية

جداول الوادي بحر القصيدة.. تُلَوِّن العشب.. وتجبل التراب خضاباً لظبياته النافرات.. ينقشن فوق سفر العشيات ترانيم شعر.. وينشرن أحلامَ الشاعر.. وقد "تدفقت قسماته بشرا".. فمن مِداد جدول الألحاظ الحور مرام الشاعر: "وإذا مددت إلى يديك يدي فتلمسي لِتَسَوُّلِي عُذرا".

يسكب الندى ترياقه فوق الربى.. والطور.. ليرتوي المبارك من أشجارها المثمرات "والتين والزيتون".. وعرائش الكروم التي ما نامت نواطيرها.. هو الوادي الذي ما خبا هَمَسَهُ في حقول القمح وبيادر الخير.. يحمل زوّادة البلد الأمين.. فما خان جدوله مجراه نحو سد الكفرين وبِركة الأمير..

ماذا حملت "سارا وسيرا" في درب الرحيل.. وماذا تبقى لهما من وَهم الحضور؟.. هو وادي السير دون تأويل ولا تهويم.. نهل دلالة الاسم من "صور" الآرامية، فدعاه هيركانوس العموني تيروس.. وأراد للأرض المفروشة خضرة وجداول وزركشات صخر أن تحمل دلالة الصلابة والراسيات فكانت صور، أي القلعة والجلمود الحصين.. محاكية شمماً

وعراقةً شقيقتها الفينيقية صور.

البيادر.. جمعها بيدر وهي في الاشتقاق من الآرامية، مركبة من كلمتين، حرف الباء مختزل كلمة بيت ودَريا درس القش.. فالبيادر مكان درس الحبوب والبقوليات التي كانت تزرع بكثافة في المنطقة.. وما زالت لولا التوسع العمراني الذي ازدادت رقعته.

ولو مضينا في المنحى الاشتقاقي والدلالي للتسميات في وادي السير وجوارها، البيادر وعبدون وناعور، لتآزرت هذه الأسماء مع الأطروحات التي تنطلق منها تسمية عراق الأمير والبيئة الطبيعية المحيطة، فاسم عبدون وفق الوزن فعلون صيغة كنعانية معروفة، تعمل الواو والنون فيها عمل النهاية المكانية في أسماء المواقع العمونية والمؤابية عمون وديبون وحشبون، والتي تقابل تتاليا عمان وذيبان وحسبان، غير أن الاسم العموني عبدون حافظ على صيغة فعلون. وبتجريده من اللاحقة واو ونون ، وهي النهاية المكانية في أسماء المواقع الكنعانية، فإن الاسم عبد يشير إلى ذات التسمية والمعنى في قصر العبد.. ولعله يشير إلى العبد طوبيا الأمير العموني، وهو طرح اشتقاقي دلالي للمفردة يحتاج إلى تأصيل البحث التاريخي المساند! غير أن أكثر من باحث، قد أشاروا إلى ورود الاسم "إبدون" في اليونانية مؤشرا على خربة أثرية تقع جنوبي غربي عمان.

ومن المواقع إلى الجنوب من وادي السير بلدة ناعور، وهو اسم يعني وفق رأي الجغرافيين العرب ابن خرداذبه وياقوت الحموي "الاخضرار"، وهذا يناظر البيئة الطبيعية الجميلة في منطقة الوادي، ولعله من الاشتقاق الآرامي ناعورتا "طاحونة الماء"، وهو ما يناسب غزارة مياه الينابيع وكثرتها في المنطقة آنذاك.

الأُسُود واللبؤات والصوارم الصقيلات تختصر اللحظة في قصر عراق الأمير.. تبحث عن ومضة البعث الجديد.. تمنح "بدر بن عمار" على نهر الأردن سوط تعفير الليوث.. وتطلق أسراب الأماني بين يدي هيركانوس، تتناسخ فيها النسور النافرة على جدران قصر العبد طوبيا، الأمير العموني، لِتُسْبِل جُنْحَها تعانق سماء عمان.

في مراح الذكريات عرفت قصور وكهوف وادي السير في القرن الخامس قبل الميلاد طوبيا العبد.. الأمير.. نقشت أسمه على عتباتها ليشهد لحن الفصول الجميل.. يحمل الخير والنعمة في اشتقاق الاسم والفعل.. فالقصر قصر العبد طوبيا.. صاحب الحمد والشكر في الدلالة .. وقد سمي القصر عراق الأمير.. تشبيها لمدخله بالكهوف التي تنبث في المنطقة. على مرمى النظر من القصر، الذي شيد في العصر الهيليني أيام سلوقيوس الرابع، على يدي هيركانوس قريب طوبيا العموني.. يزيح الأفق ستائره.. يبسط المدى بحجم طوبيا.. ليزأر ليثاً

يتلاشى فيه وَهمٌ نِحميا بوجود الهيكل.. هناك على مرمى البصر من البيادر تكسر أسوار القدس صمت الأسفار.. وتعلن أن كنعانياً بلكنته العمونية أفصح لها.. أن المسافة بين أسوارها وعمان حبل الوريد.

في ربيع الوادي.. تتهجى الطفولة خطوها.. والبتول خدرها.. وتُمْثُلُ الينابيع في حضرة القمر.. لا شيء ينكر ذاته.. ويظل عراق الأمير.. وتظل كهوف الوادي سرمد الحنين الممتد من العصر النحاسي في قرون ما قبل التاريخ.. بتعاقب العمران والإنسان.. ويَرْشُدُ المكانُ إذ يرتدي بردة النور.. فتعرف الشمس خطوها إليه.. تحمل أمانة العمران للعرب المسلمين منذ بدء الفتح.. تتراسل فيه الوصية جيلا بعد جيل على صولجان المجد وتاج هاشم.

عندما ينحاز المنجز للتراب وملح الأرض ورائحة خبزها يتكون في الوجدان ميراثا عزيزاً.. لا ترهق أهله أمانة العشق.. ولا يطويه من وجدانهم الغياب.. فظل قصر العبد منذ القرن الثاني قبل الميلاد خصب الذاكرة.. وتلاوة سفر يقبض على مكنوز الوادي ما بدا منه وما يخبئ بين تشعيباته وكهوفه ومواقعه الأثرية الكثيرة المنتشرة فيه.. وظلت جداول الوادي عاشقة للورد تروي الحلم.. تتقن دورة الحياة.. لم تسترح من تعب.

في ربيع الوادي تقطف الصبايا عناقيد النجوم.. وزهر اللوز .. ينثرنه على الطرقات والشرفات.. في برية كانت غنية بالبيئة الحيوانية كما تصور منحوتات القصر.. وإن سحر الطبيعة الذي يتملكنا ونحن نزور منطقة عراق الأمير يمنحنا أفق الخيال ونحن نعود بالذاكرة إلى بديات القصر حيث النسور تحلق في السماء والغزلان والأسود والظباء وحيوانات البرية تسرح في فروة الوادي الجميل.. وقد تسامقت فيه شجر الحور مبتهجة بفارع طولها وظلها الوارف.. وتفتح نوار الرمان على ظل غيمة.. وسالت الجداول سلسبيلا رقراقة تروي عوسج الدروب والأخضر الممتد على الأرض المراح المخضل ربيعا دائما.. في الوادي ازدانت الكهوف بهدب الشمس.. وتألقت على رَفِّ البيارق العمونية.. وتباهت بابتسام الأخضر الممتد حقولا وخمائل..

تنتشر في طرق عراق الأمير الريفية أشجار التين والزيتون والرمان في لوحة طبيعية ساحرة حباها اللّه دهرا للمكان.. يوقظه الندى كل صباح.. ويسامره الشذى.. وتخبئ له الغيوم أسرار السواقي التي همست في دهشة عن نداماها منذ الأزل.. وكيف كان وِرْدُهم مُعمّماً بالغار وشجر الصنوبر.. وكيف كانت جداول الخير تطوق نحر الديار.. فقد كان الماء سرا من أسرار القصر.. البركة المجاورة بحيرة أبدعها معماري من البيادر لِيُسكِن كل قطرة ماء منها تربة الوادي.. وما

النوافير التي تخرج الماء من أفواه الأسود.. سوى اللهفة قبل الرحيل.. وتغليظ الحلف ألا تنسكب في غير أفق المكان.. فتلفلفه حوريات الجداول بالدحنون والزيزفون ترد له روحه فلا حرن ولا شرود.

عراق الأمير لحظة تلاق عبقرية.. بين سحر النضارة.. وعبق الحضارة.. فحين يكون القصر مركز الأفق الممتد تهرول حكايات المجد العموني في مروج الوادي الأخضر.. وتنتشي النفس وهي تسترق اللحن الذي تعزفه الجداول.. تهفو توقاً لطوبيا وهيركانوس وكل العمونيين الذين ارتووا من سلسبيلها.. وتلذذوا بطعم التين في الصباحات الندية.. وبمذاق الزيت وقد تهطل من زيتونها المبارك.. فماذا تركت الطبيعة في عراق الأمير من التبسم والنضارة لسواها؟..

ترى أكان ملك العمونيين عمو ندب قد نقش على قارورته في تل سيران سيرة هذه البيادر وواديها وما فيها من خير وجنان.. وما تخبئه حجارتها من ذكريات تكتب صفحة مشرقة في سفر الخلود الأردني.. فعلى مسافة كيلو مترات قليلة بين الحداثة والتاريخ .. أمام هيبة الوطن نقرأ سفره منذ بدايات التكوين عن الغد الطافح بالأمل.

البتراء

سيف الصحراء ... حارسة الحواضر

البتراء ..

حيث يشتاق المكان لأهله،

وتدرك المهرة خيالها ..

البتراء ..

حيث يبوح المكان بالشوق،

وتعج الروح بفياض شوقها ..

البتراء

إحساس يداهمك،

سحر موسيقى،

ودهشة لون،

وعذب مشرب.

هناك منذ الولوج الأول إليها،

تبادئك شرايين الحياة،

عيون موسى،

تلقاك خافرة،

خجلى في خدرها،

تحتمي بتلك السفوح الشامخة حولها،

تتباهى بالمكان حيث تولد،

وتتدفق شريان حياة،

ودقات قلب،

تدغدغ صخرا ورديا،

تأتي من هناك عروسا تزف إلى عريسها،

في حضرة ذاك المهيب،

حيث تذوب حكايا روما،

وتتفجر آهاتها على صخر مملكته،

ذاك الحضور المهيب..

للحارث ولمالك وعبادة ورب إيل.

البتراء..

وهج الشمس،

شقيقة المجد،

موسيقى الشعر،

ململمة الكبرياء،

أم شقيلة،

نكتبها أختا..

للزمان ... للمكان ... للروح.

البتراء ...

طيب الأثر، إيقاع القلب،

عناد التاريخ،

هوى القول والفعل،

لهفة البكر، البتول،

دهشة "الأم العذراء" .. .

البتراء ...

اكتمال البدر،

ديمومة الحياة،

سيف الصحراء،

حارسة الحواضر،

شموخٍ قدسية الذرى،

الحبل السري للمشرقين.

البتراء .. تشابك العلائق، انسجام العلاقة بين الإنسان والمكان، والإنسان والإنسان.

البتراء جوهر المسألة التي تسردها لنا الحجارة والنقوش، قصة الأرض التي تماهت دماً في شرايين فارسها العربي، كانت شغله الشاغل،

معشوقته التي طرزها قلائد شعر له، وقدّمها أنثاه الجميلة، فصارت ندىً لأرض الحماد والحّرات وجبال الشراه وضانا، ونبراساً لدروب الحرير والبخور، ووادي السرحان، ودرب الملوك.

البتراء.. العصية الجسورة، بخيلها وفوارسها، والسهم الذي شقّ عباب الغيم، فلحظة لامست جفنيه ريح الصّبا، صارت حجارتها، ونقوشها مستودع سرّها، وسيرتها، وضمير أمتها العصي.

أيتها البتراء ...

يا رمح الردى ..

وظلمة الليل ...

أيتها العصية ..

يا حتف المرجفين ...

وسوط المجفلين ...

واللهب يلفح وجه اثنايوس ... وديميتريوس .. وإليوس جالوس.

أيتها البتراء ...

يا قدرنا العروبي ...

وامتشاق السيف ...

وتأصيل الهوية ...

واتساع المدى ...

يا بوابة الشمس على الخافقين ...

وقاهرة الحمشومنيين والمكابيين ...

وكل الغرباء!

هي البتراء،

حارسة الحواضر،

وسيف الصحراء،

صهيل الخيل،

واكتمال النشوة،

مبتدأ الفعل،

ومستقر الذاكرة.

هي البتراء،

رحم الأرض الحبلى بأول الحرف،

أم العربية،

سفر الاستحالة،

تشابك الحروف، وعناقها،

حبل العربية السُرِي،

شهقة الحرف الأولى في نقوش رم.

هي البتراء، والرقيم ، والشق الصخري، وزركشة ألوان الطيف،

وأزاميل السواعد القوية، ولسان العربية الأولى، حاضنة الخطوط، عبقرية الانحياز للتأريخ، توليفة الخطوط السامية، هي البتراء، مكتملة الدهاء والبهاء.

هي البتراء،

عاصمة القوافل،

قِبلتها ومستقرها،

شقيقة الإيلاف،

دليل من تاهوا ...

عاشقة البخور والعطور والحرير،

مملكة الزمان،

تقاطع القبائل

والتقاؤها،

سراج ثمود ولحيان،

حداء الإبل في جذام.

هي البتراء، مدينة الحوارث، مدينة الشيوخ، والملوك، سادة الأمن، المحبين لشعبهم.

هي البتراء، مدينة الموالك، سليلة النسب، يطلب يد حسناواتها، ملوك آدوم، نساؤها أمهات أبناء الملوك ... فها هي قافلة انتباتر

الآدومي تجيء محملة بما يليق بالحسناء النبطية "كفرة" ... لتصبح أما لأربعة من أولاده.

هي البتراء، معشوقة سلي العربي، صالح الذي انحاز لأمته، فتاهت قوافل الغزاة، سلي ابن الحرائر النبطيات، الذي أقسم أن يبقى الحرف اليمني عربيا، وأن يبقى سد مأرب عنوان الجنان، وتبقى سبأ ... ومعين... وقتبان، وتبقى الدروب تعج بالقوافل، المحملة بالحرير والتوابل والبخور، مدموغة بحروف مسندية من معابد صرواح وقرناو وشبوة.

هي البتراء، أم الأنباط، سادة الشواطئ والموانئ والبحار ،في الحوراء على شواطئ الأحمر، وملتقى المتلهفين على شواطئ غزة، تطل على ما وراء البحر.

الأنباط ... أرباب السفن التي ارتحلت باللسان العربي، والحرف النبطي إلى جزر البحر المتوسط وإيطاليا ... حملة بواكير التهجئة إلى مالطا بلسانها العربي.

هي البتراء يقينا ...

عروس عجائب الدنيا ...

وتاجها ...

وعنوان الإرث الإنساني الشفاف ...

فلسانها عربي ...

وحرفها آرامي ...

وعمارتها توليفة ساحر ... فنان ..

جاءوا من أثينا وروما وبابل وسقارة ...

ومن كل الحواضر ...

كلهم جاءوا إلى عروس الدنيا ...

يحملون لها زينتها ...

فتبتسم لهم البتراء ...

وتحتضنهم ...

وتجلسهم حينا ...

أو تطفق بهم عائدين على عجل ...

وتبوح لهم باسم فارسها ...

وحارسها ...

الحارث ...

العربي ...

محب شعبه ...

صاحب الأفق الكوني ...

الأرحب.

البتراء ... وردية العجائب

تهمي فوق ورد الصخر بركات سماء، يعبق فيها أريج المساءات منسابا من وردها يكسو سهوب الوطن على طول المدى، تعدو فيها سهب الخيل النبطية من خليج لينتيز في الجنوب إلى الشلالة في شمال الوطن.. وتحمل نوارس الغسق مراسيل عز وثراء تشي برهافة العيش الآسرة.. فالشمس التي تولد كل يوم في الشراه .. تشرق على سيدة النزل في الحمى.. وماذا كان ديودوروس سيكتب غير ما كتب من ثراء ورغد عيش لا قفار فيه ولا توحش، حين كان غيرهم يرعى قطعانه في الصحراء الآبدة.. الخالية من الإنس.

من فضاء الوطن الرحب تعدو البتراء كل مساء صوب القمر .. ننشدها أغنية الزمان اليعربي .. فمن مملكة النور والصباح والندى تنساب تراتيل الأمكنة رقراقة صراحا.. تقرأ سور الفجر الجديد... وقد وعاها ديمتريوس من درس الأنباط إذ كاتبوه: "نحن لا نملك البتة قبول العيش عبيدا ولو آوتنا بديل ذلك الصحراء الآبدة".

البتراء حتف آخر الجنود الغرباء ... لم تغادر في أزقة الوحل والطين.. وما لانت تحت أقدام سراتها وحماتها... فليسأل التاريخ إثنايوس وجيشه الغادر المسلوب.. عمن أثخن في جيشه.. وجرعه علقم الهزيمة ...

ومن غير عاصمة الزمان قد أفردت للحرف مساحات الصخر الوردي جدار كلمات... وبسطت الطرقات بالحرير... وأنثالت من أباريقها نفحات العطر والبخور ... وظلت قوافل الخير تقرع الأبواب في دروب الشرق من أقصاه إلى أدناه.

البتراء ما انكفأت ولا تاهت في مستنقع السنين.. أهلوها هم الماضون ديدنا نحو الخلود... دليلهم نجمة الصباح من ثالوثها الكوكبي والشمس والقمر ... خيول فرسانها تعدو في مخضر المروج .. فالأنباط كانوا، كما نحن اليوم، مبعث رجاء زمانهم العروبي.

البتراء أيائل أحلام القرون التي تداولتها الأمم والشعوب، وهدب عيون الأردنيات اللواتي نسجن ألوان الراية وأسبحنها عبق مجد ورحيق زهر وبراري وطن.

فمن الذي منح الآخر لونه؟ .. ريشة الفنان، أم لون الصخر في وردية العجائب؟ وأي جسد ناهد نهديٍّ تنظر الشمس كل صباح.. فإذا جُنَّ الليل تسكن المفردات على جُدرانِها تجاويفَها.. وتمنح أهلها شموع الضياء، وألحان الصبوات، ومن غير شقيلة السيدة الأردنية تختال وردة ربيع، وفراشة بستان بين نساء عصرها، ومن غيرها تعبر الخاطر يمامة عشق واكتمال نضارة.

عبق البخور وحرير الدنيا من طرقاتها، حرير في الصباح وحرير في المساء وحرير في الأفق.. وشاهقاتِ الذرى تنثال شوقا، تدغدغ ورد صخرها أنسام الكروم وخوابي الخمور.. فصباحات بترا انسكاب الراح في أقداحها، ولملمة كروم العنب لذي الشرى قرين باخوس.. وفي مسائها يشتعل الشفق فوق الذرى قربانا لصاحب الذرى.. دوشرا.

هي البتراء، بأنسامها الندية، وطغيان موسيقاها، تتحدر الروح على بواباتها.

البتراء فلسفة السؤال بين المنجز والمعجزة .. وبون المسافة بين الممكن والمتاح.. فهل نقترف الفضيلة في حضرتها.. ونحن نقرب المسافات بين إيقاظها بتولا تصهل أنثى، وبين طرق أزاميل نحاتيها على ظاهر صخر صلد في أم البيارة والبيضاء وأم صيحون؟

فوق ذرى البتراء تسكر النسمات ويطيب الهوى، وتقترب المسافات من شواطئ بحر طال انتظار البدر والعشاق فيه، يرقبون رحيل قراصنة بحر، رست سفنهم غفلا عن التاريخ، وألقت مراسيها الثقال في عبابه، فيا لوحشة المكان وفزع الحلم، خواء تلك الشواطئ دون قافلة الحرير وحدو العيس، فيا قافلة الخير بددي هذا الظلام، وكوني بين الحارث وعبد الله العروة الوثقى، واركبي الصبح هودجا، وارقبي ذاك الملاذ والمرتجى، الهاشمي طيِّبِ المنهل.

البتراء عناد الحجر الممعن بالانتظار، مربض قوافل الإبل في طرقات وادي السرحان، ريح الصهباء في مضارب بني مرة، مستودع الذاكرة من ثمود إلى ضجعم.

البتراء، صلابة الصخر والحجر، والسواعد التي زركشته، وأسست له ذاكرته، فاستحال سفر الأسفار، وإرث أجداد نقشوا أسمائهم، بكل اكتمال الكينونة، وإنكار الذات.

البتراء

تُرَتِّلُ سِفْرَ معمارييها وحرفييها

بترا..

إذا الخيلاء تنادى

اصطفاها واكتفى..

تتجلى روضة حور ..

وفضاءات شعر..

وَتَنَفُّسَ صباح..

دغدغ مساءاته عليلُ النسم

وندى السحر ...

عندما يغتال الانتظار على المفارق والدروب لهفة اللقاء.. تغدو البتراء أرض الرؤى وأحلام العارفين .. ودنيا من الأوصاف ما شاءت، وشاء لها الزمان، فهي بتلالها وأوديتها فضاء طائر الشوق المُعنّى بتسابيح التلاقي.. وهي التي تُشْعِلُ في فضاء الصمت أريج الحكايا عن باير، ومرابض الإبل في طرقات وادي السرحان، وريح الصهباء في مضارب بني مرة.

البتراء

طاغيةٌ بأنوثتها،

سادرةٌ في غيِّها بهاءً..

وغَوثُ صَهوات..

على عتبات بيوتها

استحال الوعد أفقاً ممتداً،

تبوح أعمدتها الكورنثية بذاكرة الأحقاب الذاهبات، وتكشف شوق حروفها ليقين الزمان الأردني القادم. فتبشُّ الرواسي في "إرم ذات العماد" مستودع الذاكرة من ثمود إلى جذام، وتغذُّ صوب رحلة الكشف عن النقش القديم سَيرٌها.

البتراء رحيق مختوم طرّزه ليل العاشق قلائد شعر،

فاسْبَلَّتْ ندىً في وداي القمر.. وتوشّت نبراساً لدروب الحرير والبخور، وانبرت سهما شقّ عباب الغيم، فلحظة لامست جفنيه ريح الصّبا، صارت حجارتها ونقوشها مستودع سرّها وسيرتها، وضمير أمتها.

أَصداءُ الخُطى سَكنُ الأرضِ .. ونبضُ الوديان والشعاب.. وشرايينُ الوادي الكبير وأوردته الممتدة على المدى من مشرق الشمس إلى مغربها، فالورديُّ امتداد الأفق في كل الأركان، التقاء المشرقين، وانشطار الصخر وقدح الشرر، والأرض التي حلا لأربابها اسم الرقيم، سيمياءَ أرضٍ ودهشةَ مستكشفٍ، وانسيابَ وجدٍ مجبولٍ بشيح وقيصوم براريها.

تولد الصباحات من نوافذ بترا مطرزة بإرثها الحضاري الواسع، عبر عصورها المتعاقبة، فمن اتساع سمائها ترنو إلى الآفاق والحقب البعيدة.. تسعى لفك رموز الخلق والتكوين، خجلى من النظر إلا للبعيد البعيد. إنها البتراء، ألقُ المسافات، وفرح الجنان حيث هطول خمر الكروم على معابد ذي الشرى.. مستودع السر والبوح معا، ويبقى تحدُّرِ الحروف في توليفة نقوش التركمانية وكمكام وأنعم بن أنعم سر التألق النبطي بين القرن الثاني قبل الميلاد والسابع من تموز بداية الألفية الثالثة، ويبقى انتشار طرز بناء عالية الشأن، حفلت بها البتراء شاهدا على عظمتها وزهوها، وعلى مهارة الحرفيين وتفننهم وإبداعهم، وليس أدل على ذلك من ضروب أبنية البتراء وآثارها الجميلة، التي تفصح عما بلغته العمارة النبطية من روعة وإتقان، ما تزال معالمها شاهدة على الزمان، أنساماً ندية، وطغيان موسيقى تطبق عليك جهاتك الأربعة، فلا تدري أذات اليمين أو صوب الشمال...

وتظهر الأساليب النحتية النبطية نشاطا فنيا عظيما في فن الزخرفة، وقد أدهشت الدقة المتناهية والمهارة الفائقة وتنوع الطرز المعمارية المنحوتة في الصخر، ذات التماثل الفني الدقيق، كل من شاهد هذه المدينة الوردية منذ القرن الثاني قبل الميلاد وحتى يومنا هذا. وأفصحت النقوش النبطية عن مهنة العمارة.. /فأمنا، وأمنيا/،

مفردتان نبطيتان تسمى بهما المعماريون النحاتون العرب: عقبر قحم.. وهاجي.. وكد بن بيشت.. وأنعم بن عصب.. وحور عبيش.

وتستجمع الكلمات التي تسكن النقوش صدى الإتقان النبطي لِحرَفِ البناء.. فما تخانسوا في الزوايا، ينظرون منجز فارس وروما.. بل سطروا الصخر إيقاعا عروبيا صهوته الصَّبَاحِ البَهيِّ وتَوَرُّدُ الجبال.. فيستحيل الشراه هديل إبداع يبوح للورى سر العيون التي غافلت الصخر بأزاميل عاشقة تَمَسُّ المتورد لهفة عاشق على حرير الجسد.

ومن خلال تتبع كلمة البَنّاء في النقوش النبطية المختلفة نجد أسماء البنائين: هانيء وأحيند. وتطَّرِدُ مفردات البناء فترد المفردة شيدا أي المُشَيِّد، ومنهم: وهب الله، وجرم بن هانيء بن كهلان. ومنها كلمة فسلا، أي المعماري النحات، ومنهم: عبد الحارثة بن عبد عبادة، وأفتح بن عبد عبادة، وخلف الله بن حملج، ووهب بن افصا، وحور بن أخي. وربما قام سلام تيم بن وائل الكيال بدور المساح لعملية البناء في التخطيط وتحديد المقاسات.

وقد أيقظ هؤلاء الأنباط الدنيا على عتبات السيق.. فاستفاقت طرقات وادي السرحان وميناء الحوراء.. وشبَّ الحنين لاهباً قافلة سيناء والنقب، وهي تزاحم الغمام والحمام توقاً لحدو العيس على إيقاع الصخر المزخرف لملمات حقب.. ورهين الوصل إذ يبوح لشاهق

السيق وفلقه المتعاند شعراً ونساءً ودنان.

أن المتمعن في أسماء أصحاب المهن والحرف والمعمارية يرى أنها جميعا أسماء عربية، رغم الأثر الهلينستي والفارسي والمصري وغيره على طرز العمارة النبطية. وقد أفادت النقوش بأن مبدأ المشاركة في ورش البناء كان ديدنا عند الأنباط، وهو ما يتطلب وجود عمال وفنيين كثر، ربما كان من بينهم اليوناني والفارسي أو المصري، الذين عكسوا ثقافتهم المعمارية على الطرز البنائية في مدن الأنباط الرئيسة...

ومن الملفت للنظر في جانب الحرف اليدوية، أن أغلب أسماء الحرف جاءت في النبطية أسماء أعلام، وينبيء ذلك بعلو شأن هذه الحرف في المجتمع النبطي، وكأنها تضع محددات طبقة اجتماعية معينة. وَتُذَكِّرُ عادة التسمية هذه باستمرارية استخدام المهن والحرف كأسماء للأعلام والعائلات في بلاد الشام حتى وقت قريب. فقد برزت في النقوش النبطية أسماء الحرف اليدوية /ح ز ف/ خزاف، ولم يكن عدم ورود حرفة الخزافة في النقوش النبطية صراحة، ليثني عن الاعتقاد بعلو شأن هذه الحرفة عند الأنباط، والدارس للفخار النبطي يتعرف على ابتكارات الخزافين الأنباط الرائعة في صناعة الفخار الرقيق المطلي في أفران شوي خاصة، والذي كان على نوعين؛ مطلياً وغير مطلي، وقد امتاز المطلي "برهافته الشديدة ورقته حتى ليشبه في

الرقة بقشرة البيضة، على نحو المبالغة، ... واللون الغالب في هذا النوع هو الأحمر القرميدي أو المائل الى السمرة".

ومن أسماء الحرف اليدوية الأخرى الحاطبة /ح ط ب ت/ ووردت في نص ترجمته: "هذا القبر الذي صنعه أوس بن فروان لنفسه ولفروان أبيه الحاكم، ولقين انثاه ولحاطبة وحملة بناتهم وأولاد حاطبة". ومنها الخَيّام /ح ي م و/ وترجمة النص الذي ورد فيه اسم الشخص الذي يحمل دلالة الحرفة: "ذكرى عريش من قدام ذي الشرى لخيام ابنه، سلام".

ومن المهن الصائغ /ص ي ع ا/ وتأتي الكلمة في النقوش النبطية على صيغة المفرد المؤكد /ص ي ع ا/. أما ترجمة الشاهد النقشي فهي: "سلام (على) زيد بن تيم الصائغ".

ومن المهن النجار/ ن ج ر/ وترجمة شاهده النقشي هي: "سلام (على) وادع بن نجار".

وورد اسم النساج أيضا/ن ش ج و/: نساج، وترجمة الشاهد النقشي هي: "سلام (على) النساج". هي البتراء إذاً عربية التوق والهوى.. أردنية المآل والوئام، تجمع ورديتها تآلف الصلد والندى، واختلاط الحاضر بالغائب، عَوّدَ قاماتها واحتشاد تاريخها ورابط فكرها وأحقابها، مبثوثة الوَدْقِ، ناطقة بالآتي للأردنيين بكوفياتهم وصدورهم

الواسعة، ما جلاهم الطيُّ ولا ارتابهم شكٌّ فحيثما قلّبت ناظريك كانت البتراء.. وكان الأردن. فأين كان حدُّ التوق عند الأردنيين الأنباط وهم ينحتون صخر الشراه؟ وعلام كان الرهان في عصر تآلبت فيه القوى الخارجية على الجغرافيا والمكان.. اليونان والرومان والفرس.. وإمبراطوريات ميزوبوتاميا.. وأسر مصر القديمة الفرعونية.. وظل الأنباط يبددون التردد واليأس .. فاستحكمَ الحُلمُ في تطويع الصخر والفضاء والدروب.. فكان المنجز يكبر مُبهِتاً ملامح اللامعقول !

فمن أين تبدأ حكاية المعماريين والحرفيين الأنباط؟ ومن الذي ألهم صاحبه هذه المغامرة الإبداعية الجميلة ؟ الصخر وتناسقه مع فضاءاته، أم الحضور الأسطوري للأنباط؟ وقد تملكتهم عبقرية الفضاء الممتد نحو عنان السماء في بيدائهم التي نفروا منها مع اتحادهم القيداري نحو عرائش الصخر وصخب اللون بامتزاجه مع ذهب الشمس ليحيل الأفق وردياً.. فتماهى الخزافون والصاغة والنجارون الأنباط مع كيمياء المكان الذي وهبه إكسير الخلود.. ومنح البتراء سطوة الإلحاح على الوعي الكوني منذ قرون، وهي تتلو على الحضارات والثقافات درس التفوق البشري.. وأن منهجا مركزيا يجب أن يمارس الإزاحة الانطباعية أمام تجليات الإبداع الرباني في فضاء الصخر والشراه وبين انتصار العرب الأنباط على جدلية تفوق الفكر

المادي الغربي أو الروحاني الشرقي.. حيث أوغل الأنباط في ممارسة سحر التجلي التوليفي المنسجم بين معطيات الشرق والغرب وانصهاره مع سطوة المكان وطغيان فتنته.

تراتيل في حضرة البتراء

الأرض البكر، بتلالها وأوديتها، حلم العارف، تجسيد الرؤى، اشتياق المغامر، عناد الحجر الممعن بالانتظار، جارة باير، مربض قوافل الإبل في طرقات وادي السرحان، ريح الصهباء في مضارب بني مرة، أخت "إرم ذات العماد" وحارستها، مستودع الذاكرة من ثمود إلى ضجعم، "نزهة المشتاق" في اختراق آفاقها، وجهتنا في رحلة الكشف عن النقش القديم.

سلسلة الشراة، هي قصة الأرض المكللة بالغار، والتي تماهت دماً في شرايين فارسها النبطي، فكانت معشوقته التي طرزها قلائد شعر له، وقدّمها أنثاه الجميلة فصارت ندىً لوداي رم، وواجهات البتراء، ونبراساً لدروب الحرير والبخور، وهي العصية الجسورة بخيلها وفوارسها، والسهم الذي شقّ عباب الغيم، لحظة لامست جفنيه ريح الصّبا، فصارت حجارتها ونقوشها مستودع سرّها وسيرتها، وضمير أمتها، حيث لم تستطع الإمبراطوريات العظيمة، بجيوشها الجرّارة، أن تمحو سطراً واحداً من ملحمتها على حجر صلدٍ أو ظاهر رجم في رأس النقب والحسمى والراجف والخزعلي، مثلما تستطيع انتزاع ملايين الكتب والمخطوطات من رفوفها وإلقائها في مياه النهر.

شرقي الجفر، الأرض المسكونة بالوديان والشعاب، شرايين الوادي الكبير وأوردته الممتدة على المدى من الحجاز، حتى مشرق الشمس ومغربها، في أودية شرقي الجفر، وادي الغرة، حدرج، آبار بني مرة، العاذرية، وأم الظواين.

هضاب الحماد، امتداد الأفق في كل الأركان، التقاء الأسودين، أرض انشطار الشظايا وقدح الشرر، الأرض التي طاب لأربابها اسم الصوان، سيمياء الأرض دهشة المستكشف لخشومها، ضلوعها البارزة، تصدعاتها بضيق المكان.

هي قبلة العاشق رغم يباب الأرض وشح المطر، ورغم هروب المجرى وهو يركض إلى القاع، وإلى البعيد حيث اللا مستقر .

بادية معان، ظمأ شجيرات العجرم، والقيصوم، إلحاح المستغيث، ورعونة الاحتياج، مستودع الآبار المكفورة، ولهاث الإبل العطشى في مواردها التي أضاعت عناوينها، فلا أثر، ولا بقايا أثاف، لولا وشاية الرجوم.

بادية معان، مولد السهام الصوانية، مناجل المزارعين الأوائل، ميدان طراد الخيل، مربض الضعائن، فمنذ استقام عود البشر، كانت واحة الجفر بكل كهولتها وهيبتها تشهد على أولئك الذين جابوا المكان في العصور الحجرية.

ولقد كرست النقوش العربية الشمالية والنبطية، تاريخاً طويلاً لحركة دائبة في منطقتنا، ووشت بالكثير الكثير من أسرارها لاستكناه مكوناتها الثرة والطافحة بمجد العصور الممتدة إلى ما قبل القرن الثاني قبل الميلاد، مما يحتاج إلى بحث مستفيض، ووقوفٍ طويل لإحصاء ومحاكمة هذا الكم الهائل من النقوش والنصوص والأثر، وبما تختزله حجارتها من عوالم ظلت صفحة مطوية آلاف السنين لأجيالها الحاضرة، ولتلك التي لم تأت بعد، بتناغم مذهل لاتجاهاتها، مشكّلة في ما بعد أعظم أسطورة بنتها تلك الأكف السمراء والأجساد النحيلة، والكثير من الجوع والعطش، الأمر الذي ساهم بأن ترفع دولة الأنباط العربية وتيرتها بقوة وتعمل على صون تلك المقومات لها حتى تملأ الأسماع وتغازل القلوب وتترك لنا حنيناً لا ينضب للحارث الثالث، علاوة على ما استطاعت هذه الدولة أن تحققه من دورٍ ريادي بالإبقاء على حركة التجارة المارة عبر المنطقة، ضمن مستوى عالٍ من الأمن في كافة مناطق نفوذها، والذي إمتد في كل الأرجاء والفضاءات، قلبها الأردن، وأذرعتها في سيناء والحجاز وحوران وسواحل البحر المتوسط في فلسطين.

وتبقى معان، مستودع الأسرار والبوح معا، تشكلت فيها توليفة الحروف، كوفية، وحجازية، وشامية. هناك.. تتحدر الروح على

بواباتها، بأنسامها الندية، وطغيان موسيقاها، وقد داهمتك دهشة الحرف الثمودي التبوكي ستة قرون، أفقيا، رأسيا، دائريا، ليطبق عليك جهاتك الأربعة.

ويضل المرء وهو يدخل مناطق الحمّاد والحرّات مسكوناً بهاجس الاستكشاف وروح الفضول، والحقيقة بهذا الجانب هي البادية الأردنية كحاضنٍ ورؤى باستكشاف ذاته دون تآمر مسبق بين حميمية تلك الرجوم المترامية على المسافات وقد ظنها الباحث قليلاً ولكنها كعلامات طريق للتنقل والتجارة أو لإيجاد ضالته في نفسه من خلال تلك الرجوم التي كما لو كانت محروسة بالشمس ومسيجةً بالعظمة حين تقع عيناه على نص لم يقرأه أحدٌ بعد كاتبة إلا هو، إذاً هي اللحظة الأولى للوجدانية بين الحاضر والغائب: وبين الإنسان والحجر.

بادبة معان، وأنت أسيرها، أسير ألقها وعنفوانها، أسير لون الرمادي في تربتها المسكونة بالغار على قممها وسفوحها، المضمخة بدم شهدائها وقد خبُّت خيولهم في ميادين مؤاب، وباير، وقاع الجفر، وفي ركني معان، الشامي والحجازي، وقد عقدوا العزم أن تظل السيف الذي ما نبا، والقناة التي لا تلين.

معان وقد تماهت في القريب البعيد، وفي الحاضر الغائب، في سويداء العين واختلاج الحنايا، هي معان، دون غيرها، موطن الأجداد

مذ كانت، على مفرق المجد، كما الأمس والحاضر، وقف ابنها فروة الجذامي، وهو يقرأ على أهلها سورة الإباء، وهو المهيب في حضرة المكان، الذي أسكنه أهله قوة الروح وشريان الحياة.

معان، إيقاع القلب المسكون بالرفعة والقوة والآفاق، وهج الشمس، شبم السيوف، سنان الرماح، اقتراب الجنة، "طيبة وبارد شرابها"، حدو عيس الهواشم، وقدح الموريات، وصبح المغيرات.

بادية الجفر

إطلالة على المكان وسر رجومه

تنوع البيئة الأردنية يمنحها عمقا متجذّرا، متعذرا غير مسبوق في سواها، يقتسم لها شمولا يستوعب الإفصاح عن سر تعدد الأمم والشعوب وتعاقبها على جغرافيته. وَلَستَ تَعْدَمُ وسيلةَ تناول تاريخه من أي زاويةٍ شئتَ، أَو أَن ترسم ملامح أيِّ مقطعٍ تاريخي يَعُنُّ على البال. وقد كانت البادية الأردنية الجنوبية المترامية من شرقي الجفر والممتدة شرايين وأوردة تتصل بالوادي الأم، وادي السرحان، حتى شمال غرب الحجاز تزخر في عين الراصد بسمات تكشف نوازع أهلها وهمومهم، وترصد بكثير من الاكتناز صور الطموح المسكون في العقول والمعتلج في الحنايا.

بادية شرقي الجفر سكن الروح المتحفزة للكشف والوصل مع وقع خطى أقدام من مروا ومن سكنوا، وما كانت مفازتهم تلك إلا جبر انكسار، أو ردِّ لهفة كل من تأزم بهم مقامهم، واعتمل في نفوسهم اختناقهم بالمكان، فكانت بوادي الأردن الجنوبية مكان انعتاقهم في عوالمهم، وحلِّهم بعد أن يلمَّ الزمان أثوابه ويمضي !

ولم تكن النقوش العربية الشمالية على قصر نصوصها إلا تكريسا لحضور المكان، تحفر على ظاهر الصخر والحجر مكنون النفس، وتقبض فيه على المنطوق من أفعال ومن تأملات، ولستَ تملك وأنت تقلب حجارة النقوش في رجومها غير استرجاع ما كتبوا، وتستنطق النقش رؤيا تستحضر الروح التي سكنت الآباء والأجداد فتستشعر قداسة المكان وسطوته.

في رحلة الكشف عن الرجوم ونقوشها في بادية الجفر الشرقية تتيقن أن صوغ القريض ربا إثر خطى الأجداد في أرض الحماد والحرات، فغدت رباها مثار الإلهام، ونقطة البدء نحو رحابة الكون ... ورُقم أساطير مجد أبنائهم وانتصاراتهم وقد جعلوها وهي مفازتهم ضيق الصدر والمسافة على الباغي.

قراءة النقوش وتحليلها تعلق بأهداب الماضي، ففي كل حرف من حروف نقوش العرب المسندية في بوادينا الأردنية تَلُحّ ملامح الوجوه التي رقمت حروف هذه النقوش، تستحضرهم، وتتلاقى صور الشخوص المنحازة بكل تقاسيمها إلى سمرة اللون ونقاء السريرة، بأوتار ربابة عَذُبَ لحنها، فكانت حبلهم السري بين القلب والأرض.

بوادي جنوب الأردن عقد أبدي يمنح الحياة لأبنائه، ويستحضرهم جمالَ واقعٍ، وحلمَ زمنٍ لم يَتَرَدَّ، ونحن إذ نستنطق نقوش البادية

نستحضر الماضي الجميل بكل الحنين واقتراب الزمان والمكان، ونسكن فضاءه أنساً، ونقرأ حروف نقوشه لغة عربية نعي فيها مراد الأسلاف دون تأويل أو لجلجة.

أليست هي المختالة بذلك العقد الجميل على عفاءة ما استبد بها من سائرين إلى المجد، إذ ينفرد تفوقهم وعظيم تحديهم للظى الصحراء وإهابهم الحفيظةُ تستبق فضاءات المطموس وكنه مخبوئه ولو عطفت خيالا على محيا حصاها فهوَّمت النفوس والمنازل فكانت قشاعم صحرائها، وصلابة عودها، ونفسها الأصيل ...

هنا تطرق أبواب العشق، وهنا تبكي الكؤوس ساقيها، هنا ليل الدجى المخبوء بظل الكرى إلا ما بات في مثوى صوغها وعناق محبيها.

لا تنطوي رحلة البحث عن نقوش الجفر على ما اعتدناه من إعادة تشكيل مفردات هذه البيئة، عن طريق البحث عن نقوش تعلو حجارة تتم نقحرتها وترجمة مادتها فحسب، بيد أنها رحلة الغوص إلى عالم يبدو بكرا يحتاج لمن يستكشف كنهه، ويتفحص البيئة من حوله، فهي موضوعه وعالمه، كما هي عالم كاتبي نقوشها، يستحضرهم المستكشف نداماه، وعالم درسه وسرديته، فيتعاطاها في شحنات شعورية تعكس تراضي الذات مع عالم النقش من جهة، ورافضة قصور التواصل من جهات، إذ لم يسجل عالم من علماء الكتابات السامية أية محاولة من

محاولات الاستكشاف في منطقة الأودية الواقعة شرقي منطقة الجفر حتى حدود الوطن مع شمال غرب الحجاز، ولم تنل هذه الأودية، الواقعة إلى الجنوب من منطقة باير الغنية بالنقوش والدراسات، من جهود المسح الأثري أو النقشي ما ناله وادي باير من الشمال، ووادي السرحان من الشرق، ووادي رم في الجنوب.

رحلة البحث عن النقوش هي استكشاف كنه البادية، والإبحار في زمانها حد التلاقي مع قاطنيها أجسادا وأرواحا، وهي رحلة البحث عن اكتناز اللحمة في استحضار الذات في تأصيل الجذور والوطن في عشرات الرجوم التي تحتضن رفاة أبنائه على تعاقب الأحقاب وتعدد الظروف. فكان هاجس الرصد والبحث عن عالم هذه النقوش وقت تناهى لأسماعنا وجود كتابات على الحجارة المنبثة فوق رجوم تلك المنطقة. ولقد حمل لنا هذا الخبر مدلولات عميقة عن المكان، وضرورة تبصر الحياة فيه حاضرا، وطواعية المضي في استحضار التاريخ بصوره الوجدانية والمادية، مما دفعنا إلى القيام بجولات استطلاعية في المنطقة، فكانت حافزاً لجولات ميدانية مسحية منظمة أخرى، بعد أن تزودنا بالتصريح اللازم للعمل من دائرة الآثار العامة الأردنية.

ولقد رافقت متعة البحث ولذة الاكتشاف صعوبات جمة، تمثلت في بعد المسافة، ووعورة المسلك، وقفار المكان، وخلوه من السكان المتنقلين

بشكل شبه تام، علاوة على المساحة الشاسعة التي يتحتم علينا التنقل بين رجومها، ورغم ذلك فقد حرصنا في الميدان على توثيق النقوش أولاً بأول، حجرا حجراً، ورجماً رجماً، وقد امتازت بعض الأودية بكثرة رجومها، وبعد المسافة فيما بينها.

فيها ومنها إن شئت فالطريق إليها يختزن الرؤى بثراها الندي وعطر الصباحات بين وديانها التي تحرك اللواعج، وتسأل الأوصاب أية طفولة تلك التي اجتازت عذاباتها، وخففت صولة الدهر فيها، فلم تأخذه مدمعاً وحسرةً، ولم يجفُّهُ الندى شيما وذكرى بل نادت عاشقها من أوجها، هنا أرض الحماد غيرةٌ وغضبٌ وبعثُ هوىً وروض رمال...

تنتشر في منطقة شرقي الجفر أودية عديدة تشكل شريانا يربط بعضها ببعض، ويربطها بالوادي الرئيسي في المنطقة، وهو وادي السرحان، وتمتد هذه الأودية عبر حدود السعودية والأردن، وأهم هذه الأودية هي: وادي الغرة الشرقي، وادي الغرة الغربي، وادي حدرج، بيار بني مرة، العاذرية، أم الظواين الشرقية والغربية، وادي الحصاة، وادي الطريفيات، ووادي الخشابية، وغيرها.

هذه المناطق هي أرض الحماد والبوادي الداخلية، حجارتها صوانية وكلسية صلبة، ويغطي جل سطحها شظايا حجر الصوان، فهي أرض الصوان عند عارفيها، وتبرز في الموقع وجود بعض الخشوم،

الناتجة عن اضطرابات في بعض المناطق الضيقة.

أودية المنطقة جافة في غالبية أيام السنة، لقصر فصل المطر، فإذا ما سقط فانه يسقط بسرعة فتجري مياهه في الأودية باتجاه القيعان والأحواض أو إلى الأودية الكبيرة كوادي السرحان. ونتيجة لجريان المياه في هذه الأودية تنمو في قاعها النباتات الصحراوية قصيرة العمر، ومنها شجيرات العجرم، والقيصوم، والسلا، والجرباء.

يمضي أصحاب النقوش العربية الشمالية، ودارسيها، على تعاقب الأيام، في رحلة بحث مستمر عن تواصل غير موتور ولا مبتور مع الانتساب إلى كل ذلك الزخم من الذاكرة المكانية، بكل ما فيها من مقومات الحياة، وبما يحمله قاموس أصحاب النقوش العربية الشمالية من هاجس القلق من المجهول والصراع مع المحيط وفق خلفية تمنحه حدة الذكاء والتوقد، وتحفزه في المضي في غاية التيقظ، فتأتي الحالة الحياتية اليومية غير اعتيادية من التأثر والتأثير في الجو العام لإيقاع الحياة والبيئة من حوله.

وعلى تقلب الحال يبقى هنا موكبها الأغر وقمر الأماني على صرخات تلاشت تعابيرها، فما رضيت هونا، ولا شاخ بنوها، فجاءت نقوشهم على حجارة رملية صلدة بمجملها، وذات أحجام متوسطة، ترافقها تربة الوادي الرملية، وقلما وجدنا نوعاً آخر من الحجارة

فوقها، حيث تظل مطاف حنانهم العميم وامتداد عباب أمواج رمالهم. وقد يكون نوع الحجر الرملي الصلب أحد أسباب قلة عدد نقوش هذا الوادي أو ذاك، ويرجع الأمر الثاني في قلة عدد نقوش الواديان بعيدها النسبي عن وادي السرحان. فقد بينت لنا أعمال المسح الأخيرة أن كثافة النقوش تزداد في المنطقة كلما اتجهنا شرقاً، أي كلما اقتربنا من وادي السرحان الذي يشكل الشريان الحي لقبائل وقوافل كل من الجزيرة وبلاد الشام. وقد جاءت بعض النقوش مخدوشة خدشا على سطح الحجر الرملي بواسطة رأس مدبب، ومنها ما جاء مطروقاً طرقاً متتابعاً، فغدت حروفه أكثر سماكة، وجاء بعضها بالخط المربع، حيث تستقيم فيه الخطوط وتتضح الزوايا، وجاء نمط الخط السميك، ذو السطح الهش.

وأية خطوط لغير باديتنا الأردنية، غير خطوط التوحش والغربة والتنائي، على خلاف وفائها، وجزي عطائها؛ ساكنةً البوادي منفردة، تستشف سكونها، وتكتب قصة الفؤاد ما بقي الدهر، مجللاً بدماء الصادقين إذا جنَّ ليل وطوى الإباء مدى المقامات العالية والذرى المنهارة بلوعة ومرارة ...

تَخْلُدُ هذه النقوش وتزداد روعة لا من جودة الخط، ولا سعير الأماني، بل بما أرادته همم الفرسان في زمانها، والرعاة فوق لظاها،

وتجارها الفقراء! مختالين فوق حصاها جبابرة، يتوقون إلى العلا والمجد قبل توقهم إلى رغيف الخبز، ولذا لم يطعن القلب وحدته، ولم يجد ريَّاً ولا شبعاً بل وجد الأمل وسفر الخلود

بادية الفدين
قصرٌ مُشاد وقلعةٌ حصينة

يسكب المكان زركشاته، بكل أطياف التذكارات التي تعتمر نفوس أهليها، أو بما تخبئه أثافي الأوابد، فأرض الحرة في مكنوناتها، وثائقَ حجرية علتها نصوص كتابية ورسومات خربشها عابر مفازة أو راعي إبل، أو جندي يحرس مضارب قومه، أو مجند في عسكر المقاطعة العربية بداية القرن الثاني الميلادي. وها هي بادية الفدين تقف سموا وأنفة حيث وهج الماضي.. ووعد المستقبل.. وقد خفقت فوق بيدائها ألوية الفتح عبورا إلى القدس واليرموك وحطين.. وعظمة الكد والعزم وقد قادت مع شقيقاتها معان وإربد والسلط والكرك وعمان تاريخ الأمة عبر أجيالها وسورتها حمرة دماء ابنائها وتخضبت به بنان صباياها وهي التي تعلم أن الوطن وطن الأحرار وأن اللواء لواء المجد .. وأن التضحيات ما طالها حدٌّ ولن يطول.. فهو وطن يحمل في روحه مبادئ الأشراف من آل هاشم..

وهل تحيد البصائر إلا للمفرق وبها.. بشائر حق على حداء فرسانها قبل عشرات القرون وهم يشيدون في صدورهم قبل فيافيهم مدن المجد والتفرد في أم الجمال النبطية شقيقة البتراء العربية.. وهي

مدن الزمان والهوى.. لفتهما عباءات الأردنيين الأنباط وهم ينسجون قصبها من دمهم القاني ويحملون شعار الشموخ وقد تكالبت عليهم الدنيا، فما وهوا ولا رضخوا.. وظل خيل الحمى يحمحم عربيا، جحافل فرسانه من الحارث وحتى عبد الله الثاني فرسان أقسموا أن يظل الأردن حاضرة الشرق والشرف بدماثة ملوكه ووداعة أهله.. وجَدِّهم وهم يترنمون أفياءه ويطوف بهم جائلا بشرحبيل ومعاذ وبين سراياهم فرسان حق ما حوروا التاريخ وما اختصروا الجغرافيا وما انثنت حواضرهم، بضميرها المأهول وأنفاسها الحرّى من سبيل حورياتها حتى وادي سلمى ووادي شبيكة وفضاء باير.

وعلى الوتين من القلب .. الفدين.. وأم الجمال ودير الكهف وأم القطين ورحاب ديار غنية طافحة بالروح والنبض والمساءات التي لم تكن إلا لها، وهي تحاكي مجدا وشموخا وتسكب الحق ما أشرقت الشمس وغازلت خيوطها الآفاق..

أنداء المفرق تسري موج عبير في شفقها والغسق.. تلامس الروحُ الروحَ، ذاكرة حجر سطر فوقه المحبون مراسيل عشقهم.. وشرفة مشكاةٍ أضاءت الدروب للقبائل وهي تحتمي ببيدائها تحصنا ضد روما وفارس. فها هو امرؤ القيس في نقشه على مقربة من الفدين يعلن نفسه ملك البقاع والعرب كلهم لا طيوف أماني، ولا اشتهاء لغرور،

ولكنه تأصيل الهوية وتأكيد النهج المقاوم لفارس وروما حيثما طمعا بأرض العرب مراكز نفوذ أم أتباعا.

هي المفرق التي تتهيأ دوما للمضي إلى رحابة يوم جديد.. تجري إليها جداول الحلم.. فيشرع لها أهلوها مدلاف صروح المعالي .. وهي المفرق فاروق الأرض بين البادية شرقيها وجنان الأرضين غربيها "فبأي آلاء ربكما تكذبان".. شرق النسور وفضاءات البرانيس.. وغرب الرحيق والندى واشتعال الشوق

نعتها صاحب معجم البلدان باسم الفدين؛ وهو القصر المشيد أو القلعة الحصينة، وهي على أية حال على مفرق الطرق التجارية، وعلى طريق الحاج الشامي، ويرتبط بها المسافر نحو الحجاز جنوبا أو بلاد الشام شمالا أو الهلال الخصيب شرقا، فعرفت إبان العهد العثماني وما تلاه بالمفرق.

وقد تَسَلْسَلَ استيطان الإنسان في المفرق بدءا من العصور الحجرية حتى يومنا هذا فلم ينقطع الفعل البشري فيها طوال تلك الحقب والقرون.

وتتحدث المصادر عن المفرق باكتناز معرفي له مؤشراته المادية الأثرية، إذ تعاقبها الاهتمامُ وفق متطلبات كل مرحلة ومستلزماتها، فلما كانت الدولة الآشورية ذات طابع عسكري، اصطبغت المفرق

بذلك حتى عصور ممالك شرقي الأردن أدوم ومؤاب وعمون، والعصر الآرامي الذي تلاه، إلى أن انتشرت المسيحية في العهد البيزنطي فكثر فيها مؤشرات الاهتمام الديني، ثم تعاقب الاهتمام عليها عسكريا تجاريا مع بزوغ فجر الإسلام على بلاد الشام عامة.

وفي مؤشرات التاريخ وأخبار الأعلام يذكر ياقوت الحموي أن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر توفي ودفن بها، وأن سعيد بن خالد من نسل عثمان بن عفان قد انتسب إليها باسم الأموي العثماني الفدّيني، وعندما تحول طريق الحاج الشامي في القرن العاشر الهجر ماراً بالمفرق نعتها الرحالة صاحب رحلة الشتاء والصيف، بالوادي القديم، وهو المفرق لأن الحجيج إذا رجعوا تفرقوا فيه..

وعلى امتداد مساحات البادية الشمالية، نتصفح إرثا حضاريا طافحا بصفحات مشرقة ومكتنزا بحوادثه التي نستشعر فيها تعاقب الفعل البشري، الذي يعكس تشابك العلائق، من فعل حضاري، ووجدان فياض، وشموخٍ بقدسية الأرض وعبقرية منجزها، فقد كشفت النقوش العربية التي اكتشفت في وديان بادية المفرق، وحراتها، تاريخاً طويلاً لحركة دائبة في منطقتنا، ووشت بالكثير الكثير من أسرارها، والطافحة بمجد العصور وتعاقب الأحقاب.

يرسلك المدى الأزرق في سماء الفدين إلى استفاقة الحجر الراحل عبر السنين في وادي سلمى ووادي باير، وهو يبعث صفحات التاريخ ميراثا امتدت ظلاله عشرات القرون، غير هياب من بوح الربى، وتطواف الصبايا في المدى يقرأن ظواهر النقوش ومبطناتها؛ صبابات.. وأشجان.. وذاكرة الكلام.. وسِفر القبائل والقوافل.. وشواهد اللحود.. وفاتحة الكدح وهطال العرق وهول المفاوز.. وعسكر روما.. وآلهة الحرّة وأرباب القبائل من جاد عوذ إلى شيع القوم.. وطي الفيافي لفك لغز الحرف وسر الرجوم.

فما الذي تبوح به نقوش البادية في شرقي المفرق.. وقد توسدت سود الجلاميد واعتلت ركاما ورجوما فوق ساحات الحرة.. تاريخا يعكس الشأن اليومي للقبائل، ناسها وشيوخها ومعبوداتها وأسماء أيامها، ومضاء النصال وكرم المحتد، وعن نبل الحزن وركام الحجارة فوق القبور، والوجود في اشتداد الحزن الذي يمسك عن الكلام، وهم الذين أمسكهم الهم.. لكنهم بعثوا في المدى روح الأماني.

زخرت النقوش بألوان التمنيات والرجاء وعكست وجدان مجتمع العرب الصفويين قبل الإسلام، فقد كانوا يلجأون لتدوين جميع أحوالهم وظروفهم فوق الحجر وعلى الجلاميد الراسخة في الأرض، فنقشوها في حالات السفر يركبون فيه تمنيا شراع السلامة، أو الانتظار وقد طال

بهم فهاج الحنين إلى طيف من هجر وغاب، ووثقوا أيامهم وحروبهم وقد تقصفت السهام وتثلمت الرماح، متبتلين لآلهتهم أن تهبهم السلام نابضا بحلم الأمن وجني ثماره غنى وخلاصا تتناهى فضاءاته جوارا لسهيل والجوزاء.

يقبضون على أوجاعهم وجوعهم، وإن تعبت العيون في انتظار القادم من بعيد، يحمل بشائر الفرح، فهم القوم يشقون ويكدون.. لكنهم ما تخلوا عن الشمس ضوء نهارهم، والقمر هدوءا وسكينة يبلج عتم لياليهم، وتظل الحرائر فيها أخوات الرجال يقبضن على محور الدنيا ومداه تعففا وشرفا وفضيلة.. ورجال الفدين وهم يحاكون عنترة في تَبَصُّرٍ الشجاعة.. يتسع الفضاء لهم على مداه فتعتلي هاماتٌ وقاماتٌ جِباهُها سمرٌ وعيونُها ومضُ برقٍ وكأنما تملكت جني الأرض جميعا، فتحسبهم أغنياء من التعفف.. خطوهم رجاء وأمل.. لا يهجرون الأرض وإن أربدت تربتها .. يمتلكون ساحات العطش سرابا يملأ الأفق حد المدى، لكنهم ما مزقوا أشرعة الأمل والرجاء، وهم يعون أن شرعية الحنين عند قيس العذارى لليلاهم.. وأن عيون زرقاء اليمامة تتعب دونهم.. وأن هوى حوران ورحاب ودير الكهف والمنشية وأم الجمال والحرة والجبل فيض حبٍّ يتهادى موجه فوق البادية شرقي المفرق وعلى الكروم والدوالي غربيها، وتبقى المفرق سلطانة المدن..

تقود قافلة المجد نحو القلب على وعد الحُسَنَيَين.. فعمان وجهتها على الأمل المجنَّح.. دونها تنحسر المسافات .. تستهوي أَهْلَها أبجدية عشق سرمدي.. فالمفرق لا تعلن صمتها.. بل تطرق أبواب البوح عشقاً وهياماً.. لعمان.. ولصقر عمان.. وللمضارب وهي تعلن ربيع الحياة عرشاً هاشمياً، تهون الدنيا بأركانها دونه..

البادية الأردنية

ذاكرة المكان والحجر

تحتضن البادية الأردنية عشرات الآلاف من النصوص، التي تعكس العلاقة بين الإنسان والمكان، والإنسان وأخيه الإنسان، تلك هي المسألة التي تسردها لنا الحجارة والنقوش في بوادينا الأردنية الشمالية والوسطى والجنوبية، فقصة الخلق تلك، والأرض التي تماهت دماً في شرايين فارسها العربي، وقد كانت شغله الشاغل، ومعشوقته التي طرزها قلائد شعر له، وقدّمها أنثاه الجميلة فصارت ندىً لأرض الحماد والحّرات، ونبراساً لدير الكهف والحسمى، وهي العصية الجسورة بخيلها وفوارسها، والسهم الذي شقّ عباب الغيم، لحظة لامست جفنيه ريح الصّبا، فصارت حجارتها ونقوشها مستودع سرّها وسيرتها، وضمير أمتها، الذي لم تستطع الإمبراطوريات العظيمة، بجيوشها الجرّارة، أن تمحو سطراً واحداً من ملحمتها على حجر صلدٍ أو ظاهر رجم في أم الجمال والحلابات وغيرهما، مثلما تستطيع انتزاع ملايين الكتب والمخطوطات من رفوفها وإلقائها في مياه النهر.

وعلى امتداد مساحات هذه البوادي، نتصفح إرثها الحضاري الواسع، ونستشعر عصورها المتعاقبة، باستقراء حثيث لجغرافيتها

ومجموع العلائق المتشابكة، من رعي، وتجارة، وزراعة، ووجدان فياض، وشموخٍ بقدسية ذراتها، وهي ترنو إلى الآفاق والحقب البعيدة كأنها تسعى لفك رموز الخلق والتكوين أو كأنما بدت نادمة على رفض الأمانة وخجلى من النظر إلا للبعيد البعيد.

وهكذا فقد كشفت النقوش العربية الشمالية، تاريخاً طويلاً لحركة دائبة في منطقتنا، ووشت بالكثير الكثير من أسرارها لاستكناه مكوناتها الثرة والطافحة بمجد العصور الممتدة إلى ما قبل القرن الثاني قبل الميلاد، مما يحتاج إلى بحث مستفيض، ووقوفٍ طويل لإحصاء ومحاكمة هذا الكم الهائل من النقوش والنصوص والأثر، وبما تختزله حجارتها من عوالم ظلت صفحة مطوية آلاف السنين لأجيالها الحاضرة، ولتلك التي لم تأت بعد، بتناغم مذهل لاتجاهاتها، مشكّلة في ما بعد أعظم أسطورة بنتها تلك الأكف السمراء والأجساد النحيلة، والكثير من الجوع والعطش، الأمر الذي ساهم بأن ترفع دولة الأنباط العربية وتيرتها بقوة وتعمل على صون تلك المقومات لها حتى تملأ الأسماع وتغازل القلوب وتترك لنا حنيناً لا ينضب للحارث الثالث، علاوة على ما استطاعت هذه الدولة أن تحققه من دورٍ ريادي بالإبقاء على حركة التجارة المارة عبر المنطقة، ضمن مستوى عالٍ من الأمن في كافة مناطق نفوذها، والذي امتد في كل الأرجاء والفضاءات، قلبها الأردن، وأذرعتها

في سيناء والحجاز وحوران وسواحل البحر المتوسط في فلسطين.

إن الباحث عندما يدخل إلى مناطق الحمّاد والحرّات يضل مسكوناً بهاجس الاستكشاف وروح الفضول، والحقيقة بهذا الجانب هي البادية الأردنية كحاضنٍ ورؤى باستكشاف ذاته، دون تآمر مسبق بين حميمية تلك الرجوم المترامية على المسافات، وقد ظنها الباحث قليلاً، ولكنها علامات طريق يجد فيها ضالته، وهي المحروسة بالشمس والمسيجة بكل تلك المفازات، فحين تقع عيناه على نص فوقها، لم يقرأه أحدٌ بعد كاتبة إلا هو، تولد ذروة انتشاء الكشف للتواصل الوجداني بين الحاضر والغائب: وبين الباحث والحجر.

نقوش البادية والذاكرة الوطنية

نجوب بوادينا الأردنية، فتستفزنا الأمكنة، وينثال عبق الماضي بكل رموزه ومتونه، مسكوناً بألمعية تعيد الروحَ بالمرسلات، فكلما أعملت فيها معول البحث اتقدت في الحنايا لهفة استكناهها وفك رموزها، فَتَصّعَدُ النفس رفعة وتشرفا، حاضرة في الزمان، تسكن الصدور نوراً، تتدارك ظلمة الأحقاب، وطلسم أسرار المفاوز. ويخال لي أن مسألة البحث في المدلولات، التي تشير إليها حركية الأفعال، في عشرات الآلاف من نقوش البادية الأردنية، وفهم السلوك الثقافي والاجتماعي الكامن في معانيها، وبلوغ المدرك، في اتساع أفق مجتمع البادية، وقبول هذا السلوك، هو جوهر استنطاق مكنونات النقوش، وتلمس التوافق النصي المسكون في لغة النقش؛ من حيث تكاملية الحالة الاجتماعية والثقافية، وهو بذل المستطاع في نقحرة رمزية النقوش، واستقرائها، وفتح نافذة لرؤية عالم كاتبيها على وجه قريب، ويكون منهاجا لدرس الماضي، والاعتبار منه لفهم الحاضر، وحشد كل ذلك المخزون زاداً لاستقراء المستقبل.

وتتجلى حدود التواصل في مجتمعات البادية الأردنية عند العرب القدماء، الطبيعية والاجتماعية، من خلال عدد من المواقف الاتصالية التي تطرحها النقوش التي خلفوها وراءهم، ومنها: حد الانتماء القبلي،

وعلاقة العمل، والتواصل الديني، والموقف الاحترازي تجاه من يخرب النقش. ويبلغ التواصل حد الارتقاء في قراءة الأسفار وكتابتها، وفي التعاطي مع إشكالية انعكاس ذلك على الخصائص الحضارية لمجتمع العرب أرباب هذه النقوش.

وينبغي أن ينبري المرء في استقرائه للنقوش لفهم دلالات الأسماء والأفعال الواردة فيها، وارتباطها بمجتمع العرب القدماء، والاتساق الداخلي فيما بينها، وبينها وبين المجتمع من حولها، والالتفات إليها بوصفها ظاهرة اجتماعية، وتدارك الأنماط السلوكية فيها. والبحث في مسألة إلغاء التعارض فيما بين صاحب النقش بدلالات سلسلة النسب وبين مجتمعه.

ويتحتم علينا تفهم بقاء ذلك المجتمع رهين القلق في الفضاء المكاني الممتد المفتوح، المتحرك وفق متطلبات الظروف البيئية، حيث السعي إلى توفير مصدر الرزق الكامن في مستلزمات التكوين الكوني الأساسية من ماء وكلأ، والمشوب دائما بهاجس الهلاك الكامن في مغامرة البحث الدائم، أو الخطر البشري الداهم من الآخر، الذي يسكنه نفس الهاجس وتتحكم به ذات الحاجة، وهو ما يدركه الباحث من خلال استنطاق هذه النقوش التي تشي بعلاقات استعداء داخلية صاغتها ظروف الصراع من أجل البقاء.

ولنا مقارنة ما جرى بما يحدث الآن في المنطقة، إذ إن أمر هذه القوى الغازية، محسوم سلفاً بطردها من المنطقة مهما امتدت سنوات وجودها، فهي مهزومة ساعة ينتهي أهلها من تهيئة الظروف الداعمة للنهوض، فلا تحالفات الإمبراطوريات، ولا المعارك العسكرية القصيرة أو الممتدّة زمنياً ومكانياً كانت قادرة على إخضاعها وأهلها، فعناصر القوة متجذرة لدى أبنائها وتضاريس أرضهم التي تصطفُّ دائماً إلى جانبهم، وتمنحهم القدرة على المناورة والحركة في فضاءاتها الشاسعة فهي مفازتهم ومهلكة عدوهم.

إن نقوش البادية الأردنية، بكل مفرداتها المكتنزة بذاكرة البرد والخوف، والسكن والطمأنينة، والضعف والاستقواء، وبذاكرة الفرح والحزن، ظلت رغم القرون خالدة بسنا ابتهالاتها ووجد أحاديثها الغابرة، حاضرة فينا نسترق السمع من كل الدهور الغابرة.. تعلو أنشودة ما ضاعت قوافيها، فانطلق الخيال في بيدائها أنغاما وحدوا ونجوى قيس العذارى .. هنا خرائط الشرق، وهي تزخر بذاكرة الجند حينما تضجُّ الدروب والقلوب .. فلا نَفْرَةَ إلا لهذه الرقاع ... ولا حوم في فضائها إلا لبواشقها .. ولا مالك لها إلا أبطالها حينما سروا قبل داعي الحمى، فما أفاضَ الصوت ولا اهتزت أوتاره، فكانت نقوش البادية الأردنية صوغ القريض، ومثار الإلهام.

نعم، لم تكن بوادينا مفقودة في سفر التاريخ، بل مخبأة في تضاعيف الروح، ألمَّ بها العشاق، دالوا بها مجرى الدم في العروق، ورنوا إلى مجدها، فكانت بواكير أشعارهم وأثافي حروفهم. وها هي أسفار أهلها تفترش الأرض، تضمهم وتضمنا فتنشد أهزوجة التاريخ خالدة، وسامية في سماء البوادي، عذبة في رقراقها، ثملة تسكب راحها في الروح، وتظل مسيجة بدم شهداء هذا الوطن .. الدارعين بقاماتهم نبع صفاء وطول قناة ... ولتخفق فوق صهوة رباها البيارق أردنية هاشمية. فبوادينا لا شتات حمى ولا نبو سيوف، بل خيل جامحة في الصدور، طاب فيها اللقاء وطابت المنازل...

نقوش الحماد والحرّات القديمة

النقوش مرآة تعكس الكدح ومسافات التعب التي أحكمت طوقها على علاقات العرب القدماء في أرض الحماد والحرات في البوادي الأردنية مع طرفي التكوين المكاني والزماني، والتي تنبه إلى علاقات متذبذبة قرباً وتنائياً، بغضاً حد القطيعة والاحتراب، ومودة درجة التفاني وردم الهوى والمسافات، والعربي في تذبذبه الوجداني هذا يبحث عما يضع المسافة بين الحلم والتشهي إلى استحالة سراب الصحراء ماء يجري فوقها يروى زرعاً وضرعا ليدرك الرمادي لون التربة الحمراء رياً وخصباً، لا طمعا في مقام ومكوث بل تقويضاً لمقوم الصراع وبعث الأيام بتوافر الماء والكلأ هنا وهناك على امتداد أثر القطيع وأوتاد بيوت الوبر.

لإن العربي في باديته، وعشرات آلاف النقوش التي خلف تعكس نمطية الفعل اليومي المتكرر الذي يشكل جوهر أسباب البقاء.. فهو يشعر من خلال تكرار الأداء بحتمية ما يقوم به، وعبثية تركه. ولعل تتبع النقوش عند العرب، يعد محاولة فهم أحسن لطبيعة المجتمع، واستيعاب الأحداث وإيقاعها المجتمعي، التي أوصلتها لنا نصوصهم المسندية. فقد كان العرب في بواديهم على قلق.. لكنهم لا يعلنون

شكاوى احتجاج على ايقاع الانتقال الموسمي المفروض بحتمية نمط الحياة الاقتصادي القائم أساسا على الرعي..

يذهل المرء وهو يشهد فاعلية العربي في البادية الاردنية في إحلال عامل الوقت إطاراً واعياً لإرادته وفعله، وهو إذ يمتلك هذه المهارة فإنه يحتمى بها خشية النهايات والغرق في زحام العموم. ويخال لي أنه حَرِصَ غاية الحرص على ألا يكون غفلاً يتشبث بتلابيب الخيال والسراب راكبا بحر الأمنيات، فهو يرجو المشاركة في صنع العالم من حوله، ولا ينوي ترك مكوناتة تتبعثر من حوله فتسقط من يده. فلقد أسهمت البرية في رسم ملامح الحياة الاقتصادية العامة من مراع وواحات وأماكن تجمع المياه وتساقط المطر.. وشعاع شمس يهب الدفء حينا.. ويذهب بالأخضر النادر في غير حين. فحياة البادية تصارع حقيقي بين السلوك الإنساني اليومي داخل المجتمع، وبين ما تحتمه مقتضيات اللحظة من تصعيدٍ وحشدٍ لرفع الوعي بالخطر الداهم من تقليات بيئية وتغير في وتيرة العلاقات مع قبائل الجوار.

لم يزل العرب الشماليون يعاينون تعاقب الفصول لضبط محاور حياتهم الاقتصادية، وتبديد السلوكات التي تتصاعد في بعض المرات حد الاقتتال، وهي انحياز عن نهجهم وسلوكهم الغالب على علاقاتهم الانسانية فيما بينهم ومع الجوار. وقد التصق العرب القدماء بسبل

العيش مع الجماعة، وتنكروا للعزلة والتصعلك والاغتراب. وقد أبرزت نقوشهم بشكل واضح هذه الحال في بعض المرات، وغابت أو كادت في مرات كثيرة.

وطفق العربي في نشاطه الاقتصادي يتواصل مع المحيط الاجتماعي ويتفهم البيئة من حوله ويتشبث بمقومات البقاء، التي كان أولاها الرعي وتربية الماشية، وهو ما أفصحت عنه النقوش كثيراً. ويبدو أن اجتماع العوامل الاقتصادية والنفسية والاجتماعية والطبيعية حفزت العربي لممارسة هذا النشاط، ودفعته إلى التمسك به جنباً إلى جنب مع نشاطي الاقتصاد الأخريين الزراعة والتجارة.

ولا غرو أن توحي عشرات النقوش العربية الشمالية بالبيئة الصحرواية الرعوية، وتكرسها أكثر من غيرها، الأمر الذي يؤكد بداوة أهلها، وتنقلهم الدائم أو الموسمي، واعتمادهم في المقام الأول على الرعي وتربية الماشية، ولعل هذا دأبٌ دأبَ عليه سكان البادية، سيما في مراحل هجراتهم الأولى من الجزيرة العربية إلى بادية الشام، ونتلمس فيما بعد عوامل تأقلم العربي مع البيئة الزراعية الرعوية، فأرض الحماد أرض صالحة لتربية الماشية، و قد أمدت المنطقة بالغذاء من اللحوم، وكان البدوي يقايض المدينة مقابل ذلك بالمصنوعات والحبوب.

قد كان الرعي سيد أنشطة العرب كثافة، وذلك في المناطق الشمالية

والجنوبية من بلاد العرب، واستمر الحال ذاته في الشرق الأدنى القديم آلاف السنين. فإلى جانب زراعة المحاصيل، ربى العرب المواشي في المراعي التي تنبت فيها الأعشاب الرعوية، وحقول الحنطة. وفي توظيف النقوش لدعم ما ذهبنا إليه من اهتمام العربي قبل الاسلام بالانشطة الزراعية تتخاطر مفردات عديدة تتشكل فيها جمهرة الألفاظ الدالة على جوانب الزراعة المختلفة ففي الإطار المكاني الزراعي نرصد لفظة (أ ب ي) في نقش يشير إلى المرعى الصغير، وفي نقوش أخرى يتسع الإطار المكاني في منطقة أوسع وأكثر خصوبة، حيث لفظة (ر ح ب ت)، فهي مرعى العربي، ومرابعه. ونشد العربي المروج ذوات الارض الممتدة المستوية الصالحة للزراعة، حيث أتت النقوش على ملكية المروج.

وتنقسم المفردات التي توردها النقوش العربية الشمالية، والمتعلقة بالمزروعات في مجملها إلى نباتات برية رعوية، كانت متطلبا رئيسيا في حياتهم، بينما أوحت مفردات أخرى بوجود نشاط زراعي يتطلب استقرارا وفلاحة، هدفها توفير الغذاء للإنسان، الذي يقوم بنفسه بعملية الزراعة.

ولعل الحال، في جنوب الجزيرة العربية، مختلف عنه في شمالها في بعض ملامحه. وخصوصا في مسألة الزراعة. ولقد أسهم عدم وجود مصادر مياه دائمة، وقصر مواسم الأمطار، وقلة مناسيب المياه

فيها، العرب في جنوب الجزيرة، كما في شمالها، إلى البحث عن سبل إدارة المياه، والمحافظة عليها، واستغلالها الاستغلال الأمثل في عملية الزراعة، وقد لجأ في سبيل ذلك إلى التناوب على عملية الري ليلا في كثير من أصقاع الجزيرة، اتقاء لتبخر الماء الكثيف في النهارات اللاهبة.

ولقد حرص العرب في أرجاء البوادي العربية على تخزين المياه وحفظها في آبار خاصة، ليعيدوا استخدامها في غير مواسم هطول الأمطار، وقد برع عرب الجنوب وعرب الشمال في بناء السدود والآبار وقنوات سحب المياه إلى الأراضي التي تحتاج إلى الري، وليس أبلغ من مثلي سبأ في الجنوب، والأنباط في الشمال.

قال تعالى: "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ".

ومن جانب آخر، تعتبر منطقة حوران في شمالي الأردن حتى يومنا هذا من أكثر المناطق خصبا في زراعة القمح والشعير، وفي مواسم الأمطار الوفيرة كان السكان يلجأون إلى زراعة المحاصيل التي تسهم في توفير الطعام لهم ولمواشيهم.

ورغم اتفاق أغلب الدارسين للنقوش العربية الشمالية على بداوة مجتمع البادية في الشمال، غير أن هنالك ميلا إلى اعتبارهم أشباه

بدو، اذ بدا من خلال بعض النقوش العربية القديمة، أنهم قد مارسوا أنشطة تجارية وزراعية، غير أنهم لم يتركوا "حياة البداوة نهائيا، بل كانوا يحيون حياة تجمع بين البداوة والحضارة، إذ كان منهم الرعاة ومنهم الزراع، ومن هنا ندرك كيف أن تأثرهم بالحضارة السامية الشمالية لم يكن سريعا بل تدريجيا".

وادي الغرّة يسرد قصة العرب الشماليين

عندما تبدأ الشمس رحلة المغيب.. تنساب النسائم نحو الروح.. وتدرج مواكب النجوم نحو أفلاكها رويداً رويداً، تتجمهر قناديلَ سُمّارٍ على ضفتي الكون، مفعمة بنور يهبط من السماء مغازلا ذرات الرمل وأعشاب البرية.. والقليل القليل من البشر..!

في مساءات وادي الغرة تتوق إلى النوق، وأشعار الطلل ورفقة المِطيِّ.. ومناجاة عراء هذا الأفق الذي يطبق عليك جهاتك الأربع.. وتوقن سرَّ السحر المسكون بنداء الشيح والقيصوم والعرعر، وكيف كان انعتاق العربي الأبدي من سجن الجدران التي تسيج الروح والبدن..

يمتد وادي الغرة عبر حدود فاصلة بين الجزيرة العربية الشمالية والأردن، في الجنوب الشرقي من البادية، يكتنز الوادي بالأسرار التي خلفها الأجداد فتحتشد فوق رجومه عشرات النقوش العربية الشمالية، والإسلامية المبكرة، التي ظلت مستودع إرث الأجداد تحرسها الرجوم والنجوم، فقد تركت لنا كل تلك القرون نقوشاً حُفرت على ظاهر الحجر، فيها علم الأولين وخبرهم، إذ علتها أسماء أصحابها وسلسلة أنسابهم، وقبائلهم وآلهتهم ودعواتهم وتضرعاتهم، ثم تلت النقوش التي سبقت الإسلام نقوش عربية إسلامية وثقت للقرون الهجرية الثلاث الأولى،

وهي على درجة عالية من الأهمية في درس تطور الخط العربي.

تشم أرضية منطقة شرقي الجفر أودية عديدة، تمثل شرايين تربط بعضها ببعض من جهة، وبالوادي الرئيسي في المنطقة، وهو وادي السرحان من جهة أخرى، وتمتد عبر حدود الجزيرة العربية الشمالية مع الأردن، ومن أهمها: وادي الغرة الشرقي، وادي الغرة الغربي، وادي حدرج، وادي بيار بني مرة، العاذرية، أم الظوابن الشرقية والغربية، وادي الحصاة، وادي أم الطريفيات، وادي الخشابية، ووادي سمرمدة وغيرها.

تشكل بادية وادي الغرة والمنطقة المحيطة بها شرقاً ما بعرف بهضاب الحماد، وتتبع منطقة البوادي الداخلية. والتي تتكون من حجارة كلسية صوانية، وفي بعض مناطقها تغطي السطح حجارة الصوان وشظاياه. وتعرف هذه المنطقة عند أهل البادية بأرض الصوان. وتُبرِزُ طبوغرافية الموقع وجود بعض الضلوع البارزة، والتي تسمى عند أهل البادية بالخشوم، حسب البحيري، وهي تصدعات ناتجة عن اضطرابات في بعض المناطق الضيقة. وتعتبر هذه الأودية جافة، شحيحة المطر، في غالبية أيام السنة، ولكنه إذا ما سقط فانه يسقط بسرعة فتجري مياهه في الأودية باتجاه القيعان والأحواض، أو باتجاه الأودية الكبيرة مثل وادي السرحان. ونتيجة لجريان المياه تنمو

في قيعانها النباتات الصحراوية لفترة زمنية قصيرة. ومن أهم نباتات هذه الأودية شجيرات العجرم، والتي تتمتع بخصائص فيزيائية مناسبة للنمو في مثل هذه الظروف الجوية القاسية. والى جانب شجيرات العجرم، تنمو في المنطقة شجيرات القيصوم، والسلا، والجرباء، وهي أيضاً نباتات صحراوية.

ونتيجة لشح المياه وقلة تساقط المطر في المناطق الشرقية للجفر، حيث تواجدت النقوش الثمودية والعربية الكوفية، فقد حفرت عدد من البرك، دعيت من قبل السكان المحليين بالبرك الرومانية. وقد بدت مستطيلة الشكل. ولعدم العثور على أية مخلفات حضارية، سواء أكانت إنشاءات معمارية أو شقف فخارية، أو نقوش كتابية، لم نتمكن من تحديد تاريخ ما لهذه البرك، ولكثرة النقوش الثمودية التي عثر عليها في الرجوم الحجرية في المناطق المحيطة بهذه البرك، فإننا نحتمل أنها حفرت من قِبَل القبائل العربية الثمودية لتكون عاملا من عوامل الاستقرار في المنطقة.

لقد كانت تفرعات وادي السرحان ورافده مأهولة منذ العصر الحجري القديم، فقد تم العثور على أدوات حجرية استخدمها الإنسان في منطقة الواحات الصحراوية، كواحة الجفر، عندما كان يرتاد مثل هذه الواحات والقيعان، والتي تكثر بالقرب منها مصادره الغذائية.

ومن علامات التواصل الحضاري مع المكان النقوش، وتمتاز الحجارة التي نقشت فوقها النصوص الكتابية الحسمائية والكوفية بأنها رملية صلبة بمجملها، وذات أحجام متوسطة، ويرافقها التربة الرملية في الوادي. وتتناثر بشكل قليل ومتفرق أنواع من الجلاميد والشظايا الصوانية أو الحجارة الكلسية على السطح، وقد يكون نوع الحجر الرملي الصلب أحد أسباب قلة عدد النقوش في بعض هذه الأودية، أما السبب الثاني فيعود إلى بعد الوادي النسبي عن الوادي الرئيسي للمنطقة وهو وادي السرحان، فكثافة النقوش تزداد في المنطقة كلما اتجهنا شرقاً، أي كلما اقتربنا من وادي السرحان الذي يشكل الشريان الحي لقبائل وقوافل كل من الجزيرة وبلاد الشام. اتسمت أماكن الاستقرار على جنبات الأودية، في المنطقة، بغناها بالمواد العضوية، وبتربتها التي تأخذ مشتقات اللون الرمادي. وعادة ما ترتبط بأماكن الاستقرار هذه، رجوم حجرية تقع في الأماكن المرتفعة، والمطلة عليها. وقد حملت هذه الرجوم أعداداً من النقوش الحسمائية، وأخرى مكتوبة بالخط الكوفي. ويمكن تأريخ النقوش الحسمائية لما بين القرن الأول، والقرن الرابع الميلادي، في حين أرخت بعض النقوش الكوفية للنصف الثاني من القرن الثاني الهجري. وبذلك يعتقد بأن بناء هذه الرجوم كان في فترة ما قبل الإسلام، ولكنها بقيت مألوفة للسكان المحليين في

العصر الإسلامي، ولعلها خدمت الوظيفة التي أنشئت من أجلها سابقاً، وهي تسجيل الأدعية الخاصة بالموتى غالباً، والأحياء أحياناً أخرى. أما الموقع فهو من مواطن الثموديين، الذين استقروا إلى الجنوب والجنوب الغربي في الحسمى ووادي رم، وإلى الشمال في منطقة الجفر وباير، وإلى الشرق والشمال الشرقي في وادي السرحان، وتبوك وتيماء. إن الوضع المكاني للنقوش الثمودية، وعلاقته بطرق الحج الشامي، يفصح عن استثمار درب القبائل العربية الثمودية، من فترة ما قبل الإسلام، من قِبَل العرب المسلمين أثناء مسيرتهم إلى الديار المقدسة.

تتناثر نباتات الوادي متباعدة.. تعايشها الزواحف وبعض الطيور والحيوانات البرية الصحراوية، والتي لا تنشط نهاراً، فلا تكاد تلمح ما يدب في المكان من حياة سوى عند الغروب أو ليلا وفي بواكير الصباحات، فما أن تأخذ الشمس طريقها إلى مستقرها وفلكها في كبد السماء حتى تمضي حيوانت البرية إلى كواها وشعاب الظل والمناطق الرطبة النادرة في ذاك الفضاء المترامي من البادية. وكم ينتابك ذلك الإحساس بحميمية العلاقة بينك وبين الإبل إذا ما صادفت إحداها، وتدرك ذلك السر في توق الحياة إلى الحياة، سيان فيمن كانت فيهما، وتدرك سر ذلك التعلق بين أبناء البادية وبين نوقهم، وبين تلك القصائد الرائعة التي استهلها شعراء العربية منذ عصر ما قبل الاسلام وبين وقوفهم

على الطلل ومناجاة الصديق أو مناجاة الناقة، محدثا إياها عن المكان الذي أصبح طللا، والحبيب الذي نأى وارتحل، وعن ذلك الشعور الجياش اللاهب الذي يشتعل في الصدر، وكأنما تتعالى حميمية العلاقة بينه وبين ناقته لتكون ملجأه في رحيله ووحدته وعند جوعه وعطشة.

وتوحي عشرات النقوش العربية الشمالية بالبيئة الصحرواية الرعوية، وتكرسها أكثر من غيرها، الأمر الذي يؤكد بداوتهم وتنقلهم الدائم أو الموسمي، واعتمادهم في المقام الأول على الرعي وتربية الماشية، ولعل هذا دأبٌ دأبَ عليه سكان البادية، سيما في مراحل هجراتهم الأولى من الجزيرة العربية إلى بادية الشام. ولقد كثرت في مرتفعات البادية أكوام من الحجارة البازلتية، أطلق عليها اسم الرجوم، وقد كانت بمثابة أبراج مراقبة، أو علامات على طرق التجارة، حيث يسير الدليل التجاري أمام القافلة من رجم إلى رجم، متطلعا إلى الأرض ليتأكد من خلو الطريق.

في وادي الغرة تتفاعل مع البيئة من حولك تفاعلاً تحسب أنك تتوحد فيه، فهناك تتحسس رشاقة القمر، تسمع وقع الخطى من ثمود إلى بني مرة، ويروقك حداء قافلة الحاج الشامي وهي تسلك دروب وادي السرحان، وتسلم أنفاسك للفضاء الممتد دونما حِجر، فإن غاب الطيف المجتمعي فإن حضور التاريخ يتفاعل مع أنفاس الشيح وحليب

النوق، ووشم صفائح الحجر والجلاميد بخط ثمود وحسما، وببدايات الخط الكوفي الذي تعلم أهلوه البدء بالبسملة ودعاء الخالق: اللهم اغفر لفلان ولمن قرأة وقال آمين.. فيا لهذا الوهج وذاك الحضور وأنت ترتحل مع الحلم في نداء البيد نحو سر أسرار التاريخ.. هناك لا تبقى وحيدا.. فإنت في مملكة الزمان اليعربي، وفضاء الرحابة فخطو الزمان يعود بك إلى روح الشِعر وبيت الشَعر وريح الصهباء.. ونفحات الإيمان وأنت تقترب من العتبات المقدسة في يثرب حيث سيد الخلق وصحبة، ومن البيت العتيق محملا بجلال التحايا والشوق من أولى القبلتين، وقد حَمَت خطوك وحرست أنفاسك الخزامى ودروب الأمان في الأرض المباركة، حيث دبت طهارة أقدام الأنبيا؛ موسى وعيسى ويحيى وإلياس وهارون.. وسيد الخلق المصطفى المختار.

الأزرق

محج القوافل ومهجر الطيور

لم يشأ الرومان طوال فترة حكمهم في بلاد الشام والشرق الأدنى الولوج إلى قلب الصحراء، وظلت حمىً عربياً خالصاً، أسياده فوارسه وحداة نوقه، خيلهم بضبحها ومثار نقعها ظل أعاليهم. وقد كانت البوادي مفازة العرب ومنجاتهم وسبيلهم إلى التشبث بالأرض ومقارعة الخصوم. وقد وعت روما أهمية هذا الدرع الحصين الذي يأوي إليه العرب. ووعى العرب الأنباط ما الذي تخبئ لهم الأيام وحوادثها.. فسعوا إلى حميمية العلاقة بينهم وبين البادية حاضنتهم الأولى ورحم نشأتهم، ومنطلق ولوجهم المدنية وتأسيس الكيان التاريخي العامر قرونا. وكم كانت البادية سر أسرارهم وقاهرة خصومهم، وسلسبيل مائهم وشرابهم، فكفروا خزاناتهم فيها، وجعلوا عليها إشاراتهم يحتمون بمهابتها وقد ظن الرومان انها مهلكهم فخاب فألهم، فإذا هي مفازتهم، ومنطلق سهمهم، ودرعهم الذي وجأهم من النصال والسهام المسمومة.

وعلى سيف الصحراء، الحد الذي لا يجتازه إلى البادية الغرباءُ.. خشيةً.. وجهالةً، ابتنيت القلاع لتكون في فكرتها الأولى زنزانات نواطيرهم المعتمة.

لقد أراد الرومان من قلعة الأزرق.. ما لم يرد العرب الأنباط، إذ أن جند روما كانت قد خشيت عرب البوادي.. فلم تقدر عليهم إخضاعا وتطويعا.. فعمدت إلى تأسيس أبراجها وحصونها نقاط إنذار مبكر، ومانعة لتدفق سيل البشر الهادر من البادية نحو المناطق الداخلية التي يستولون عليها. وقد اكتشفوا عجز هذه القلاع والحصون عن تحقيق المراد.. فلجأوا إلى الدروع البشرية.

لقد استخدم الرومان هذه القلاع حبسا وسجنا يعملون فيها سياطهم في العرب الثائرين الرافضين لموطئ الغريب.. فكانت سجنهم ومخيط أكفانهم. لقد كانت عقليتهم عقلية الغرباء الضعفاء فاحتموا بعقلية القلعة... إن القلعة آيلة للسقوط ... لأن المكوث فيها يعاند حتمية التاريخ، فلا بد من التفاعل مع المحيط والتشارك معة وأن تنبع منه وبإرادة أهله، وقد أعطت عقلية الرومان هذه العالم النصح بأن ذهنية القلعة لم تصمد في التاريخ، وأن الجلوس على فوهة البركان، واستنفار القلق إلى ذروته، والخوف المسكون في الأذهان والذي تحرسه القلعة ينذر بالموت والخور والعجز، ولا يملك صاحبه، مهما أوتي من قوة غير الانتحار. أن عنفوان القلاع زائف وما هو إلا استقواء الجبناء.

الأزرق أقرب ما تكون إلى الشمس، بحجارتها السمراء.. وقدح الشرر تحت سنابك خيلها وهي تعدو ضابحة خلف فلول أعدائها، فكم

كانت خيبة روما فاضحة ضعف حلومهم وهم يحسبون أن الأفق أفقهم والزمان لا يدول دولته، وما عرفوا أن عربا أنباط وعربا ثموديين، ومضارب قبائل عرب الشمال لا يباتون ومضام جارهم، فكيف لروما أن تستريح، وكيف لمقاطعتها أن تهنأ.. فلتلملم روما ملفات مقاطعتها، ولتشد عصا ترحالها فواحات الأزرق تاقت لريح الهيل والدلة.. وليالي سمارها.

تتراقص خيوط الشمس مؤتلقة في بواكير الأزرق.. تحج إلى واحتها مع إشراقة صباحاتها أسراب الطيور المهاجرة في مواسمها.. فلا تمل الركون إليها مشتى يكفيها رحلة الهجرة إلى أفريقيا.. فضاء الأزرق مدى امتدادت لا نهايات لها.. زرقة في السماء وصفاء.. ووقار يكسو المدى بلون الحرّة.. فترحل بك أزمانا في حضرة المكان الذي تناسل فجر نهوض قبائل العرب من ثموديين وأنباط وصفويين.. ويغدو فضاء المضارب ساح رماح شرعت ولمع يمان..

في بداية القرن الرابع الميلادي أخذت حجارة القلعة السوداء تنتصب شموخا نحو قبة السماء، وقد كتب فوق حجارتها نصوصا باليونانية واللاتينية والعربية تؤرخ لبدايات النهوض زمن مكسميانوس وديوقلتيانوس والتي رممت أو أعيد بناؤها في عهد الأيوبي غز الدين أيبك في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي.

وظلت واحة الأزرق محمية للبيئة الحيوانية لا تَنْحَرُّ قطعانها ولا تنفر أيائلها، ولا تصفق أجنحة طيورها فزعا

واحة الأزرق بهاء ممتد على صفيح الأركان حول قلعتها ومدينتها وواحتها، أزرق يكسو سطح الأرض يتراص سترا فوق الأرض البتول.. لا تدري وأنت تسبح في زرقته الداكنة، التي تأخذ شكل السواد، أي فرح ذاك الذي تشاطرك وأي أحاديث سمار تلك التي تبوح لك، وقد علاها عشرات الألوف من الحروف والرموز والوسوم شمالها وجنوبها. حتى في تلك اللحظة التي تعلن فيها أرض الحرة الالتحام مع أشعة الشمس المستوية في كبد السماء يروق لك استراق السمع لهمس الحداة والرعاة وقافلة الطريق التي تجوب تشعبات وادي السرحان من شمال الحجاز مرورا ببوادي الجفر وباير لتحط راحلتها في الأزرق مستودع الأمن والأمان والمؤن والراحة قبل أن تمضي في رحلة إيلافها نحو أم الجمال وبصرى ملتحقة بدرب الحرير إلى سواحل المتوسط.

كانت بوابات وعتبات القلعة في ذمة التاريخ القادم، بعد قرنين من الزمان، ترتسم مع خط الأفق القادم إليها دليلا للحداة والملهوفين وقد آلت الدروب في بيدائها للعرب الأنباط في سبعينيات القرن الأول الميلادي، فقد عجت طرقاتها ودروبها بالمارين وبقافلة التجارة، وقد عرفت فيهم كل ملامحها المجبولة بسمرتها وعبق طينها.. قافلة العرب

الأنباط وهي تمخر العباب توقا إليها مستقرا ومنطلقا ومعاودة.

في قلعة الأزرق لا تملك الفصل بين الزمان والمكان، ففي الأزرق تتراكض الحقب نحو أهلها شرف انتساب، فإذا شر ف المكان بهم فقد تعهدتهم الحقب مستودع أمانة منتشية باللحظات التي ملأت أثيرهم الرحب بحروف العربية المسندية والنبطية ورسمها القرآني.. هناك لا تجد في سفر أيامها لحظات انفلتت من عقالها.. غير أنها سر مكنون في بيداء عبرت كل تلك السني والحوادث والتقلبات وظلت تحفظ سرها وتمسك بهدب المجد ترقب أبناءها لتحكي لهم قصة مجدها وكيف صار الطعن في العابرين الواهمين بطيب مقام.. فكيف لروما أن تفهم سر الأرض في بيدائنا.. العصية.. وكيف يعرفون حقيقة وهمهم بأنهم يقفون في الفراغ عشى وقصور رؤية.. فالبادية في الأزرق جبروت وشموخ غموض وابتهال يتجسد واحدا في أبنائها من رب إيل إلى حماتها أبناء الجبل، والمهاجرين بدينهم إلى مستقر الأمان.

وهج في الروح على سبحاتها.. تتشح أبراج القلعة بخيوط السعادة والتشهي لعبق التاريخ وسلسبيل جداوله في حكاية طرزها المجد بنبض الوريد وخرير ينابيع الواحة التي تخشى هجر دفقها. حيث تسيح في محمية الأزرق المائية أنواع الطيور التي تفوق على مئات ثلاث، وقد رصدت منظمة رامسار المحمية واحدة من المحميات الدولية لأنواع

الطيور المهاجرة بين أسيا وأفريقيا. وهي محمية لحيوانات البرية أيضاً، ففيها الثعالب الأحمر والضباع والوشق والذئاب والمها وغيرها. وإذا كانت المحمية غنية بأنواع الحيوانات والطيور، فهي غنية، فوق ذلك، بنباتاتها البرية من عرقد وحلقا والأثل وغيرها من الزهور البرية الهائلة التي يحلو النظر إليها والتمتع بتعدد أشكالها وألوانها وعبق زهرها..

أم الجمال.. حاضرة العرب الأنباط

تدخل في ولوجك الأول إلى أم الجمال في دهشة المستكشف.. يغمرك سنا اللحظة الآسرة.. وحضور مجلي لتاريخ طرزه المجد.. في فضاءات الشعر وملاحم الكدح.. في مدائن مضاءة سحرا وبهاء.. تمضي حكاياها أنهار ضوء.. وحبقا يتدانى.. فكأن الذي بيننا وبين حجارتها وعد تلاقٍ وبداهة انتماء.. وحنين إلى مدن الشمس والبخور والتوابل النبطية.. وقد كانوا هنا عماليقا.. سادة المدى.. دليل الطرقات التي يتسلل الفجر إلى قافلتها وهي تغذ السير روحة وجيئة بين الشمال والجنوب.. ومن حد الماء العربي إلى حده العربي

تشرق هذه المدينة النبطية على عتبات الصحراء شرقيها والحواضر غربيها.. تحتضن رحابتها النافذين من مفازات البادية على لحن الحداء والتوهج.. تفتح بواباتها للأفق العذب البهي.. تزهو في صباحاتها الشفيفة زرقة السماء.. مستبيحة سنا الحَرَّة وتشي بأحلام السنين.. فأم الجمال بعض زهونا الذي رسمناه أحلاما تصهل لسهيل.. وَوَتّار أجدادنا الذي ادّخرناه لِعَودِ القناديل النبطية على جنبات الدروب..

و مرأى العين في أم الجمال يصدق أهله.. ويشي بمكنون المكان ويغري في رحلة البحث المعرفي مضيا وراء الأثر.. ففي نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين اطوف إنو ليتمان في المنطقة وجوارها من حوران.. ونشر عددا من الدراسات تضمنت ما يعترف للمدينة بحضور مرجعي هام فاق ما تم العثور عليه في مدينة بصرى النبطية مقر رب إيل الثاني آخر ملوك الأنباط.. وقد كانت المدينة صنو بصرى عاصمة المقاطعة العربية بدءا من السنة السادسة في القرن الثاني الميلادي.

أيهما أهدى صاحبة قصب السبق؟.. جلال المكان بحجارته البازلتية السود.. أم عبقرية وقوعه على طريق التجارة؟.. أم تمركزها نصل سيف وشريان وصل بين البادية والحاضرة؟.. فلقد خلف من مر بها أو طاب له المقام والاستقرار فيها نقوشا تروحت طبقاتها التاريخية واللغوية بين اليونانية واللاتينية والعربية الشمالية والعربية المبكرة.. وهي على أية حال أهل لكل هذا الألق تواصلا حضاريا وتنوعا ثقافيا ومركزا أمنيا وتموينيا للقبائل والقوافل.

أم الجمال حالة نهضوية حقيقية في الحضارة العربية وتاريخ اللغة.. ففيها تخلقت شرنقة الحرف الكوفي في نقشيها الأول والثاني.. حيث شكلا الحبل السري الواصل بين النبطية المتأصلة تطورا عن الآرامية

وبين الخط الكوفي المبكر الذي رسمت حروفه المصاحف الأولى.. ففي أم الجمال جاء نقشاها الأول والثاني شفيعين مع نقوش النمارا ووادي رم وزبد وحران وأسيس لجسر الهوة المعرفية في تطور الحرف العربي.. فلقد كان للعرب الأنباط في القرون الثاني والثالث الميلاديين دور في نقل الكتابة إلى غيرهم من قبائل العرب وتعليمهم رسم حروفها بشكل تطوري اتصل فيه الحرف مع جواره ليذهب في رحلة الوصل والتشكل انحناءً واستقامة واستدارة استحقت فيها المدينة شرف الانتساب إلى مدن النور وتعليم الكتابة.. وقد افصح نقش فهر بن سلي دور المدينة في هذا الشأن.. إذ ارتسمت حروف النقش بحروف عربية مبكرة يبدو فيها تنازع أشكال الحروف بين النبطية والعربية الكوفية، جنبا إلى جنب مع نقش يوناني يفصحان عن تعليم وتربية فهر لجذيمة الأبرش ملك تنوخ.. "هذا قبر فهر بن سلي مربي جديمة ملك تنوخ".

تهفو الروح إلى تلك الارتعاشة التي تخلقت فيها دهشة الكشف والريادة.. حيث علا الحضور الحضاري العربي النبطي والجذامي سواه من تصارع القوى بين روما وفارس.. ففي أم الجمال كان الأجداد يتوقون إلى تأصيل الهوية وتجذير مقومات البقاء.. وقد آلوا على أنفسهم المضي فيما بدأوا من القبض على المنطوق بتعلم الكتابة.. فكان العرب الأنباط منارة من منارات الهدى نحو تطور الكتابة التي كانت

تتقلب بين الآرامية والمسندية والنبطية لتتولد من رحم المخاض النبطي والسرياني الكتابة العربية المبكرة.. فتشتعل البادية توهجا مبعثه العرب في ام الجمال في نقشيها الأول والثاني.. التواقان حنينا لنقش وادي رم.. لتكتمل صورة جناحين يعتبقان ندى في سماء وطن الصباحات والنجاحات منذ عمر الإنسان هذه الأرض. وها هو الفجر في أم الجمال يرسل حمائمه وخيوط شمسه في كل مطلع بهي.. يحكي قصة ولادة الحرف.. ويقتفي آثار قوافل الخير.. ويطوق أجياد حسناواتها النبطيات نسائم عطر سوسني.. ولتشرق شمس الروح على غدائرها.. تنثر نجوم السماء والزنابق تحت أقدام جَدَّتَينا شقيلة وماوية البدويتين.. قناديل فرح الغد الأردني الذي كان سرمدا يرفل بالضوء.. فوق الأرض الأغلى والأوسع مدىً.. البهية سماؤها.. الأنثى بكامل حلتها وزينتها.. سيدة الخصب التي تخلقت فيها كينونتنا.. كل شيء فيها زرعت بذرته.. نمت.. وعلت.. فكنا.. وكان الضرع والزرع والشجر.. وصرنا الحُبَّ والفيضَ والرخاء.. وصارت الأرض قداسة.. وطهرا.. وصفو مشرب.. فاستحلنا حراس بواباتها..! أيتها الأرض يا أهراء الخير.. أيتها الأنثى التي تناسل الخير بركات ربانية من رحمها.. نحن أبناء الأرض.. شهقة الطين.. منحتنا اللون والهوى.. فحجارة أم الجمال لم تغرق في تعاقبات السنين.. ولم تته في المسافات.. فما ظل مكنونا فيها أبعد مما نرى..

تنتظر الصحو.. فلم تشأ تطوي صفحاتها.. لتعلن النهايات.. وتسقط من يدها صولجان الحضور.

أم الجمال مدينة تقلب دفاتر أزمانها متى شاءت، وتضيء في كل ركن فيها قناديلها، فلا تترك فسحة للنهايات، هي مبتدأ كل فعل، وباكورة كل صباح، ينحل المحال على عتبات أهلتها وأقمارها، وتغدو سيدة للحضور، فيتوارى في عتمته كل من اتعبته المسافات..

أم الجمال حكاية البراري والبوادي التي لم تفتأ تتوالد كل يوم.. فعندما نشد رحالنا صوب بواديها المحيطة نحتا عن قصة من قصصها المخبوئة في أكوام رجومها.. أو رواسي صخورها.. تزداد رحابة السنين.. ويتسع الأفق معرفة عن أولئك الذين أشغلوا روما وشاغلوها.. من ركام تلك الرجوم تضئ نوافذ المكان.. وتدهشنا الفجاءة في استكشاف كنه الوسوم والحروف وما ارتسم فوق سطوحها.

في أم الجمال تدرك أبعد مما يتراءى لناظريك.. تحضر كل تذكارات المكان وتجلياته.. وأرتال احلام الزمن اليعربي القادم.. تتهاوى الخيبات أمام فضاء الحلم في اقتراب المسافات بين أوتان القلوب.. آنذاك حين جهامة الوقت.. وأصفاد روما.. حين تبوأ الغرباء عروش زيفهم.. كانت أم الجمال على مرمى النظر من بصرى.. وعلى مهوى الفؤاد من قبائل العرب ومخربشاتهم.. تطلق في وجه روما خواء

المكان.. وتُقَسِم أن المدى خيل وليل وسيف.

مؤاب سيدةَ النُبْلِ والنَبْل

لم تكن مؤاب نسيا في سفر التاريخ، ولا علِّقت في حواشيه، بل مسكونة في تضاعيف الروح، فحين باح بوصلها ميشع، ألمَّ بسرادقها العشاق، ونهلوا منها صفو مشرب، ورنوا إلى مجدها، فكانت بواكير أشعارهم وأولى تلال رفراف بيارقهم، وحين اكتشف النقش في ذيبان فقد سطر على الأركان سفرا عظيما نضم إيقاع المد الوطني، فها هي أسفار أهله تفترش الأرض، تضمهم وتضمنا فتنشد أهزوجة التاريخ خالدة، وسامية في سماء مؤاب، عذبة في رقراقها، تسكب راحها في الروح، وتظل مسيجة بدم شهداء هذه الأمة .. الدارعين بقاماتهم نبع صفاء وطول قناة ... ولتخفق فوق صهوة رباها البيارق عروبية. فمؤاب لا شتات حمى ولا نبو سيوف، بل خيل جامحة في الصدور، طاب فيها اللقاء وطابت المنازل.

المؤابيون شوكة الحلق في نحر العدا، طهر المكان لا رجسه، سعده لا نحسه، قدمت لهم الممالك نساءها سبايا وضحايا على مذابحها، إلى ملوكها ينتسب النصر، وعلى أيديهم يعتلي البنيان، ولم تكن ذيبان عاصمة ملك ميشع فحسب، بل مدينة أرعبت الغزاة والطامعين فدعوها ديبون، مدينة الذئاب، نعم كان الأردنيون ولا زالوا "عيون ذياب مطوقين

الليل"، فلا هزال انتاب ذيبان ولا انحلال بل صلابة ذئب، وانقضاضه على الأعداء يتركهم مزقا وجيفا، هذا هو مدلول ذيبان، فمن الذئاب اشتقت التسمية، لتكون حتف العدا، فخصمهم "باد باد إلى الأبد".

مؤاب أشرف النسب، إليها ينتسب الزمان، ويشرف المكان، فمآب كبرياء أردني صراح... لم يحم حولها تأويل الكلام إلا للحاقد والغاصب، فقد أفصح النص المخبأ في تلافيف الزمان العروبي عن قدر هذه الأرض في الاستهداف والإفاقة والاستنهاض.

تفيض النفس بمشاعر الانتشاء والزهو وهي تستقبل ميشع بن كيموشيت يزف بشرى النصر في مسلته التي خلدها سفرا مؤابيا أودعه ذمة التاريخ منذ القرن التاسع قبل الميلاد، وحين يكون التاريخ أردنيا، ومستودع الأمانة فيه ذيبان أو مؤاب، تكتنف النفس المعالي، وتذعن لها شمائل الخلق، وينبت ثراها المكلل في ضمير الأردنيين مجدا وعلما.

وها أنا ميشع بن كموش ملك مؤب الذيباني، أبي مليكها وأنا كذلك من بعده ... أحمل المجد على كاهلي، قبل بلوغي الفطام خَرَّت وخارت قوى جبابرة الزمان وطغاته ... أزفُّ السيف والرمح.. معالم تغدو ضراب السائرين ومنارات فتح وكبرياء .. أنا ميشع بن كيموشيت سيد النُبلِ والنبال...

الصاعدون إلى العلا أهلي المؤابيون .. أليست لنا أحلامنا التي ترتقي سُدُف الغمام؟ .. ألسنا أصحاب حق ندافع عن وطن أسكننا الروح وسكناه أَمَنَةً ونُعاسا؟ أليس من حقنا أن نرودَ النجم والجوزاء، والوطن المكلل بالظفر ؟

... نحن حماة ذيبان وأرنون ومؤاب، وأبطال ساح الرهان.. نكسب الجولة.. ولنا الصولة، وقد أقسمنا أن يؤرقنا المجد.. وأن نصرع النوى .. وأن نسمع الدنيا على مر الزمان لحننا الأبدي...

نحن الذين سرنا الليالي الطوال.. وحاربنا حتى يطلع الفجر، لتظل شمس الحرية مشرقة على مؤاب.. فقد علمني أبي كموش .. ألا أنام على الضيم، وعلمني أن المعتدي تحفزي الأبدي، وهم الذين قد عذبوا مؤاب وعذبوني فحاربتهم وأسرت منهم الألوف وجعلتهم عبيدا في مؤاب وخدما لها.

مؤاب التي سكنت روحي فسكنتها ..

مؤاب التي ملكتني فملكتها...

مؤاب عشيقتي وأنا فارسها.

حفرت لها عيون الماء لتغسل ضفائرها بها

أطلقت المدى فيها ملاعب لأطفالها

ونارا على أعدائها ...

جمعت لهم العدّة والأبطال وسرت بهم إلى مُغْتَصَبٍ، وفتحته بل وضممته إلى مملكتي .. إلى مؤاب ..

نعم.. أي مؤاب تلك التي ستنام وعلى خطى منها جحافل أعدائها..؟ أي مؤاب تلك التي ستغفو وقد ذاب لعاب الشمس فوق غمامها؟ فعوى ليل أعدائها.. فجزّت منهم الأعناق ...

ذيبان عشيقتي ... بنيت لها بيت الملك وأنشأت لها البركتين .. مؤاب التي جعلت لها من الوصيفات خمسين يخدمنها.. ويعطرنها، ذيبان ابنة مؤاب وقد جعلت عمري يجثو على أبوابها مكبلا في ساح انتصاراتها .. وقد انتحب عند أقدام ميشعها بعد أن ناء طويلا وراء البحر.. هي ومن غيرها جعلته يجهش بالبكاء.

إيه ميشع .. يا سيد السيف والرمح، إن للوطن جنوده وللحق طلائعه أَشعلت أبطالك الإعمار في شبا السيف فلم تذهب سدى.. أحييتم الذبول وأسرتم الغاصب وكان مداد قصائدكم دمكم طهورا.

إيه ميشع ... جلال التحايا لخيلك وكماتك وقد توجت في دوحة الخالدين..

فها هي مؤاب، وها هو ميشع، حين وقف على قمة جبلها وخاطبها كانت الأرض ترقص فرحا، وكان لأردن أجمل ألحانها، فاسترق السمع وهو يخاطب الغزاة فيعلي الصوت: لن تنفعكم مرتفعاتكم ولا أبراج

النواطير ولا مدنكم المحصنة، لن تنفعكم أنصابكم ولا سواريكم على هذه التلال أو تلك، ولا أفاعي النحاس ولا التماثيل ولا ما توقدون لها، فمؤاب هنا وذيبان لن تكون الخاصرة الضعيفة فهي السنان والقناة، ولا قرار لتوابيتكم بعد اليوم ولا وصايا سبت ما دمتم معتدين، فمؤاب وذيبان: شوكتا عيونكم وسوطا جنوبكم، فلا خراف ولا أكباش تؤديها لكم منذ اليوم تحالفوا مع من شئتم واضربوا بأعوادكم فسنظل هنا، ولن تسعنا الدنيا بأركانها، سنقف على التخوم قبل مطلع الشمس إلى مغيبها، سنظل هنا وهناك حتى لو خان الماء لونه فصار أحمراً، ودما قانياً.

فضاءات الدلالة في أسماء الأمكنة الكركية

اسم المكان يمثل مدلولاً غائياً مباشراً أو مؤولاً، ومعنى مباشراً أو رمزياً، وبواعث تتعلق بمناحي الحياة المرتبطة بالإنسان كافة، فاسم المكان مرآة الجغرافيا، والإنسان، والمجتمع، والثقافة وسلسلة متصلة من الطبقات اللغوية. وتعكس أسماء الأمكنة دلالات اشتقاقية ولغوية وارتباطاً بوقائع تاريخية وظواهر اجتماعية متعددة ترتبط بيئتيها البشرية والطبيعية، فجذور أسماء الأمكنة في دلالاتها واشتقاقاتها تعود إلى أولئك الذين خلفوا إرثاً حضارياً فاعلاً في المنطقة، فهي أسماء كنعانية وآرامية وعربية، أو يونانية ولاتينية، أو أسماء جاءت نتيجة الاختلافات في حركية المنطقة من القرن الثاني عشر الميلادي وما بعد. ويعد رصد هذه الأسماء وتحليلها واجباً تقتضيه الضرورة العلمية والحضارية وخصوصية الهوية الوطنية.

إنَّ التغير في الاسم أو صيغته يأتي استجابة للمنطوق الشعبي، واكتساب الرضى العام للسكان مع تسمية المكان. ولعله انعكاس لتعاقب الحضارات وتغير السكان، أو للتفريق المقصود بين المكان وغيره من شباهه في الاسم. تتضمن أسماء الأماكن معاني ومدلولات متعددة تعتبر ذات قيمة تاريخية هامة، فهي أقدم عهداً من أسماء الأشخاص،

وتعد في مواضع معينة المصدر الوحيد الذي يؤرخ لفترة ما، فكثير من الأسماء يعود إلى فترات مبكرة كالكنعانية والآرامية وغيرها فتعكس النواحي الدينية والسياسية والثقافية والاقتصادية لها وللمكان وقت تسميته، فالأسماء ترتبط ارتباطاً وثيقاً بثقافة الناس، فهم يذهبون ويبقى الاسم رغم تعاقب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإثنية وحتى اللغوية، فأدر المركز المؤابي المهم وصل إلينا من العصر البرونزي المبكر في حين غابت كل الظروف المتعلقة بساكني المنطقة آنذاك. أما اللجون التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد عادت واستوطنت من قبل الرومان حاملة نفس الاسم.

وتحمل أسماء المدن والقرى والمناطق الجغرافية دلالات مادية ومجردة، كالوصف الجغرافي والطبوغرافي، فيصف الاسم طبيعة المكان، وأهم العلامات المميزة له. وتحظى الممرات الضيقة باهتمام السكان لما تتركه فيهم من مشقة ووعورة، ولما تشكله من عائق طبيعي في تحركاتهم، لذلك نجدهم يُسمّونها بالثنية " الطريق الضيق" مثلاً. ويتفاعل السكان أيضاً مع الأمكنة في علوها وارتفاعها فتكون الأسماء مثل: سكا "المكان المشرف المطل"، وخربة الطور، والظاهرية، وعالية، والمشيرفة، والسماكية، والذراع، وذات رأس. ويسعدهم فيها الاتساع والانبساط فيسمونها: مومية "المغارة الواسعة من الأرض"، وفيفة،

وسهل شرما، وفج العسيكر. وكان مقابل تفاعلهم مع علو المكان مَنْحَهُم بعض الأمكنة دلالة الغور والانخفاض مثل: عمقا "الوادي"، ومجرا "مسقط"، وفقوع "المنخفض، الوادي الفسيح"، وراكين"المنحدر"، والغوير، والعراق، وحجرا.

وتعكس الأسماء سيطرة نوع الاستيطان وهيئة المكان وظواهره التضاريسية على الوجدان الشعبي وتفاعله مع المحيط الجغرافي وفي إضفاء الدلالات والاشتقاقات الواشية بالرسائل المضمرة في الأمكنة مثل محنا "المخيم"، والربة "المدينة الرئيسة، العاصمة"، ومجدلين، "القلعة"، ومرود"المطاف، مكان التجوال"، ومؤتة "مكان الموت"، وعي"الخربة"، وعين دارا "مكان الحرب"، وكمنّا "مكائد، مخابئ" وكثربا "كفر ربا"، والكرك، والمعمورة، والمنشية، ومجيدل، ومُحي، والقصر، وخوخا "الشقوق الصخرية"، والبحر" الشق، الفجوة في الأرض". ومما تحمله أسماء المواقع أيضاً إشارات إلى نوع التربة أو إلى الخصب والجدب، مثل: إمرع "مكان الكلأ والعشب"، والزرّاعا، والروضة، والمزرعة، والمريغة "أرض صحراوية". وقد تشير إلى مصدر مائي أو ما له علاقة بذلك مثل: أم الينابيع، والبقيع، وإصراره "الأماكن المرتفعة لا يعلوها الماء" أو ما رُكِّب مع سيل ومنها: عين ارسيس، وعين

لوع، وعينون، والبالوع، والعينا.

وتنسب أسماء المدن والقرى إلى أشخاص وحوادث معينة، وكثيراً ما تنسب هذه الأسماء إلى عائلات وجماعات بعينها، في مثل: والخالدية، والعدنانية، والمأمونية، والهاشمية، والحسينية، والعمرية. أو أنها تحمل دلالات دينية، وخصوصاً تلك المركبة مع أسماء آلهة أو أية إشارات دينية أخرى، ومنها: أريحا، وخربة زبدا، والدير، والمزار الجنوبي، ومزار سيدنا سليمان، ومقام النبي يوشع. وقد تحمل أسماء المواقع دلالات مجردة غير تلك التي ذكرت سالفاً فتنطوي على فكرة دينية أو عاطفية أو ثقافية، فتكون التسمية بدافع الاستحسان أو التحقير من قبل أناس آخرين كالجيران مثلاً، ومما يرد من أسماء المواقع في محافظة الكرك حاملة هذه المضامين والدلالات: الربة "المدينة الرئيسة"، وعزرا "مكان المعونة، المساعدة"، ومدين "مكان أو مركز العدالة والقانون"، ومسعر "النار الملتهبة"، وياروت "مكان الرفقة أو الصداقة"، وخربة الحنو "خربة الرحمة والحظوة"، وأدر "المتألقة، الماجدة"، ومؤتة "مكان الموت"، ومؤاب (ربما من آب)، وخربة زبدا "هدية الرب"، وبردى "المكان البارد"، والطيبة، وغور الصافي.

ومن الدلالات المحتملة في أسماء المواقع الجغرافية اللون، مثل: بردا ربما تعني "أدكن"، والشهابية وقد يكون الاسم منسوباً إلى لون

التربة، والزهراء "المنطقة ذات الحجارة البازلتية اللامعة"، وشقيرا الشرقية، وشقيرا الغربية، وسمرا، والأبيض، وجبل البيضاء، وجبل الحُمّر. وهنالك أسماء مواقع تنتسب إلى حيوان، منها: أم الغزلان، وأم الخنازير، أما تلك الأسماء التي تنتسب إلى نبات أو شجر منجد في الكرك: امرع وزيتا.

ولا يخفى ما لاسم المكان في مرماه الدلالي من دور في كشف المعطى الحضاري لأية أُمَّة، فدراسة اسمه تعكس الفعل الحضاري المعنوي، ناهيك عن الوصف الجغرافي والتضاريسي من علو وارتفاع وغور وإشراف وانبساط وغير ذلك. فالأمكنة ذاكرة الوعي، وحتمية الديمومة، ونصاعة مقدرات البقاء، وهي مسرح انسجام المشاهد الحياتية اليومية والمواقف التاريخية التي تُلْزِمُنا الانتساب لها اعتزازاً واستعداداً للتضحيةِ ولنرتقي بها لحظتها إلى درجة الهوية. إنَّ أسماء الأمكنة ذاكرة وطن، تضبط إيقاع التواصل معه، وهي توليفةٌ تُرْتَضَى بحسِ المعايشة وبَداهةِ الوجودٍ. وترتبط الأسماء بالذاكرة المكانية والزمانية والناس، وكأنما هي المبرر للاستمرار الإيجابي، أو المُقَوِّم الذي نَتكئ عليه لخطاب الآخر ومحاججته، ولستُ أحسبُ أنَ ذلك حالة ذهنية ووجدانية فحسب، بل أساس من أسس تكوين الذات والهوية.. فالأسماء تُحفِّزُ الذاكرة المكانية التي تغرينا بحب الأرض... كل الأرض ... فحيثما ارتحلنا

ويمّمنا شطر مكانٍ غير الذي يأوينا تركنا فيه فكراً ووجداناً فياضاً..
تركنا جزءاً عزيزاً من تكويننا الإنساني ..إنها ذاكرتنا وأسماؤنا.

وادي أرنون.. وحكايا الدروب

لأرنون هالة طاغية توقظ المشاعر.. تغدو منذ دهشة النظرة الأولى مسحوراً حياراً بتلك العناوين المنقوشة أبداً فوق دفتيه.. وفي فُجاءة النظرة الأولى لتلك المصارع السحقيقة تتملك المرءَ هزيمةٌ مؤقتةٌ لا يتدارك فيها نَفسَهُ إلا مردداً سبحان الله..! وقد أخذته ارتعاشة نشوة أمام رشاقة تلك البروزات والمنحدرات والشعاب.. وعلى مرمى نظرة من بهاء الينابيع والحسر المتعالي من مسيل الوادي ومساقط الشلالات التي تلتقي معه في مدلاف وادي الهيدان.

ينتسب وادي الموجب إلى الأرض منذ العصور الجيولوجية السحيقة، وقد امتلأ فعلاً بشرياً بدا مستحيلاً منذ العصور الحجرية القديمة، فالموجب من الوجوب وهو السقوط والوقوع، فوجب وجبة أي سقط إلى الأرض، ولكن ذاك الضجيج الذي عجت به دروب الوادي لم يضنه ذاك الانخساف لمئات ثمانية من الأمتار.. بل راوغ بضحكة ضفتيه شرقا وغربا الشمسَ، فإن كان ثمة سقوط فيه، فمسقط الشمس ومغيبها، والتي تعاود بهجة الإشراق في تناوب دام الآف السنين.. فوجبة الشمس اليومية في موجبها رهان ميلادها لجينا يضيء جنباته في نهارات بهيجة أليفة.

تدهمك وأنت في وادي الوجب خشية التلاشي.. فالوَجَبُ والخطر ينفث في فضاء المكان اشتقاقه اللغوي الموجِب، ويُشعِل حروف دلالتهِ اللاذعةِ المَصْرَع.. ولكنه يبقَ مكان السّبَق الذي يُناضَلُ عليه، وقد يكون الاسم أرنون لاتينيا ولكنه في الصياغة والدلالة يحمل ملامح الأسماء السامية الشمالية الغربية بفرعيها الكنعاني والآرامي، فالنهاية الواو والنون علامة التصغير في لغات هاتين المجموعتين، وهي النهاية المكانية في الكنعانية أيضاً. وفي الدلالة فإن أرِن شجر الغار أو الوعل، وفيهما اقتراب من بيئة المكان النباتية والحيوانية. وربما عنى الاسم في بعض دلالاته السامية، ومنها العربية، المرح والنشاط، وهو في هذا يدلل على حركة حيواناته البرية من وعل وغيره، وعلى مسيل وادي عيون روافده كثيرة ليمضي بخفة وسرعة نحو مصبه.. يزف حكايات الوادي اليومية وما يضج به من حركة عبر طرقاته. وها نقش ميشع بن كيموشيت ملك مؤاب يؤرخ لشق طريق عبر ذاك الوادي يربط ذيبان بمؤاب منذ منتصف القرن التاسع قبل الميلاد.

ترى إلى أين تشق طيور المحمية فضاء الرحلة؟.. وهي تسمع ألحان الماء في مسيلها كل حين.. تمخر عباب الحصى كضجيج صدر يشتعل، وتمضي هادرةً كاسحة تنهمر شلالا من على منحدر شاهق ضيق. وادي الموجب كائن لكل الفصول والمناخات، ففية تقلب بين المناخات

الصحراوية والأيرانية والمتوسطية بين عمق يضمحل إلى نحو أربعمائة متر، ويغور سحيقا في بعض مجارية إلى ثمان مائة متر.. وقد منح هذا التنوع المناخي الوادي تنوعا في البيئتين النباتية والحيوانية.. ويحس المرء بالامتلاء الوجداني وحميمية الالتصاق بالمكان لكثرة أنواع الوبر والوعل والماعز الجبلي والقط البري والثعالب وربما النمور وغيرها من حيوانات البرية.

وفي وادي الموجب تترع الروح شيحاً وزعتراً وحرملاً.. ويقترب مذاق بيئته النباتية سماقاً وبطماً ونعناعاً.. وفيه تجد حيوانات البرية مرعاها في نبات الشوفان والقطف.

ظل نهر الموجب يسيل متأججاً ذا ضجيج ينظم أيقاع الوصل بين عمون ومؤاب، فبعد ميشع بما ينوف عن عشرة قرون أعاد الروماني تراجان إحياء درب ميشع، فسمي بطريق الملوك.. وهو الدرب المعبد إلى يومنا.. إذ اقتفى كل طريق من سبقه.. في ذلكم الوادي لم تنفصل اللحظات عن وصلها، فها هو شيحان يقرأ ملامح الأموريين وملكهم سيحون، ويطل على الأفق بكل تداخلاته التضاريسية وأوابده التي تقص تاريخ الحضور البشري. وفي منحى المثيولوجيا يعتبر الوادي من أشد الأماكن حضوراً، فالتشكلات الجيولوجيه الطبيعية هيأت للناس أن امرأة لوط المنتصبة صخرة، بعض ملامحها قوام بشري، قد مسخت

واستحالت صخرة حيث تشاهد إلى يومنا مستغيثة الأحقاب تكفيرا عن خطاياها.

تتملك المرء في أرنون لذة مراقبة الأودية تتهادى ينابيع تمور تنفلت مسرعة في تلاحق الطرائد البرية التي يضج الوادي بحضورها.. والطيور التي اشرعت شواهق الوادي كواها لها سكناً.. في ارنون يغمرك إيمان غنى الوادي في تتابع الدول والأمم والحضارات منذ العصور الحجرية وامتدادا إلى حضارت ممالك جنوبي الأردن، والمرور الروماني وتعاقب الدولة الاسلامية بعصورها عليه.. هناك تزهو الأرض وقد حازت تالد الأمجاد.. فما كانت من دهشة في قصص التاريخ الأردني إلا ولأرنون فيها حضور.. يتخلق مبتدأ الحكاية فيه.. يؤطر الأفق بما يشتهي.. نمر هنا.. شيح هناك.. أسماك تتقافز بمرح وخفة.. وطائر الوردي السينائي يعانق نسائم الكرك "العَمَار". في وادي الموجب يعن على البال الارتحال عبر مسيرة الأحقاب والقرون حيث عمارة القرية الأردنية التي تعود آلاف السنين إلى الوراء وحيث المعابد النبطية وبرك المياة والأبراج الرومانية.. ودرب ميشع ملك مؤاب الذي أعلن في مسلته بهاء النصر وتحرير الأرض.. عندما تشرف على الوادي من أحد كتفيه، تدخل عالم الملكوت والكلمة.. تبحر في عرمرم الأحداث.. تهيم في تأمل عميق يقربك من موعد الصلاة.. وَوِرد التسابيح.. سبحان الله

والله أكبر.. تحتضنك أنفاس النسائم وتقاطر الندى.. يستفيق نداء الأعماق.. يقتحم عليك قرين إبداعك قنديل وهج يضيء مساحة الروح والمكان.

من علياء أكتاف ارنون تبدأ الشمس نهارها، تمر على دروبه ووهاده.. تداولها شأنها اليومي وفي حتميةٍ كونيةٍ نتسحب خيوطها حين المغيب.. هي ذات الشمس.. تشرق على الوادي بلا ضجر..

ترسمه درب العاشقين.. ومحجة الروح.. مؤثرة.. ومستنهضة سواري أحفادها.. وقد تحدّر على طرقات أبنائها لحن المحبة سفرا خالدا..

أرنون تعملق حضاري، وانفتاح آفاق الألق الحضاري يدفع إلى عمق الطرح في استحضار التعاقب والحركية والتواصل الذي عاشه الوادي، ضجيج الطرقات المرصوفة والأعمدة المشبعة بالتبتل والعابقة بالنجوى.

مَنْ ترى أبقى تشكله كسوسنة تهبط إليه على أنغام رعاته؟ وهم عند مسائه عُشاقه الحالمين.. وقد رقرق الدمع عيونهم الحرى بعمق جذوره وألفة ملامحه، أرنون يجري يلهث وراءه التاريخ.. وقد تشهته مسلات الغد حية على أفقها تقصُّ الحكايا.. الولادة والبعث بين تكبيرات سحره وغسقه.. إنه أرنون.. انفلات السرد وشجر الخلود.

نصوص عباسيّة في ذاكرة المكان المؤابي

الكتابة ارتحال في الذاكرة .. وإبحار يوثق لها.. وتأصيل لتواتر المنقول.. ففي بهجة المجالس نقرأ لابن القرّية: "خط القلم يقرأ بكل مكان، وفي كل زمان، ويترجم بكل لسان.." وهو شاهد إثبات يدحض الزعم.. ويبدد الوهم.. بالكتابة بدأ التأريخ وصنع التاريخ.. عرفت بالناس وأحوالهم.. ووثقت الحدث بزمانه ومكانه.. وأوصلت إلينا ملامح الفكر والأدب عن الأمم والشعوب التي قضت.. فرحلة النقوش الكتابية التي انبثت فوق الأرض الأردنية بصمات تجسد الفعل وتسلسل أيقاعاته غير المبتورة.. وتأصل الفكر في تقاسيم الحياة اليومية، وترصد الحدث الذي يعلن تجلي الحضور الإنساني والحضاري على امتداد الجغرافيا البشرية والطبيعية الاردنية.

لقد نسجت هضبة الكرك قصة تاريخها بتفاعل انسجم تناغماً بين الحياة الصحراوية المتحركة، وبين حياة الاستقرار في الحواضر، وقد حبا اللّه الهضبة أودية سورتها من جهات ثلاث، وتركت للبادية جهتها الشرقية الرابعة، فها هو أرنون شمالا يشكل الحبل السري بين مملكتي الأردن في عصور ممالك قبل الميلاد مؤاب وعمون، وفي الجنوب يحتضن وادي الحسا أسرار الألق المكاني الأردني وهو يشد

إليه ذؤابات المجد المؤابي والآدومي، ومن الجهة الغربية تنهض الهضبة شامخة مسيجة بالرجال والتاريخ وزهو الحضارات مطلة على الغرب حيث ينحدر واد سحيق يصل إلى البحر الميت أخفض بقاع الأرض وأغناها قصصا في الحضور الديني والتاريخي والعلاجي، أما من الجهة الشرقية فتشكل هضبة الكرك سيف الصحراء موطن العرب المتنقلين من أنباط وثموديين وسواهم.

في الهضبة تخلقت مع الأيام، ومنذ العصور البرونزية خربة البتراء التي يحتضنها السفح الشرقي للوادي الممتد من ارنون في قسمه الجنوبي.. ولا علاقة لها، استدراكا، بالاسم الكلاسيكي الرقيم، فاسمها اشتقاقا ودلالة عربي بمعنى بتر وقطع وصفاً لطبيعة الوادي، الذي يشكل نهاية الفج المتسع المعروف بفج العسيكر، إذ يَضْيَقُّ الوادي لقطع اتساع الفج ويبتر انبساطه. والوادي.. وهو كما مؤاب ينثر مجد الأحقاب فوق الربى والوهاد، إذ تنتشر على طول السلاسل المجاورة له مواقع تحصينية تمثل أدوارا تاريخية مختلفة، بدءاً بالمؤابيين في القرن التاسع قبل الميلاد، ومرورا بالعرب الأنباط فالرومان ثم العصور العربية والإسلامية المتتالية. وفي الحضور التاريخي الاسلامي فقد تم العثور على خمسة نصوص إسلامية مكتوبة بالخط الكوفي، تكمن أهميتها في أنها النصوص العباسية الوحيدة التي عُثِر عليها حتى الآن

في مؤآب، بينها نقشان مؤرخان بسنة مايتين وست وثلاثين، وهي أيام المتوكل، الذي جعل ابنه المؤيد على أجناد بلاد الشام المختلفة، ومنها مؤآب، وهو أمر على غاية من الأهمية يدعو إلى إعادة النظر في مسألة الفراغ السكاني المزعوم في القرن التاسع الميلادي في الأردن وغياب الدور الحضاري فيه، فإنما كانت الفجوة معرفية لا حضارية.. فقد سجلت هذه النقوش الحضور المتسلسل للمكان والزمان الأردنيين، فهي تعزز الرؤية الحديثة الرافضة للرؤية البائدة، التي تسم الأردن خلال العصر العباسي بالفترة المظلمة، وعصر الفراغ السكاني والحضاري. ويُعَدُّ الكشف عن نقوش عباسية مؤرخة مكملاً لترسيخ مفهوم الاستقرار في العصر العباسي في جنوب الأردن، بعدما دللت الحفريات الأثرية في جنوب الأردن على تواجد مخلفات أثرية وحضارية عباسية متعددة في عدة مواقع أثرية، نذكر منها العقبة، والحميمية، والموقر.

معلوم أنه قد كثرت في الدور العباسي الأول الاضطرابات والثورات ضد الخلافة العباسية، وعلت بين الفينة والأخرى صيحات إحياء خلافة بني أمية، والتي من بينها ثورة الفلاحين، ذات الدوافع المتعددة، التي تتراوح بين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ثم الشعور بأن بلاد الشام قد أصبحت في درجة أدنى في تلك النواحي بعد انتقال مقر الخلافة منها إلى بغداد، فالتهبت مشاعر كثير من الناس في بلاد

الشام، الذين ارتفعت عليهم الضرائب، ولم يعودوا يعملون كعادتهم في الجندية، وتحولوا إلى الفلاحة، فبدأت ثورة الناس في أجناد فلسطين والأردن بقيادة المبرقع منذ أيام المأمون وحتى أيام المتوكل. ولقد كان جنوب بلاد الشام ملاذاً لأصحاب أصوات التحرر ولفظ العبودية والتهميش والحركات المنادية بعودة حكم بني أمية من بني العباس. وكان فيها جماعات ضخمة، كالجيوش، اضطرت نتيجة إهمال مقر الخلافة الجديد لهم للتحول إلى العيارة وقطع الطرق، والتي ولَّدت ثورة المبرقع أبي حرب بن تميم اللخمي في منتصف العقد الثاني من القرن الثالث الهجري. إن النظر إلى هذه النقوش من زوايا الأوضاع المختلفة التي سادت في القرن الثالث الهجري في بلاد الشام، ومن زاوية مضمون النقوش الثلاثة الأولى ذاتها يدفعنا إلى الاعتقاد بأن أصحابها من بقايا الأمويين، الذين اتخذوا من جنوب الأردن عاصما لهم. فمن الناحية الموضوعية في استنطاق هذه النقوش، فإن الأشخاص الذين تضمنتها يحملون أسماء عبد الملك، وأمية، وسعيد بن أمية، وهي أسماء أموية صريحة لا يروق لبني العباس التسمي بها، بينما حافظ أهل بلاد الشام على أسماء تعودوا عليها في عصر الأمويين. ثم حملت النقوش الثلاثة الأولى في سلسلة النسب أسماء ثلاثية، ولكن عَمِيَ فيها جميعها الاسم الثالث، إما عن طريق الكشط فوقه بعد كتابته، أو خلو

النقش الثالث من اسم الجد، رغم أن صاحب النقش قد ثبَّت لفظ البنوَّة بعد اسم والده، ويخال لنا أن هذا الكشط فوق اسم الجد جاء من أصحاب النقوش ذاتهم، الذين لم يتسن لهم التصريح بنسبهم الأموي، خوفاً من عسكر بني العباس.. وقد وثقت كل ذلك تفصيليا في بحث شاركني فيه جمعة كريم على روحه الرحمة.. ونخال أن أصحاب هذه النقوش من المواطنين الذين يدينون بالولاء للبيت الأموي، ويتوقون لهم، سيما وأن منطقة جنوب بلاد الشام كانت ملاذاً للثوار ومبعثا لها.

وفي المكان تفرد قلما يعلن حضوره في سواه حيث السوسنة السوداء تسكن في رضى سفح الوادي.. تتداخل مع تربة حمراء داكنة.. وفج متسع يستقبل الأخضر.. يعلن أن في الأرض متسع لأبناء الغد.. ينهضون فرسانا يعلنون التغيير.. يمدون للتجذر والوطن وصلا لقادم يعلن الأفق طريقا للحياة.. زرعه وحصاده جنى الأرض وسقياه حبات العرق.. مواسمه أغلال.. وأمواهه غدق.. وأحلام بنيه ليست أماني يركبون موجها.. لكنها استحقاق الدرب الذي ابتدأوا أمياله وإن طالت خطاهم.

العقبة

مرتع الأيائل وشموخ النخل

يتهادى البحر في إهاب..

يحوك وشاح الضفاف..

يسحب الأفق امتداد زرقة..

يبيح للعاشقين قرض القصيد..

يمنح الروح نوارس الشطآن..

يسوق خطاه إلى "الأرض الجُرُز"..

يبعث فيها السنبلة المَثَل..

تُنْبِتُ "سبع سنابل"..

"في كل سنبلة مئة حبة"..

إنها أيلة..

تتوسد القمر كل مساء..

تهب الحكاية انسياق المدى..

من شاطئ الحلم نحو رحاب الغمام..

ومن زورق العتق صوب اندياح النشيد..

ومن شجو موسيقاها إلى خِدر القمر...

أيلة..

قنديل الروح في درب اليقين..

ياقوتة الفرح بين مخضل الضفائر..

تحرس موج البحر النافر

أسراب قطا..

والسابح صوب يناع الهوى..

والرَّغَاب.

أيلة.. تسابيح الطفل وبقايا تذكاراته.. ينتشي بتلك الذكرى الحلم.. حيث يمسك الوالد.. بكل جلاله وهيبته وطوله الفارع يد الصبي.. يمضي معه.. يتنسم ندى مساءات أيلة.. يمضي صوب البحر.. يصطحب الطفل وقمر السماء.. فيا لمجد القامة العالية.. وطيب النسائم.. ودفق الحنان من القلب الكبير.. يا طهر الروح وطيب الفؤاد.. لا يشبه ما قلته ذلك المساء قول أحد.. لبيك يا بيدر الخير.. ويا سقيا الديار..

في مساء الحكاية.. كانت حواري البحر تحرس الشاطئ.. وقد أرخى البحر جدائله.. وزف القمر تباشير الغد.. قال الأب: هل ستتذكرني بعدما تصعد الروح إلى باريها يا ولدي؟.. هل ستقص لأولادك، القادمين من بطن الغيب،.. عني.. وعمّا أقص عليك..؟ إيه..

يا أبي.. وكيف أنسى؟!

هي العقبة.. بيت الحكاية.. سيدة المسافات من ميلادك إلى أن اختارك ذو الجلال والرحمة إلى جواره.. فها هي العقبة تسفر عن نفسها، وعن سحر مساءاتها التي تحيي تلك الذكرى سرمدا.. وتجمل الدنيا في عيون الطفل الذي كبر.. فما يفتأ يقرأ الفاتحة على طهر الأرض من ثغرها الباسم إلى ياقوصة اليرموك.. وقد استحالت روضة جنان بإذن ربها، حيث يرقد الأب.. صاحب الحكاية والذكرى ونسيم الخطرات..

هي أيلة.. فماذا سطرت كتب التاريخ عن مباهج ثغرها وحسنها؟.. عن مدينة البحر.. والفضاء الفسيح في لقيا المصريين والشاميين والحجازيين.. مدلاج البوح والنضارة.. نقشت على السفح أسفارها.. فأضاءت شموع الآدوميين.. والأنباط.. والأمويين.. والفاطميين والمماليك.. ووثقت لمحطات اليونان والآشوريين والرومان والعثمانيين.

هي أيلة ومَنْ سواها..؟!.. تاهت فوق هام المجد.. إذ حاز يوحنا بن رؤبة، صاحبها، كنوز الشمس، لمّا اتشحت بكتاب سيد الخلق محمد عليه السلام:

"بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا أمنة من اللّه ومحمد النبيّ رسوله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة أساقفهم وسائرهم في البرّ والبحر لهم ذمّة اللّه وذمّة النبيّ ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقًا يريدونه من برّ أو بحر."

أيلة.. لم تُتعِبُ الريحُ خطاها.. فعلى شاهق من الكبرياء احتفت بكتاب شرحبيل بن حسنة وجهيم بن الصلت في السنة التاسعة للهجرة.. وقد ظلت عامرة تضج بالحياة قرونا مذ ذاك الكتاب.. وها هو الملك الناصر صلاح الدين ينشئ رواسي البحر ويعلي أشرعة المراكب.. إعلانا لفتح القلعة في العقبة وتحريرها من الفرنجة.. فكان له الفتح وميض برق في ست وستين وخمسمائة للهجرة..

عرفت العقبة في التاريخ اليوناني باسم بيرنايس، وعرف خليجها باسم خليج لينتيز، وقد سماها الرومان إيلا، وإلينا.. ونعتها البيزنطيون إيلانه.. كانت في زمانهم مرمى أحزان الحيارى.. وعلى عتباتها يتساقط صفصاف الخطايا.. وهي التي ابتنى ابنها اسطفان كنيسة القديسة كاترين فوق جبل سيناء..

تسمت العقبة بأيله زمن الآدوميين والآراميين، وأيلوت، فأيله في عهد العرب الأنباط.. وقد تناوب الآدوميون والآراميون والعرب الأنباط على حكمها، وكانت مطمعا لليهود والرومان والبيزنطيين فاحتلوها غير مرة.. بيد أنها لم تتطبع بطابعهم.. ولفظتهم في كل مرة.. حيث قيظ لأيله من يمنحها شرف الخلاص من الغرباء.. فتعاقبتها العصور الإسلامية المختلفة.

لم يدم نزف جرح أيله بعد احتلال الصليبيين لها.. فاكتست عبيرا وافترشت سجادة الكبرياء.. احتفاء بصلاح الدين الأيوبي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، وهو يعيد قلعتها وجزيرة فرعون إلى حظيرة الإسلام.. وجاء بعده بقرنين المملوكي قانصوه الغوري فوطد تحصين العقبة، حيث ابتنى في القرن الرابع عشر الميلادي حصنا منيعا فيها.

وفد فاضت أنهار النور على أيلة منذ العهدة النبوية لأهلها.. وظلت حاضرة التجارة والملاحة قرونا.. تمخر عباب البحر.. وتسلك الدروب في الجزيرة وبلاد الشام..

وقد وهب هذا كلّه المدينة ثراء وازدهارا.. وحركة تضج بها أسواقها.. فقد كانت حبل الوصل بين الديار المصرية والحجازية والشامية.. "فإن أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسولة"..

فكانت أيلة وجوارها معان والجرباء وأذرح والحميمة معاقل الإسلام الأولى قبل غيرها خارج الجزيرة العربية.. فيا أيلة كتبتك الأيام والحوادث سفرا مشرقا نتذاكره زمانا في ملحمة الوطن الخالدة..

بحر أيلة فضاء رحب يتسع... وباب مشرع للفرح... يقر في القلب يقيناً يليق ببهائها ... ويقترب من قاماتها ... يلتمس قطر الندى الذي ينساب من حمرة الغسق... فيفيض وجدان عشاقها بكر غيث على صفحات زرقتها .. تتلقفه باحتفالية وفرح طافحين ... أيلة مقام يليق بأهلها ويرتقي إلى حدود الوجدان والعقل.

أيلة لهفة الانتظار.. وقد شَرّعت له بابين، واحداً للإبداع وآخر للفرح، فإذا بالإبداع يتأتى صنيع عبقرية المكان، وإذا بالفرح يملأ قلوب الزائرين والعاشقين.

موعدنا مع أيلة شوق دائم.. وحلم قادم .. يستمر فيه العطاء ... ويتسع معه المدرك ...

أيلة.. عروس البحر الأحمر.. والثغر المنسدل عسلا ونورا.. بحر الرواسي "المنشآت في البحر كالأعلام".. مخرت عبابه سفينة الشراع الفينيقية.. واشتاقت لحضنه الدافئ سفن المعز لدين الله الفاطمي.. وسفن كليوبترا البطلمية.. تمضي السفينة في رحلة الإيلاف إلى اليمن السعيد.. تمر ببلاد بونتي.. تعود بالطيوب والتوابل والبخور.. ينتظرُها

على خليج لينتيز العرب الأنباط.. رجال تاقوا للبراري.. وما لفظوا البحر.. ركبوا أحمره وأبيضه.. ابتلت أقدامهم بمياه جزر المتوسط وسواحله الشرقية في أوروبا..

في أيلة.. سطوة للمكان.. ومهابة للبحر.. وموج يضبط إيقاع القلب على تشكلاته.. وزرقة شفافة تمنح الروح غفران البوح.. ونداء التجلي..

يقرأ عليك المكانُ في أيلة كل ذاتك.. يكرس حضورك الإنساني.. بوحك.. الفكرة الغافية في أعماقك.. صورة التبتل.. المفردة المتصوفة.. في "قهوة غندور" تتبعثُر الكلمات جذلة.. تغازل حورية البحر.. فتحتفل الذاكرة بذلك الحضور العذب للتصابي الذي كان.. فلا تتوارى الذات خلف واقع اشتعال الشيب.. في "قهوة غندور" تتناهى الذات الشاعرة، حدَّ الإفلات، مع اللحظة.. تستلم الروح لتساميها وتوحدها مع أفق البحر المتصل بالسماء.. تسبح.. تغوص.. تتماوج تستحيل شراعاً.. ترتقي نجماً.. ففي أيلة يطيب لدرك الروح الإنعتاق.. وَتَقاسُمُ حَمْدَ العَودِ لتحلو الحياة..!

وادي القمر

"إرم ذات العماد"

تشرق الشمس على وادي القمر تآخياً وألفةً سرمدية، غير آبهةٍ بمن كان وقضى، وبمن جازه وعبر، وهي التي عشقت التنزُّهَ بين قامات الصخر ونهوض الجبل، تتلقى خيوطُ أشعتِها دغدعات ذرات الرمل بفرح بتولي، وترمقُ رؤوس يواقيصها، وهي تستيقظُ دونما غفلة، حارسةً للبحر، تُعانقُ سواكن الشراة، وتفيضُ عليها بمكنونِ الذات.

جبال رم تشق عباب الغيم، تعلو فوقه، سيدة طقس، وعنفوان خصب، فهي حارسة القوافل، وسيدة الدروب التي ما لفظت أهلها، فكانت لها واهبة السكينة، والصدر الذي ألقت عليه رأسها، فتماهت فيها طمأنينة وراحة.

وادي رم يلوذ بتراث عظيم، يُجسِّد حركة تاريخية قهرت الظلام، وتعزز تلاقي القوافل المصرية والشامية والحجازية فيه، عبوراً وبوابات فتحٍ وقافلةَ تجارةٍ، تُفتِّقُ مشاعر التواصل العروبي الوجداني والانتماء المكاني، حين يتسع لكل هذا الأفق.

وعندما لَفِيَ الأهلُ من العرب لم يقطنوا أرضاً يباباً، ولا سكناً مبتوراً، وما داهمتهم غربة الروح، وما تلجلجت ألسنتهم، بل اشتعل

فيهم الشوق للأجداد، وراحوا يقلبون النقوش وواجهات وادي القمر ويسألونها عن تذكاراتها وعن الوجوه السمراء وقسماتها وعن دفق المشاعر. فوادي رم شلال من ذكريات تتحدر.. ومليحةٌ مصونة لم تُتلِف جذورَها.. وحرةٌ لم تقايض الزمان ولا أصحابه على ذكرياتها المسكونة تعلقا بأهداب المكان.

وادي رم مَطِيَّتُهُ المجد، يعلو فوقه عقابا، حُزمة برق وسنابل، تَشكَّل وقتما لم يكن هناك سوى نجمة الصباح وغزالة. فَأَمَّه الأردنيون محج قبائل، ووشاح حياة، وتَعَشَّقوهُ بواكير غيث، وأرضا بكرا، وخصب مرعى. فاستحال معهم سفر تكوين، ومسحة تأمل، ومحبوبتهم التي يشتمونها نسائم عطر.

وادي القمر يمتطي السحاب، ويعلو فوقه سيدا للكلام، قابضا على رفعته، ولم يكن هناك سوى حورية البحر، ذات الحضور البهي، فكانت معه دفق روحه، وتوليفة العذرية والنشوة، وسر أسراره.

وادي رم انسجامٌ مع مألوف حياة العرب من حيث شد عصا الترحال وحطها. والوادي في الحالين يسطو على الحيلة والقرار في ضرورة الانتماء المكاني للمارين والقارين به، وهم إذ يقيمون فيه يشيدون المعابد والبرك والمضارب والمرابض، وهم إذ يرتحلون يحملونه معهم توقا للعودة إليه، ورجاء أن يخلفهم النقش الذي رقموا على جدرانه

في استقواء الأثر حداً لحضور صاحبه حتى يؤوب مارا أو مقيما.

لم يعقب الوادي ناكصاً في هِمَّةِ توثيق المتوارث التاريخي، فغدا سفرا يفوق ما تحتمله الكتب، فقد جاءت تلاقحات الصور والحروف على اختلاف أشكالها ورطانة لغاتها عاكسة معاني التلاقي البشري أحلافا وجوارا وانتماء دينيا وقرابيا وهب الوادي وقارا باتت تجاويف الصخر فيه صوامع متعبدين، وعيون الماء ومسايلها عماد العابرين ولمن طاب لهم المقام.

وتشي الرسومات الصخرية لقافلة الإبل ولآثار الأقدام البشرية التصاقا بشريا بالمكان على اختلاف أزمان المكوث أو الولولج لبوابات الوادي نحو الأركان المصرية والشامية والحجازية، وهوولوج يعد بطريق العودة، فالوادي يجمع لهفة الروح للأفق البعيد حيث المرمى والمتكل وشبب الشوق لمعاودة التلاقي حالة إنسانية يشهد عليها الوادي.

إن الحظوة فيما حبا الله الوادي من تشكلات طبيعية أخاذة تنعكس وفق حتمية سطوة المكان حالة فطرية للالتصاق به وتولدت دفقات تَقَرٌّ في وجدان الساكنين أو العابرين إذ يتغشاهم الأمن والإحساس بوحدة المشاعر والمصير.

ولا يملك المرء في وادي رم الانفلات من التعلق المادي باتساق الرمل والصخر وكُلِّيةِ المشهد الذي يؤطر مشاعر تلقائية بالألفة بين

الناس وبينهم وبين مكونات المكان البيئية الطبيعية، فيكون قرار الانتماء المكاني طوعيا وفق مبدأ الحرية الممنوحة للإنسان وقسرياً وفق مشاعر التملك للحيز المكاني والمجموع على ما ينطوي فيه من أناس ومقومات حية من ماء وكلأ وتنظيم اجتماعي، وإلا فما تفسيرنا لآلاف النقوش مع ما تحمله من مدلولات ومعاني؟

ولا تَتَمحَّلُ من حولنا السبلُ في رحلة البحث عن الشعوب التي ضج المكان بصخب حياتها، فالنقوش التي عُلِّقت على جدران الواجهات الصخرية الشاهقة في الخزعلى وأم عشرين وشيره وغيرها من وادي ارم تطفح بإرهاصات الحياة على تقلب أحوالها، فالسهام تشق عباب الغيم، وساح الطراد يكتنز بالأدوات والتنوع الحيواني، ويشي بجسارة الرَّميِّ في مقارعة ضواري الحيوان وكواسرها. وتؤلف صورة سرب النعام والأيائل انسجام التكاملية بين الصراع والتعايش البيئي الذي يحتم الاعتراف بصورة الحياة الطبيعية على اختلاف تشكلاتها الاعتيادية اليومية.

والرواسي الشاهقة والأرض التي تسامقت جبالها الصخرية بغير عمد، غير مسبوقة شواهدها، تعلن الثبات والقرار، وهو ما يكرس ذات الحالة عند العرب القدماء من ثموديين وأنباط وغيرهم من قبائل المضارب وما نما لديهم من أنعام ومواشي.

إن نصوص النقوش العربية الشمالية في وادي رم بمختلف أرجائه تؤسس لعلاقة قرابية فيما بين صاحب النقش ومحيطه وفيما بين النقوش وما تتضمنه من أسماء قبائل وأفراد، وما تعكسه من دلالات دينية واجتماعية وسياسية تؤسس لواقع انتشار السكان في المكان والتصاقهم به، التصاق من يحمله بين جانحية في بعض الأحايين، وذلك وفق ما تقتضيه سرعة التنقل ونمطية إيقاع الحياة الاقتصادي والنمط المعيشي.

إن كم النقوش الهائل وتنوعها في وادي رم، وما تمكنت الدراسات والمسوحات الأثرية من الكشف عنه من معابد وبرك مياه ومؤشرات سكنية، وكذلك البيئة المنفتحة على ثلاثه أقاليم جغرافية كبرى؛ المصرية والشامية والحجازية تحتم اليقين بالانتماء المكاني عند العرب تجاه رم، فالمكان مأوى قاهر للخصوم ودرع يتحصن فيه آهلوه، فالانتساب الثمودي والنبطي والعربي على اختلاف مشارب العرب آنذاك لهذا المكان يمنحه قوة تناصرهم فيما بينهم، وانصراف الطامع طوعا وكرها عن واديهم.

وادي رم يطلق رذاذ أحلامنا، ويرسم شكل خطانا على رماله التي تحملها حيث تذروها النسائم في تَشكُّلِها الجديد.. وتُشعِلُ شاهقات الصخر الخاطرَ بسلافِ البوح.. وصهيل الصبوات..

وقد عكست نقوش وادي رم التباين التناسبي بين توزع عدد النقوش الإسلامية والثمودية وغيرها من نقوش المنطقة، وخصوصاً وأن وادي رم يشكل بوابة الجزيرة على مصر والشام، إذ يُنتظر أن تكون نقوشه الإسلامية أكثر زخماً مما تمكنّا من العثور عليه، مقابل آلاف النقوش العربية الشمالية الأخرى.

لقد جاءت النقوش متباينة الأحجام، ولكنها بمجملها قصيرة نسبياً. ولقد تمثلت بالتنوع والغنى في موضوعاتها، وأسلوبها، وأشكال حروفها، وأسماء الأعلام الواردة فيها.

فمن حيث أشكال الحروف أوضحت لنا الدراسة الفنية لأشكال الحروف ارتباط النقوش بنمطية الخط الكوفي في القرون الإسلامية الثلاثة الأولى، والتي لم تتخلص بعدُ من أثر الخط العربي لفترة ما قبل الإسلام، ومن أثر الخط النبطي المتأخر، ولكنها عكست في ذات المنحى، ومن خلال بعض النقوش، نزوعاً نحو التخلص من اليبوسة والجفاف، فبدت أكثر ليونة، واكتسبت من سمات الخط النسخي على الرق وأوراق البردي. وأفصحت عن سمات خطية تعكس النمط المكي المدني في الخط، وسمات أخرى توضح النمط المعروف بالكوفي البسيط.

لا تتقاذفنا الأسئلة في وادي القمر عن سر النقوش والرسوم والوسوم، ولا عن الحروف البكر في النقوش الكوفية المبكرة.. فنحن نعي تفاصيلها، فلحمة السنين مذ ذاك حتى يومنا هذا تمنحنا قوة المايزة بينها وبين لهجاتها، بينها وبين شهقة الحرف في امتداده نبطيا وعربيا مبكرا وكوفيا.. وهي التي لم تهرب رغم شجونها عن لحظة البوح وهي تتزاحم في الذاكرة والوجدان، وعلى واجهات الصخر والجلاميد وعلى الجلود والبرديات، حتى عانقت آيات الكتاب بزهوٍ وانتشاء.

وادي رم يعانق النجم، ويعلو فوقه صوفيا، يجاور القمر، ولم يكن هناك سوى سلطانه القلب، وتوأم الروح، فكانت معه سر الحياة، واكتمال الرضى، والمرأة التي أهدت انتصاف الأربعين، شَعْرها المسرح رشاقة موج، وطارحته اكتمال النضارة، ومتعة الجاذبية، وعذب الكلام، وبلاغة الصمت، ومفردات العيون.

في جبل الخزعلي، ذلك المرتفع الصخري الشاهق، تسكننا الدهشة ونحن ننساب بما يشبه سيق البتراء، الذي لا يزيد اتساعه على ثلاثة أمتار، ويضيق ليصل إلى متر ونصف المتر تقريباً، وقد كُتب، في الأمتار الأولى منه، وعلى الجهة اليمنى الداخلية، عدد من النقوش الثمودية، والإسلامية المبكرة، وأشكال أخرى علّها وسوم، أو بقايا كلمات نبطية، وفي مواجهة هذا الكتابات، على الجدار المقابل، نُقِشت آثار أقدام، وصور

آدمية مجردة الشكل، تعكس طقسية الدعاء، إضافة إلى رسم الوعل، الذي قدسه الساميون والعرب، وهذا يشي بقدسية المكان عند العرب قبل الإسلام، حيث استمر محطة راحة لهم ساعة بزوغ فجر الإسلام، فالمكان ظل ظليل، يقع على مجرى مائي تسقي عيونه العطاشى.

أما في جبل أم عشرين، الذي يضاهي أعلى قمة في رم، فقد نقشت على واجهتين صخريتين منه نقوشا إسلامية مبكرة، تفصح عن أسماء من مروا به أو سكنوا إليه، ويبدو المكان وكأنه محطة راحة لرواد الطريق، إذ ظهر فوق جلاميده الضخمة تجويفات صخرية مُصنَّعة لتجميع المياه، وما زال مرتادو تلك المواقع يعرفونها، ويستخدمونها لأغراضهم المختلفة.

وكيفما يممت وجهك في أرجاء الوادي كان العزم المكدود بيارق وفاء علت مصابيح ونعمى في فيافيه، وأجنحة طافت خوافيها نجوم الليالي. وشدت قوادمها زمانها العربي حقبا غادية ما اعتذرت عن هوى إلا وأشرقت قمرا في وادي القمر، ومضارب حق وسؤدد طوت بيدها نجوى اعتذار فارسها عن صولة شدت عراها يقظة سرمدية، لمعت وهج زمان، والتماع صهباء، ووجد شاعر كرس لها شوقه بل عمره، وحين تزأر الروح لا تتخذ عشتار فقط رمزها للشمس، بل ينصب العرب عسكرهم في نهاية القرن الثاني الميلادي بكل عنفوانهم وإبائهم،

ويقرؤون في رم تاريخا طويلا شاخصا، وقد أرجع الفكر كليلا في مداه، ومزمجر الصدر شعرا، وهوى، وقد عَمَّرَ الوادي واعتمره كما يهوى، لا كما تهواه الأمم والرسوم.

فأي وقع للزمان ووقائعه بل أي مسائل في أحواله أو مكانه دون فارسه، وأيه أوجاع لا تعم الثريا وهي ترقب عرب الشمال وقد أذكت وقائعهم أيامهم وحروبهم قبائلهم وأزمانهم، فكانت كندة الزاحفة إلى الشمال في النصف الأول من قرنها الرابع للميلاد.

وأية أمة تلك التي لم تؤرخ بالدم والهوى، قبل أن تؤرخ لسياقها الحضاري، بل لنواها وفتيل صخرها، لحشرجة شهدائها، ولأحلافها من آمالها وآلامها. أية أمة تلك التي لم تكن تُرسل وحدتها، أضرحة قبورها وفواعلها المطلقة بين كواكبها، ومدافنها.

أية أمة تلك لم يبد نورها من نارها، ويقينها من سؤالها، مثلما تكون شواهدها تاريخها وشاهدها.. أين منا ذلك الفارس، وقد خلد ذكرها وتمردها وحرفها، فكان أن شدت روما رحالها وعقدت لواء باطلها، ونفثت عتوها على محارب وعويذ، وما هما إلا كالشوبك وقلعتها.. وما هو إلا كسيف هاشمها، وقد أوهن الشرَّ إذ قطَّب حاجبيه، فسخت يمينه لِيُعْمِلَ سيفه بأرتالهم..

وادي رم ... عبقرية مكان

جبال رم تشق عباب الغيم، تعلو فوقه، سيدة طقس، وعنفوان خصب، فهي حارسة القوافل، وسيدة الدروب التي ما لفظت أهلها، فكانت لها واهبة السكينة، والصدر الذي ألقت عليه رأسها، فتماهت فيها طمأنينة وراحة.

وادي رم مَطِيَّتُهُ المجد، يعلو فوقه عقابا، حُزمة برق وسنابل، تَشكّل وقتما لم يكن هناك سوى نجمة الصباح وغزالة. فَأَمّه الأردنيون محج قبائل، ووشاح حياة، وتعَشَقّوه بواكير غيث، وأرضاً بكراً، وخصب مرعى. فاستحال معهم سفر تكوين، ومسحة تأمل، ومحبوبتهم التي يشتمونها نسائم عطر.

وادي القمر يمتطي السحاب، ويعلو فوقه سيدا للكلام، قابضا على رفعته، ولم يكن هناك سوى حورية البحر، ذات الحضور البهي، فكانت معه دفق روحه، وتوليفة العذرية والنشوة، وسر أسراره.

وادي رم يعانق النجم، ويعلو فوقه صوفيا، يجاور القمر، ولم يكن هناك سوى سلطانه القلب، وتوأم الروح، فكانت معه سر الحياة، واكتمال الرضى، والمرأة التي أهدت انتصاف الأربعين، شَعّرها المسرح رشاقة موج، وطارحته اكتمال النضارة، ومتعة الجاذبية، وعذب الكلام،

وبلاغة الصمت، ومفردات العيون.

في جبل الخزعلي، ذلك المرتفع الصخري الشاهق، تسكننا الدهشة ونحن ننساب بما يشبه سيق البتراء، الذي لا يزيد اتساعه على ثلاثة أمتار، ويضيق ليصل إلى متر ونصف المتر تقريباً، وقد كُتب، في الأمتار الأولى منه، وعلى الجهة اليمنى الداخلية، عدد من النقوش الثمودية، والإسلامية المبكرة، وأشكال أخرى علّها وسوم، أو بقايا كلمات نبطية، وفي مواجهة هذا الكتابات، على الجدار المقابل، نُقِشت آثار أقدام، وصور آدمية مجردة الشكل، تعكس طقسية الدعاء، إضافة إلى رسم الوعل، الذي قدسه الساميون والعرب، وهذا يشي بقدسية المكان عند العرب قبل الإسلام، حيث استمر محطة راحة لهم ساعة بزوغ فجر الإسلام، فالمكان ظل ظليل، يقع على مجرى مائي تسقي عيونه العطاشى.

أما في جبل أم عشرين، الذي يضاهي أعلى قمة في رم، فقد نقشت على واجهتين صخريتين منه نقوشا إسلامية مبكرة، تفصح عن أسماء من مروا به أو سكنوا إليه، ويبدو المكان وكأنه محطة راحة لرواد الطريق، إذ ظهر فوق جلاميده الضخمة تجويفات صخرية مُصنَّعة لتجميع المياه، وما زال مرتادو تلك المواقع يعرفونها، ويستخدمونها لأغراضهم المختلفة.

وكيفما يممت وجهك في وادي رم ..

فثمة عزائم في ذراه ..

وبيارق وفاء علت مصابيحاً أضاءت سماء الجنوب..

ومضارب حق وسؤدد فاضت شمائلها كما فاضت يمانيها ..

عرفاناً لا نكراناً ..

وصالاً لا فرقة ..

فيها تطلع الشموس وإليها تؤوب.

وادي رم ...

سؤال الشاعر المشتاق للمكان وأهله ...

وقد تملكه الشوق وجداً ما زال مسكوناً فينا:

يا أخت رم، كيف رم؟ وكيف حال بني عطية ؟

هل ما تزال هضابهم شما وديرتهم غذية ؟

سيقا لعهدك والحياة كما نؤملها رضية

وتلاع وادي اليتم ضاحكة وتربته غنية

قصير عمرة

شرف الانتساب للأرض والتاريخ

أَحَسِبَ خلفاءُ بني أمية أن كل هذه الحيرة ستنتابُ الدارسين في مسألة حوائرهم المنبثة في البادية.. أجعلوها للّهو والهوى وتعتيق الخمور وتلألؤ الأكواب؟.. أتراهم رغبوا عن المدينة وزينتها ؟. فنشدوا الصحراء توقا وحنيناً!.. أم هي عمارة الأرض البور القصية لتدنو بفن وإبداع تلك المنشآت من روح عقيدة البناء التي كرس دينهم؟ فلقد صان ما عمروا من حصين القصور والقلاع في البادية ذوقاً وعراقة تَطَاوَلَت على عباب الرمل وعصفه.. فكان الغرس طيب الجنى.. وقد نال عرب البادية نصيبهم من ذلك الدوح الوارف.. فاقترب الناس من بانية يسطرون ولاء وشمما فاق علياء الروابي.

مضى الأمويون وظلت قصورهم في البادية الأردنية تنسج هوية المجد اليعربي.. ويتناقل الرواة سيرة الوفاء نأيا ومآبا.. وهم يجوبون قصور الفدين، والمفجر، والحلابات، والصراح، والحرانة، والطوبة، والموقر، والمشتى، وقصير عمرة.. قصور تأنس الروح لها.. ويردد الكون عبر أحقابه رجع الصدى في عمائر خالدات.. تُبقي ذكر الأجداد عتيدا ندياً.. لينتسب أصحابها إلى سفر المعالي، وتنتسب هذي القصور لسنا طيبهم.

البوادي حمى عزيزة.. يرعاها أهلوها في دجى الأسحار.. ويغمرونها فوح صهبائهم صبحاً وضحى.. ولقد أشاد خلفاء بني أمية في مضارب عرب البادية مواثيق القربى.. وأوقدوا نار القرى.. ونالوا ما أرادوا سحر جمال.. وهدوء بال وسريرة..

تغفو قصور البادية على حلم الامتثال للجذور والنشأة.. فالبادية الأردنية تأسر الأموي ويرى فيها راحه وراحته.. أنشأ القصور ينشد فيها الاجتماع إلى زعماء قبائل العرب.. ومحطات استراحة للوفود الرسمية أو لقافلة الطريق في رحلة الحج أو الإيلاف.. ولعل هذه المباني قد شهدت من الصحو والحكمة ما يُذهِب عن أصحابها تكهنات اللجاجة والثمل.

حتّام يمر المرء بقصير عمرة ملويا على جنب.. فرغم وهج الرمال تتملكه دهشة المستكشف.. وزهو الانتساب للحمى وحماته.. وهو يرى تلك اللوحات الأخاذة تتزخرف على جدران القصر.. تطوي القرون.. مشهد الصيد.. والاستحمام.. وسنا الهدب.. الجلساء والندامى.. وناي السمار.. يلقى القادم حبورا وفرحا.. يسرح الروح في فسحة الفضاء.. يبوح بمكنون النفس في درب الأماني.

لقد جاء بناء القصر بتوليفة تنسجم مع طبيعة الأرض وتضاريسها.. وينجذب نحو روح المنعة والرحابة.. تعلوه قبة رسوماتها وزخارفها تبنئ

عن فن راق.. حكاية خلدتها ريشة فنان.. تواترت تناقلا تُرجِعُ أصداء ذاك الزمان في البيداء.. وتعكس بيئة البرية الحيوانية، فمن مشاهد الصيد إلى رسومات النمور والأسود وأسراب النعام وقطعان الغزلان.. وكأنما تكشف هذه الرسومات عن بعض ما أحار الباحثين في سبب بناء القصر.. فقد كان الصيد متعة العربي التي لا تدانيها متعة.. وظلت العرب حتى اليوم تحتفي بمواسم الصيد هذه في بوادينا الأردنية والعربية.. ففي ليالي البادية وصباحاتها من السحر والجمال ما يُهَيِّجُ الفؤاد توقا واشتياقا لطيب المقام في مخيمات الصيد الموسمية..

وقد عكست الجداريات فوق ما عكسته من بيئة حيوانية البيئة النباتية، من رسوم عناقيد العنب وزهرة الأقحوان، وورق الكرمة.

ومما يُشَرعِنُ بناء هذا القصر، فوق ما ذكرنا من أمر الصيد، في البادية، وبعيدا عن العمران، أهمية الموقع في الاجتماعات الرسمية السياسية ذات الطابع الأمني والسري.. فصور ملوك الأرض التي علت جدران القصر تمنحنا عذر استبانة سر اختيار الموقع.. ولعله يميط اللثام عما خفي من أمر اختياره في رغبة الخلفاء والأمراء من بني أمية الاجتماع في بعض شؤونهم بعيدا عن أعين الرقباء والعامة.

وكأنما هو السر الدفين.. يتوارى في البادية مفازة العرب ومنجاتهم.. يأوي إليها العربي الذي تسمى باسمها.. وانتسب إليها..

فالعربي اشتقاقا من عَبرَ وجاز.. وهل يعبر العربي في تاريخه غيرها؟ وهي التي تتلاطم أمواج رمل وسراب.. يبابا لا تنبت سوى شجيرات العجرم والشيح.. طَوَّعها فأطاعته.. دَجَّن وحَشيِّهَا وكواسرها.. وأَنِس إليها.. فاستحالت فؤاده، وعين بصيرته.. استجابت له.. واستحمت بهمته.. وأهدته نجومها.. فكتب أجمل قصائده فيها.. واهتدى إلى الدرب بإشارتها.. وقد مثلت رسومات قبة الحمّام في قصير عمرة قطعة من هذه السماء، نَظَمَ فيها الفنانُ المبدع أبراجَ السماء.. فهل كان هذا شَغْلاً للفراغ وكِسْوَةً تزين الجدار؟.. أم أراد له صاحبه ما أراد من الإفصاح عما تعنيه الأبراج والنجوم للعربي في باديته؟

سكان البادية على أهمية كبيرة بالنسبة للدولة الأموية.. فهم الملجأ إذا اشتد الخطب.. فلا بد من بناء القصور المزودة بمستلزمات الإقامة القصيرة من خزانات ماء وسواقي وقنوات فخارية، ينساب فيها ماء دافئ تحت أرضيات القصر، ليمنح الدفء للمبنى وقاطنيه.

إن القصور الأموية في البادية الأردنية تجدد إحساسنا بالواقع الذي كانته البادية في ذلك العصر، فاختيار المكان له دلالته الوظيفية التي ابتغاها خلفاء بني أمية، ومهما كانت الدلالة فإن المكان أساسي في حضوره عند الكلام في أسباب بناء هذه القصور، فالأمويون يحملون للبادية حنينا حقيقيا انجبل في وجدانهم، فقد عاشوا فيها وعايشوا

فضاءاتها الرحبة التي توحي بالانطلاق والانعتاق من الزحام.. ففضاء البادية يرادف عند أهلها الحرية والهواء النقي والفصاحة والفروسية والقرى وإكرام الضيف، والحلف بالقربى وبالموالاة والدم، وهذه كلها عناوين يعيها الأموي وينشدها كذلك.. وفي البادية تجليات كرامة المرء في إظهار تلك السمات، فالمكان ليس بيئة السراب والرمال واليباب في عيني أصحابه.. بل منبعا للقيم والأعراف والتقاليد التي تنسج خيوط حياته الشخصية والمجتمعية.

أما البادية وما ضمته من قصور أموية فما زالت شواهدها سؤالا يحيرنا، فهذا المشهد ألفناه في المدينة ولم نعتد عليه في البادية.. فما ألفنا ليس سوى مكان جند أو خان قافلة أو قلعة حراسة وثغور.. لا قصرا له كل هذه المهابة وهذا الألق.

يعود تاريخ بناء القصر إلى فترة حكم الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، الذي تولى الخلافة فيما بين سنة ست وثمانين وست وتسعين هجرية، ونبه لأهمية هذا القصر اليوس موزيل قيل نهاية القرن التاسع عشر بعامين. وقد جاءت رسومات الفريسكو التي علت جدران وقبة القصر لوحات ذات فنية عالية مثلت أنموذجا للتصاوير الإسلامية، وقد عمد الفنان المسلم على جعل أرضية جصية تعلوها الرسومات ذات الألوان الكميت الداكن والأصفر والأخضر والأزرق والبني.

كان من بين التصاوير نساء محظيات، وصورة الخليفة برفقته عظماء عصره في إسبانيا وفارس والصين والحبشة وبيزنطة، ويذكرنا هذا بمسلات روما وبلاد ما بين النهرين التي تؤرخ لانتصارات الحكام على غيرهم ممن عاصروهم، فهل تعني هذه الرسومات حكام وملوك الدول التي دانت بالتبعية للدولة الأموية، سؤال حائر يعوزه اليقين. أم أن الخليفة يجسد نفسه عظيما بين عظماء؟

بوادينا تتجلى بنفحات العز التليد.. وقصصها الخالدات.. وخصب الرواية والذكريات.. وقد جابتها الأقوام والشعوب، من صفويين وثموديين ولحيانيين وجذاميين وأنباط، وعبرتها قافلة الإيلاف في رحلة الشتاء والصيف، وسلك الحجيج دروبها وخبرتها قوافل البخور والحرير في طرقات وادي السرحان وباير.. وكانت خط سير الفتح الإسلامي نحو بلاد الشام.. وتطول قائمة الذكرى الغنية بمآثر البادية، والتي تهب المكان قلائد الشموخ وزهو العهود..

مادبا

تَنسجُ المجدَ فسيفساءً

يخالطك الشوق وأنت تطرق باب الزمان الموغل في التناهي حيث كان الحدث دالاً في كثير من إيقاعاته على البحث عن الحقيقة وعلاقة الإنسان بما حوله..

إنها مأدبا.. حيث دعاتها ورهبانها ونواقيس المغفرة والسير بخفة نحو ذاك المتألق من قممها، جامعة أساطير الخلق، وتنهدات الشرايين دافقةً عندما تقلِّبُ أوراقَها وتعيد كتابتها من جديد... طافحا شوقك إلى مجهولها، ومستجليا مآثرها ورادّات فعلها، حيث تبدأ النصَّ بالترتيل وتختتمه كذلك.

مادبا.. مرايا تنسكب لجينا تَفْتَرُّ عن ثغر باسم.. يستعصي الكلام عن وصف وارف الخمائل المفروشة رياحين وزنابق .. وعن دفقة الشهد الشذِيِّ.. وانتشاء افتراش الروابي.. ففي ربوعها لم يتأود العود.. ولم يُرْدي غُصْنَهُ اشتياقٌ لندىً.. فعندما رشَّت الشمس ضياءها فوق سهولها.. ارتشف السهل السنا.. وأصبحت شمسها تختصر الدروب توقاً للإياب.. لينتشر في مفارقها رحيق الأزاهير.. وأنفاس الخزامى .. وبهاء النرجس.. ونشوان الرؤى.. وندى الشمائل..

سهول مادبا أندى الروابي.. وأوفاها بهاء.. يعانق نجم سمائها طلع الزهور.. وسحائبها تهمي عبقا.. ترشرش عشب سهولها سلافا.. فتسبيحٌ على كل الدروب وأجراس.. وفي فضائها الرحب تفاصيل حكايا وصلبان تعب.. وحنين النظرات العطشى نحو مغرب الشمس في الأفق المجنح.. فخل بينك وبين الروح تسبح صوبها.. فهنا القرار وسفح الدرب.. وسرِّح البصر صوب القدس لتقترب الساعة وينشق القمر..

لم يُكتَب تاريخ مأدبا على صُفْرِ الورق.. لكنه المدى المطرز بالفسيفساء وطهر المكان.. فمنذ منتصف القرن السادس الميلادي.. لم تتراءى مأدبا صفحة تسبح في مهب الريح بل راسخة تفترش الأرض سجادة في كنيسة القديس جورج.. وقد حملت أمانة التاريخ لكل الذين تهدلوا تعبا.. فأفصحت حجارة فسيفسائها البديعة عن قلب الشرق ومركزه.

وقد ازدهرت المدينة وخاصة في مواسم الحج المسيحي وأيامه المتعاقبة والمتتالية حيث أنبياء الله والحق في كشف المكنون مما لا يُعدُّ أو يُصرّف إلا في خبايا الصدر وحشا القلب...

ومن القدس حيث قلب الشرق يمضي درب الرؤيا في خارطة الفسيفساء مباركا أرض الأردن وفلسطين وكل بلاد الشام وأرض الكنانة.. يكشف سر الأحقاب وبنفسج الدروب.

وتضيء في خارطة مأدبا شوارع القدس على قناديل باب العمود الذي نسجته يد فنان أبدع في رصد المخطط المعماري للمدينة، وطابعها الطبوغرافي فترك لنا كنزا لهذا الفن منذ خمسة عشر قرنا.

وعلى شرفات مأدبا في قمة من قممها الشماء تشتعل ذاكرة المكان حيث يرقد نبي الله موسى فوق جبل نيبو، وهو في دلالته الاشتقاقية الكنعانية المكان المرتفع العالي، ونبا حيث كليم اللّه تعني في العربية النبي، وهو اسم مأخوذ من علو المكانة والارتفاع في الأرض عما حولها.

وعلى مُشرفٍ من الأرض حيث ترتقي يفاعاً تسبحُ الروح في أم الرصاص، ففي كنائسها التي تتصعد عاليا، ينبعث نور ساطع لماع على أكوان الزهر والدحنون والأقحوان، حيث يفترش أرضيات الكنائس سجاد الفسيفساء موثِّقاً رسوم خمس عشرة مدينة تحتضن النهر المقدس بضفتيه..

وها هي ساحات أم الرصاص تعلن دهشة الحضور، وعلى النور الذي عانق السماء، وهي تحتضن انبلاج ضياء الفجر بقدوم سيد الخلق محمد عليه السلام ليقابل الراهب بحيرة فيها..

ويعلو حداء القوافل توقاً وفرحاً.. وهي تدنو من ميفعة أحد محطاتها الرئيسة.. ويجتاح معسكرها الروماني.. وحاراتها الأموية

زحام الزائرين والتجار والعباد الحجيج إلى كنائسها .. كنيسة النخلة، وكنيسة النهر.. وكنيسة سرجيوس وكنيسة اصطفان..

مأدبا قامةُ المدنِ حضوراً وبهاء.. يسري فيها ماء الطهر رقراقاً تارةً، ويتحدر هادرا قويا يدبُّ فوق الأرض بركات وخيرا تارة أخرى.. كل شيء يأخذ وقته حد الجموح.. فبدءا من العصر الحديدي الأول وهي شاغلةٌ ومشغولةٌ تغرسُ ورد الأفياء.. وتسقيها سلسبيلها المنساح فوق الأرض.. تفرشها أجنحة بلون الفسيفساء انتظارا لميشع المؤابي.. فتطير نشوى في تجلياتها.. فليحرق العموريون منها ما شاءوا.. فما قتلوا وما أحرقوا ولكنه التشبه بالرماد تذروه نسائم أرنون في عيون أعدائها..

ويفيضُ بك الشوق مستعراً إذ تتلمَّسُ عتبات الزمان، وقد طغى المكان بهيبته وحضوره المجلي، ووشت بك أعنَّة الفضول، حينما أفردت لك مادبا ما اتسق من دلالتها في الاشتقاق اللغوي بأن يتدفق معنى آخر من معانيها حتى يكون اسمها، وقد تماهت وتماهى مع طيب أهلها وكرمهم، لتسمَّى زمنا آخر.. مادبا حيث التطور الدلالي للمفردة ثابت وعصي حتى يومنا.. مدينة الكروم والفواكه، ومدينة سلسبيل المياه.. فالجوهر هو آلاؤها وصفاؤها... بمعين ضيائها وصراطها للحقيقة، وقد أفضى المكان بروحانياته إلى تبتل الروح ولهفة الوجدان كي تسهم

في رسم الذاكرة ومعادلة الحاضر الغائب، حتى يصير دَربَها إحقاق عليائها وإشراقة طلتها لتجلوَ منذ الغابرين بعهودهم ألق الحقيقة، وتجلِّي مرادفاتها دونما حقد ولا بغضاء، بل خيلاء فواصلها أمكنة وأزمانا مباركة على جلال اللحظة فوق نيبو، وقد رف للفارق بين النون والكاف.. إذ كليم الله وقد رقّت جوانحه وسدا محبّوه، بأشهى من ورد الهوى طورا، وفيض الندى طورا آخر...

فها هم العرب الأنباط ينهضون إليها نشامى.. يعيدون لها بهاء عمارتها.. ويسوقون لها قوافل التجارة والظعائن .. وتفيض المراعي أنساما وأسفار عاشقين.. وتشرق عليها شموس الحضارات فتسقيها رحيق الروح في أثينا وروما.. ويتلمس درب الملوك خطوه ليمر بها متحدرا نحو أرنون..

لم تنطفئ في مادبا المباخر.. ولم تسكت تراتيم قديسيها.. ولم يهجرها الفرح .. فجعلت للتجلي أطواره.. وللأنوثة فرحها.. مادبا التي أعادت فسيفسائياتها ترتيب حروف الإلياذة.. وباحت لروما بأساطير المدن القديمة.. وكيف ينبغي لأخيل أن يكون.. فيا لفسيفساء مادبا وهي ترصد قصة اختطاف هيلين الفاتنة زوجة ملك إسبارطة منلاوس.. فَيَمْثُلُ سيد الفرسان في بلاد اليونان أخيل خالدا في فسيفساءها.. كما كان خالدا في إلياذة هوميروس. فمن حاك سفر المجد غير العرب في

مأدبا، ومن قنص أسراب الأماني.. ولملم غبار القرون، وأعاد ألواح الوصايا غير أحفادها.. فلم تكن مادبا البديل أبدا.. ودانت لها روما بذاك فحملت عملة روما اسمها، وعلت أسماء ملوكها وآلهتها في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، فها هو اسمها يقترن بعشتروت تارة وبالإمبراطور سبتيموس سيفيريوس تارة أخرى.

الحنين إلى مادبا توقٌ إلى الجنة.. وزخات المطر التي تهمي من مزن سمائها.. نبع الكوثر.. وحلاوة اليقين.. ننهل منه.. فلا تروينا إلا لذة الاستزادة..

في مادبا تتقاطر الذاكرة أحلاما شهية.. ونوارس اشتياق.. ورهافة حواس.. وقواميس معانٍ ضاقت عنها حروف الكلم.. فماذا سنكتب فيها وعنها؟ بأي مدادٍ نكتب عن كليم الله موسى؟.. وكيف نستحضر أخيل وقد هم بالثأر لصديقه الذي اغتالته طروادة في حربها الأسطورية.. وكيف نقرب المسافة بين طروادة ومكاور.. وفيهما الذبيحين؟ ... وقد تكفي قداسة الدنيا لشرعية اقتفاء النظرات الحرّى من موسى إلى قدس الأقداس؟.. ومن علم الفنان المادبوي أن يرسم على أرضياتها فسيفساء النهر وأضواء الدروب بين مدن الشرق وشاطئ المطلق ؟

مادبا.. سيدة الحلم.. ورعشة الانتشاء.. كلُّ الصباحات بهية.. وحين تطلعُ من مبسمها.. يرّف القلب على طلعتها ... ويغدو الصبح أحلى.

مادبا.. لحن الصباحات.. وأول الحروف في دفتر العشق.. كيف السبيلُ إلى عطرِ السؤال؟.. وكسر المُحال.. كيف السبيل إلى جَسْرِ المسافة؟ بينها وبين مدار الشوق إليها..

مادبا.. رحلة العمر.. وسحر الحضور.. وليفة الروح.. تحضر في ثواني العمر.. صبحاً وضحىً.. لم يكن وهما حضورك.. لاح مع ألف رسول.

مادبا هواك جموح العشق.. فإن أشاع العوسج أسرارنا.. فإنّا نستمطره في الدروب !.. انتشاءً ... وهياماً ... وعناداً ... وقَصاصاً لمسافات السنين.. فلعينيكِ انتباهُ الروح.. وارتسام الحرف.. وبوح الكلام.

مادبا .. شذا المسافات إلى كحل العيون.. وسوسن العمر في ربيع الأربعين .. فلعينيكِ ... يمامات عشقي ... ورسائلي التي أهديتها مرايا عاشقات.. وسفينتي التي يأوي إليها من كل زوجين اثنين ... ينداح شوقي إليك.. يباغتني الوجد ... أفتش عنك في بقايا ورقي.. أبحث عن عطرك العالق في الدروب.. أغالب ليل اشتياقي.. ويلهبني لاعج الشوق.. وتقترب روحي من باب روحكِ.. تستجير ...

البلقاء دحنون البراري ورقراق الجادور

"تذكرت شجوة القلب القريح فدمع العين منهل سفوح

ألا طرقتك بالبلقاء سلمى هدوّا، والمطيّ بنا جنوح

فبتُّ بها قرير العين حتى تكلم ناطق الصبح الفصيح"

نعم إنها البلقاء.. وهج الموعد.. وبسمة الأفق...

ولك أن تشتاق إليها، وتطوي المدى..

لمّة وردٍ..

بالحدقِ المتيم..

بالطائر الغريد،

بِحنوٍّ الحَدْبِ..

تبثك الوجد رقيقاً، ومزدحماً صاخباً..

بأمانيك العذاب..

برجعها الدفين..

حيث لا يتنكّب العمر، ولا يمضي الهوى مع مسمع لاهٍ، ولا ترن أوتارها وتشجو، إلا ما أوردتك موارد النور من أرجائها..

ولك أن تجازف بالقول والفعل، بلا وجل..

كما تصنع العزائم حيث تعدوك برشادها وجهادها..

إذ تُنْهِضُ الأفق رماحُ أبنائها وهم ينفرون خفافاً للعرب والعروبة...

إنهم الميامين، وقد ثاروا للحق، فهاجت لهم السُّحب صهيلا..

حيث صدرها منذ أن نظمت الحبَّ والقصيدة.. زمانا شامخا أبيا..

ناضل الليل ونازله، لتهتف لها المعاقل، وتميد الأرض تحت أقدامهم..

ولك أن تجمع معلقاتك كلها؛

معلقة الفخر والسلاح والرؤى..

معلقة الصمود والإبداع..

معلقة استشراف القادم المشرق من أحقابها..

وكأنها تنادي الوغى والردى إلى حومة البأس والحياض...

هي السلط.. والعهد.. والوعد.. والفلاح..

السلط التي ما جحدت عروبتها.. وما تثلّم سيفها..

وقد رقَّ نسيمها، فتسابق إليها الشعراء والعشاق..

ألا إنها السلط والبلقاء..

في فلق الصبح..

في جلال الوصل..

صقالها، ونصالها..

ومضمراتها المحجّلة الجامحة ..

ومَنْ يعلم بأن المتنبي ما قال بيته المشهور إلا لها، فدّوى في بلقائها:

"الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس القلم"

هي البلقاء.. وقد فاض هطلها..

وسحّ نداها على مفارش طيبها..

وسندسها الباهي..

وأخضرها بمراشفه الزاهية ...

هي البلقاء..

لم تكتم أنفاسها..

ولم يكن زنادها إلا مهد صفائها.. وبهائها.. ونمائها..

ووارف عطرها..

ولتقطع الدجى، بشفارها..

وضبح مسافاتها قبل خيولها..

إذ نشبَ الخطبُ ونادى المنادي.

أورثت ذرى السلط ومرتفعاتها أهلها الشمم وعلو الهمة،

وكانت الطبيعة تتناغم إبداعا إلهيا مع انسجام الصخر والشجر،

وبين علو وغور.

وهي التي تزاحمت على بواباتها المفردات:

سالتوس، وسالتا، والصلت، والسلط..

شرفَ انتسابٍ لمدينة العلم والنور.. فامتد ذلك أحقابا مبتداها العصور الكلاسيكية، وعصور ما قبل الإسلام، مرورا بعهدي الأيوبيين والمماليك حتى يومنا هذا.

ذكرها شيخ الربوة الدمشقي باسمها الحالي، السلط، بيد أنها في مصادر من سبقوه الصلت، وهي في كلاهما تحاكي أصلها الاشتقاقي اللاتيني سالتا أو سالتوس.

ولئن قسا صخر السلط وصَلُب، فقد حاكى صلابة رجالها، وقوة عزيمتهم، وَهُمُ الرحماء بينهم، يغلظُ سوطُهم ويشتدُ على من خاصمهم، وتعلو غضبتهم البلقاوية، غضبة مضرية، وإن دعا داعي الحمى.

ولئن تكاثف الشجر وادهمَّ في وادي السلط، فَمنْ غيرُ البلقاويين جَزُلَ عطاءً، وأي أفياء غير أفيائهم كانت موئل الأهل وأبناء العمومة والعروبة؟

على عتبات السلط يعشعش الصفصاف،

وتتفتح الذاكرة أبوابا مشرعة على مقامات الأنبياء والصالحين،

وكل انغراز أوجاعهم، وقد احتشد عليهم أقوامهم لا لهم،

فكان شعيب، ويوشع بن نون وجاد،

شهود الربى وهي تقرأ عليهم السلام.. بعد أن أنكر المدينيون وأبناء الأفاعي عليهم مزاميرهم، وشرعتهم.

البلقاء وقد شابهتها العاديات

بضبحها ومثار نقعها

وقدح الشرر في ميداين طرادها،

لترمح فيها الأصائل شوقا وتيها.

وقد عجت دروبها بدندنات صباياها،

شجىً يرد الروح عن شواردها..

مع نسائم زيٍّ وهي تهدهد السنابل والكروم.

البلقاء.. دفتر ينسكب عطر الكلم بين دفتيه..

وتشعل القناديل فتيل الحرف..

وتترتل في أعاليها أَنْ اقرأ وربك الأكرم..

فكانت شراع الأردنيين نحو دروب المعرفة..

وفك أسرار المدى،

والندى،

ومفردات الحكايا،

وغضار السنين.

وينهمر استبرق البيوت السلطية العتيقة حاملا الصبح ميلاد

فجر.. وبهاء ضياء.. وحروفا أبجدية.. وتسابيح روح تدفع الشوق امتدادا بين دحنون براريها ورقراق الجادور.

فلعمرو بن لحي طقوس الاستشفاء والاستسقاء .. ومَسوحِ الزيت البلقاوي مدعوقا ببخور الدروب من مأرب حتى شطآن كنعان.. فاحمل يا عمرو ما شئت من حجارتها خصبا، وكنه نور، وتطواف أحلام ومدارات.. وانصب ما شئت منها قُلَّيسك فوق غَبّاغِبِها، فمن أقحوان البراري، وتاج الشقائق، وزهر الأقاحي في بلق الأرض، تطير الحمائم إلى أم القرى، لتلقي السلام، وتنثر السوسن في دروبها، وتصغي السمع إلى قرآن فجرها.. والفتح المبين.

أضرحة الصحابة

أعلام صدق فوق الأرض الطهور

ما أن تغذَّ السير منحدراً إلى الغور حتى تجيش بك المشاعر حرّى، وأنت تقلب فؤادك حيث عبق التاريخ وأصالته، واتقاد العزائم مستحثة ألقها، إذ تختصر المسافة بالشهادة والدم الطاهر الزكي وقد صلى الشهداء وابتهلوا إلى الله أن يكون جزاء نهجهم وصدق أنفاسهم شهادة أن لا إله إلا الله وفوح الجنة... منادين أرجَها وقد اشتدت ريح أعدائهم..إنهم صحابته الأجلاء.. عليهم السلام والرحمة.. شاهدوا عصورا من الظلمة والابتلاء.. من عمار بن ياسر، إلى بلال الحبشي وسلمان وصهيب وغيرهم من كوكبة الطهر.. منذ أول حرف في مسودة ظلمات قبائل الصحراء والعطش.. ورملها المتقلب على الوجوه والأفئدة سعير نار تَفُحُّ سمّها في أثير الكون.. مُرخية طعنها.. تتناوش فقراءها بالجوع والعطش، وهم الملأى قلوبهم بفيض من الأمل بالشهادة في سبيل الله، وبين قافيتين، العدل والشهادة.

تنشق الحروف منشدة وهج الروح بمواكبها.. لا حباً في تفاخر مجد، ولا تأطيرا لنازع استباح الصدور وخلجاتها... إنه الفتح.. الفتح المبين، فما الذي يجعل تلك المواكب تنثال كالنور ما أقعدتها عن مرادها

تيجان الأباطرة أو رماح الظلم والخطايا!

ما الذي يجعل هؤلاء النفر قليل العدة والعدد منطلقا ترفرف راياته خفاقة عالية وقد أقسموا أن لا إله إلا اللّه وأن الإسلام شريعة العدل رضي من رضي وأنكر من أنكر...

ونستقرئ الوعي قبل حوادث الأيام وسجلاتها وثناياها... وتستقرئ الروح تلك الألوف القليلة، وقد حشد لها أعداؤها من كل حدب وصوب .. حتى يصير الغمام قذائف لهب ونار.. وتصير الوديان قمما من الغضب ثم تفر الأرض تحت وقع الخطى وسنابك الخيل وقد عقد في نواصيها الخير إلى يوم القيامة...

وها هو الغور شاهد الزمان ماضيه وحاضره وغده القريب البعيد.. وقد جلّله معاذ وعامر بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والقائمة تطول.. إذ تصف لك السرايا خطرات وخفرات الروع بين تلك الآلاف المؤلفة من الروم والتتار وغيرهم.. لا ناصرة مظلوم ولا درب صدق ووعد، بل مغتصبة أرض الديانات وفحوى الوجود.. أيمكن...؟ والصورة ما عليها أن تطوى أعمدة الحق والنور وراية الفتح وقول العزيز منهج حياةٍ.. وصدقَ الصول لحظة بعد أخرى...، وقد تلقّفتها ملائكة الخير بكتائبها تمدهم بالغوث وكأس الشهادة يَبُلُّ الجوارح وصدى العروق.. وقد طوت الأماني أشرعتها إلا أمنية الشهادة في سبيل اللّه.. فهو برء الجُرح

وبلسم النفوس... فلم تقفر بهؤلاء الكرام بما ينوف عما أقفرت من قبل، ولا حاكت لهم الأيام طول الجزيرة وعرضها أشدَّ عماية مما لو أرقلوا الظعن ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بين ظهرانيهم، وإن بعدت الشقة والمسافة بين مكة والمدينة من جانب، وبينها وبين مؤتة والغور؛ المروي بما ارتقت حلبات النزال لتحدث أخبارها الأجيال، وتجعل فيها كوكب الساري، فيشترون الآخرة غالية بحياكهم، وهي التي بدنياها ما عدلت مثقال ذرة عند اللّه، إنهم سيوف الحق والرؤيا بتلاطم أمواج وأفواج الجحود والتجبر.. وكشف ما أضمرت جيوش الغزو والضلال لتكشف سيوف النصر مشارف عمواس وسهل ابن عامر داقة أبواب القدس وخليل الرحمن...

وها هي البيئة الإيمانية تنتشر فوق الأرض الطهور.. تعكس عقائد صادقة.. وصفحات تاريخ مشرق.. وملامح بطولات وتضحيات سطرها الأُولَى على صفحات تاريخ الوطن المفتدى بالعزيز.. ففي كل النواحي والأرجاء ثمة ما يمنح التفرد والطهر وعلو الشأن.. وثمة ما يستوقف الباحث عن كنه الحقيقة.. حقيقة أن هذا الوطن مهوى القلوب المؤمنة.. وحقيقة أنه إلحاح الدعاء سرا ونجوى بكسب الجنان.. وشيوع الأمان بكل أركانه الاجتماعية والدينية والثقافية وحتى السياسية..

وفي الأردن ما يستحق التبتل والاستشفاع والزيارة.. ينشده المؤمنون

في طريقهم إلى أولى القبلتين.. والحجيج إلى بيت اللّه الحرام.. وفي الأردن ما يحدو إلى الشوق والمحبة.. ولك أن تكون مريدا لأي من صحابة رسول اللّه عليه السلام في الغور والنجود والبطاح.. ففي كل ركن من أركان الوطن يرقد نبي أو صحابي أو ولي .. ولك أن تذهب في وجدك وشوقك إلى غاية المنتهى.. سكينة.. وأمنة.. وخشوعا.

هو الأردن إذاً.. بلد يفيض كرامات ونفحات.. تلمسناها.. وقد شهد عليها الزمان في انتصارات مؤتة واليرموك والكرامة وفحل..

وها هي مؤتة تحتضن جعفرا الطيار.. "ميمون النقية والأزهر".. ابن عم سيد البشرية.. الذي ارتقى بجناحية من على أرض الأردن "أغرّ كضوء البدر" شهيدا إلى "الجنان، وملتف الحدائق".. وها هو الغمام المسبل يسقي تلك الأعظم الطاهرة من يوم مؤتة إلى يوم الدين.. فهنيئا لمؤتة هذا الشرف بمقام جعفر سرمديا فيها، وهو الذي قال فيه الرسول علية السلام حين استقبله يوم فتح خيبر: "ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً بقدوم جعفر أم بفتح خيبر ".. فأي شرف قد تأصل في مؤاب بجعفر وابن رواحة وزيد بن حارثة.. سادة الشهداء.. وأعلام المجاهدين.. وقد ضمت سهول مؤتة معهم الشهداء الطاهرين.. عامر وعمرو ابنا سعيد بن الحارث ومسعود بن الأوس ووهب بن سعد بن أبي سرح وحارثة بن النعمان وسراقة بن عمرو بن عطية وعباد بن قيس

وأبو كليب وجابر ابنا عمرو بن زيد وغيرهم حتى نافوا على السبعين من صحابة الرسول عليه السلام .. وقد نال الوطن شمالية وجنوبه شرف التخضب بدم الشهداء الصحابة، ففي شمال الأردن يرقد في سوم شمالي إربد قاضي بلاد الشام والصحابي الجليل أبو الدرداء عويمر بن مالك الخزرجي الأنصاري، وفي الأغوار الشمالية ينبثق النور من مقامات عبد الرحمن بن عوف، وأبي سليمان الدارمي، ومعاذ بن جبل، وضرار بن الأزور وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة.. وعامر بن أبي وقاص رضوان الله عليهم.

فمن بوابة الأردن ندخل إلى فضاء الربيع والآمال والصلوات.. فالوطن أول امتداد الأخضر المطرز بالورود والرياحين.. وأول انبعاث حضارات الشرق ونشوء مدائن الاستقرار.. وأول النور السماوي الذي اقتسمه العالم أدياناً تمجد ربا واحدا.. وتدعو الخلق لفجر واحد مداه الكون المطلق زمانا ومكاناً.. وقد ظل شهوده الأنبياء والشهداء.. موسى وعيسى ويحيى وإلياس وهارون.. وصاحب السفينة نوح عليه وعليهم السلام.. وقد تصعد النور في الأفق شلالات تنبع من مقامات وأضرحة الصحابة في شمال وجنوب ووسط الوطن.. وما دماء تلك الكوكبة غير ما نرى تَلويحُهُ شفقا وغسقا.. فسلام على الأردن مشرق الشمس وسلام مع مغربها.. حيث تستحيل الأرض أقاحين ونواراً يطفح بالأفق..

وينبعث من حنايا بيوتات وطني شعاع يلامس السماك تسامياً وعلواً .. ويترقرق النهر سلسبيلا عذبا يتهادى خريره وداعة وخفرا من أنبياء اللّه وصحابة رسوله والأولياء الراقدين هديل طهر.. وسنا ضياء.. وأفق بهاء.

فيا أيها الوطن

الذي يضم بين حناياه كل هذا الطهر

والعبق

وريح الجنة،

أطلق خيول المجد تقطف أحلام الأزل..

زَهِّر دروب الروح نحو الجنان..

وبح بأسرار السوسن توشوش نجم الصباح..

اسكب الشوق أنهارا..

وعطر الأفق في الخافقين..

يحلو لك الزهو..

والوقت..

والشهداء..

والأنبياء..

وتفتح الفل ونفح الياسمين..

المغطس

طُهْرُ النهر وقَداسةُ المكان

أجراس النهر تدعو الحيارى، وتُشَرِّع لهم الأبوابَ نحو صفاء الروح، وَتحَدرِها نحو الشريعة، حيث يلتقي على طُهر مائها الأنبياء والقديسون،

فحيثما كان الماء كانت الحياة.. وكان الحلم مشبوبا، بأزمان هذا النهر، روحاً عربيةً ومدىً إنسانياً كونيا. وقد تسابق دفقه ليغسل درن الأحقاب وسنين طغيان الجبابرة العتاة، فينغدق ماء الأردن طهراً على الغرقى بأدران العيش.. المشتعلة ضمائرهم حمأً مسنونا.

يتحدر النهر سريعا يخالط ملح الأرض.. فترتفع قامات الدفلى ريانةً جذلى،

تَسْكُنُها الروحُ بأمر ربها.. تحمل الوعد بمولود جديد..

وما أن تهبط إلى ذلك الموقع حتى تتجاذبك نوازعٌ لم تُلْقِ ظِلّها وتمضي، بل تلمس الحقيقة .. حقيقة الكون والخلق.. بصورة أخرى تشي بك، ويكلِّمُك فؤادها، حيث القامات في ظلِّ عُلاً أرادته ضافي الوشاح من نبع صفاً، سماحةً وخلقاً فكان المكان بُعداً أخلاقيا، بَعْدَ، نبوةٍ فياضةٍ صافٍ ثراها مثل مائها..

فيا أيتها المجدلية رويدك..

واخلعي نعليك..

واسكني المحراب ..

فالذي سكن الجسد البتول روح القدس.

ويا أيها المتحدر سريعا نحو فردوس الدروب..

يا أيها العارج من تلافيفها صوب السماء..

يا مَن تأخذك الترانيم المُصَّعّدَةُ نحو الأفلاكِ السابحةِ

تباشيرَ فرحٍ،

تسترجِعُ همسَ الطُّهر في الكلمات،

وَتُفَصِّلُ القولَ في الحروف..

بين ألفٍ ونون..

تسبح في ملكوت الله؛ فوق النهر،

وطهر الأرض،

ودروب الأنبياء..

هنا مأوى يحيى، وإلياس.. ومهوى فؤاد المسيح، تشتاقه الأرواح والنفوس، متنكبة طيبةً بوميضٍ مُؤتلقٍ، وبجناحين طويا الغائب قبل طي الحاضر. ها هو وادي الخرار يتورد تحت أقدام يحيى،

وهو ينهض من مرايا الكهف،

صاعداً،

وداعة نبي، نحو مكاور،

يرتقي شمساً،

وينهض سنبلة قمح،

ويتسامى قديساً،

ويمضي، لا يلوي على جنبٍ،

جليلاً راقهُ أن ترتوي الأرض بتراتيل الدم..

وهديل الروح الذي يمنح الحضور للمكان على المدى..

رغم بروز ذاك الزمان الكسيح على طبق لسالومي.

هي القداسةُ تلكَ الهالةُ التي ترفرف فوق كهف يوحنا على مدى الحقب.. وأجنحةُ السلام.. وأغصانُ الشجر المتشابكة والمعمدان.

أنه وادي الخرار أصيلا وضحى..

يأسرك الشوق ماضياً

مُخضّباً لدم المسيح وبدمه،

في كل خطوة يُرَدِّدُ الرجع نشيداً منهج خير ووئام،

والأرض توشك أن تنداح تحت قدميه،

مباركة خطاه،

ومبارك ثراه،

ومباركة أحقابه الأولى واللاحقة

"ما تملَّت من يأس..

ولا لاح بها سقمُ"..

إذ ينتقلُ بخطوٍ تئدٍ بين مساحات الروح،

وحقيقة الجسد في خضم الموعد،

بمهره الجامح،

وشجو الحوادث،

حائرة الدمع ومشدودة العياف،

باقةُ مجدٍ مفوّفاً عبيرها،

إذ يرويها ويبُلُّ صداها

جفن الفلاة

وسلسبيل الأمان...

يا مسك الأرض الغضبى ..

وأنين الدروب..

أيها الدَّمُ المراقُ على عتبات الكهوف..

أَقْلَعَ أنبياؤك على بُسُطِ النار صوب السماء..

وقد هالهم ركام البغاث ..

فيا إلياس تمهل،

أي غابة غضة تلك التي تبحث عنها..

هنا وطني؛

أرض ..

وأنبياء..

وناس.

يا أيها البشير.. يا من تعلو الروابي بالمرسلات نبياً يتوق للقيا نبي.. يا من توضأت بالشمس التي تزنر كهفك والنهر.. أي الطرقات تلك التي تُصلّي على وقع خُطاك نحو مار إلياس. أيتها الأرض التي تتنفس الطُّهرَ، غوراً ونجِادا، لم يتعب التاريخ وهو يرصد مجدك على عتبات السنين الماضيات.. ويرصد زهوك في الآيبات.. فها هي صافِيات اليَنابيعِ.. تنساب صوب الكهف.. تروي شجر البردي والدفلى.. ترتشف النور اقترابا من نبي اللّه يحيى.

وعلى مقربة حيث يتلاقى التاريخ بصانعيه، وترتمي أعنَّةُ الفرح كلما حان لقاؤها متناهيا بعدها على القرب، وقربها من بعيد طافح بالنبوة وسحر البيان.. مُفترٌّ البسمة بلا أجلٍ، وقد مُدَّ هامها فأضحى رُسُلا من قبلُ ورسلاً من بعدُ...

كم تشطُّ المسافةُ، وكم تقترب من تضاعيف الوقت، وقد تهادى ثراه، بأنبيائه ورسله حيث الحقيقة، وقد شدَّ سحْرُها حجى البشرية

كلها بخدين صباحاتها ومساءاتها، وهي تنتقل بين زهو الربى لذراعي الغور وتل الأربعين وزورة القلوب، وعلى مقربة من الكرامة منتشيا وقد ضم في أهدابه نبيا يدفق الحنان والطيب والسماحة من جانحيه، مباركا لها وفيها دون وحشة الوادي، وقد ساجلته الزمان فوفّى له ووفّى به...

يا أيها النهر الذي ينتظمُ الوطن رهافة أنغام،

ويرسمُهُ خرائطَ حافلةٍ بالحلم..

ومُخضَّر الآمال،

يغرس فوق كل شاهق فيه

سموَّ بيارق..

يمنحُ لنسوره وبواشقه إيقاع رحلته

فوق ذراه.

يكتب أسماء ربوعه

أبواب فجر..

وأسرار قداسة..

لقد منحت الأرض بين مغارة يوحنا وبيت عنيا فضاء ليلكياً وشلالات ضوء، وكسوتها ما بين دير صفصفا وهضبة صعود إلياس جدائل كروم وسرمديات نهوض للمعالي.. فأيُّ ملامحٍ تلك التي رسمت

خارطة الفسيفساء في مأدبا، وقد جعلت المغطس وجواره موطن الغمام والنوارس، والتقاء الربانيين في صوامعهم وأديرتهم، فاستحال المكان قبسا من نور يسطع على النهر بضفتيه، ويصعد ومضا يعانق نجم السماء.

ها هو وادي المعجزات.. ونهر الأنبياء يتحدر سريعا من الأعالي نحو المجدلية أم الكليم.. يتحدر من هناك يفصل الزمن، ويرسم حدودا للأرض بين طهر الشرق وبين رجس هيرود.. في زمن الرذيلة ذاك.. كانت الأرض ترتدي ثوب الغضب، ليولد ذلك الطفل الذي هزَّ عرش روما.. فأي بشارة سيلقى الكليم .. حين يقابل يحيى.. الذي وعى سر خَلْقِهِ.. فاستحال راشداً.. وقد اطوَّف بين قومه.. ينشر الحلم:

لا تفتروا..

اطعموا الجياع..

واكسوا العرايا ..

لا تقتلوا إخوانكم بنسائهم..

فيا هيرودوس ألا تدرك حجم النور الذي يعتمر قلب يحيى.. أيخاف سجنك؟

سالومي..

عرّابة الفاجرات

والراقصات العرايا..

ابنة هيروديا خائنة زوجها،

غاوية هيرودوس

المخمور

المفتون بتلوي الأفاعي،

وروان النبيذ،

يلتقون على طبق من ذهب وسيف..

والمطلوب رأس نبيٍ مهراً للفجور..

قتلته يد الرذيلة..

فشح سراج الهداية

وأوحش الغسق..

وصارت الكهوف تطفح في صفصفا بالذكريات التي جاوزت تخوم اجترار الحزن..

فيا طهر الرأس

ويا شموخ الجسد..

يحيى الفعل المضارع في الأرض

وفي السماء

"سيدا وحصورا"..

وهو على الأرض الطهور يحفر السنين والقرون بشارات بقدوم عيسى.. وهو على يقين بأن النهر وشجر الدفلى وملح الأرض سيلقون على القادم سلاما ليوم مولده وبعثه.. وتحمله الأرض أغنية على ثغر التبسم وأحضان الأمل.

فماذا على ضفاف النهر غير الجراد وعسل البراري أداماً للأوابين والقديسين والأنبياء.. والشهداء؟.. لكنه المجد والسلام من مكاور إلى حجابات الصحابة الكرام، وتلابيب الكتار، وأبطال التاريخ من الأردنيين يُكمِلون المسيرة فرسخا بأخيه. فمنه انطلق العاصف الوثاب، واللواء الخافق، وخضاب الجرح طائرا غريداً، هام على جناح النبوة، وأبطال الأردن من سرايا شرحبيل ومعاذ وعبد اللّه بن رواحة .. أعلام صدق يكملون مسيرة مسيح الورى والفضاءات بصحو الضمير ولحن الزمان، مشنونةً بمدارك التفكير، وبسيفي النبوة والدعة، كلما ضمّ الصدرُ جوى الذكرى، وقبابُ القدس تستصرخُ خيولَ الفتح، وصوت بلال "اللّه أكبر.. اللّه أكبر"، وعلى ضفة القلب بالكفرين والشونة، إذ لا عرين إلا بالأسود.. ولا كشف لسر غامض إلا بالإيمان وصدق الرؤى والعزم وقبلة الوحي.. هوىً في الفضاء، وهوىً على الذرى.. يَمخُر السنين بين ألق الرّوح وعنفوان المجد ليكتب الزمان تاريخ نهره وواديه.. ميلاده وهجرته..

الكرامة

"إن لله جنودا ... إذا أرادوا أراد"

في يوم الكرامة تاهت الأرض تحت سراتها .. وشاع الهوى على ضفتي النهر.. وغنى شجر الدفلى.. وكانت الخيل تجمح في الصدور وتعدو في الآفاق.. وقد طاب اللقاء.. وطابت المنازل.. فكان بكر الندى في ذلك الصباح الأردني .. يصعد فيه الشهداء بعد أن رَوَوا أرضه عطراً ودماً.. في ذلك النهار وهبت الحياة نداها وعلا نشيدها .. وهشت الربوات شذى وطيبا.

وفي ذلك اليوم سجل التاريخ أن الأردنيين على كرامةٍ وعزّة، وسجّل في أسفاره، أن الكرامة، والسويمة، والرامة، والكفرين، قرائن أفعالٍ خارقة، أظهرها الله على أيدي نشامى الوطن، فمنهم من تنسّم عبير الجنة، وزفّته ملائكة السماء في مواكب أحبة الله، فاصّعدت أرواحهم الطاهرة إلى باريها... فكانت كوكبة الشهداء: مصطفى الترك، ناصر الخوالدة، عواد علي، حسني حسين، سليمان خليل، حامد اللصاصمة، حميد صدف، محمد الرقاد، سليم محمد، علي بخيت، محمد محمود، نابل سلمان، اشتيان الصرايرة، مسلم المطارنة، محمد سالم، كريم الزيود، خضر يعقوب، وعبدالله مسلم.

وفي ذلك اليوم سجلت المعجميات القديمة أن الرامة تعني المكان العالي، تخيّره الأبطال الأردنيون قرينة نصر وشهادة، فكان لهم ما أرادوا من نصر وكان لهم فيها اقتراب الجنة، وصحبة شرحبيل ومعاذ والجراح، وكان اللون لون الدم والريح ريح المسك، وتنزلت ملائكة السماء مددا مُردفين ... تاق أهل الكرامة لرؤيتهم ... فكان لهم ما أرادوا! عندها سام الأبطالُ الأردنيون الأعداءَ في السويمة مُر العذاب، وظل ملح أرضها يذكي جرح الهزيمة وخيبة الرجاء للمعتدي إلى يوم الدين.

أيتها الكرامة ... يا ساح الرهان .. ومشهد روع العدا ... ومدى النيران .. وذروة الحلم ... فيك تهادينا الشوق والقبلا .. وقد عبرت كتائب النصر وهي تنتضي السيوف وتعلي هامات الرجال تطوي السهول وتفتدي الحمى.

أيتها الكرامة.. يا تَوقَنا لعبق البارود... وقصص النصر الخالدات.. فحينما تنسم الشهداء فيكِ اقتراب الجنة.. صار النهر يطفح كوثرا ... واصطفت الملائك للصلاة ... فكان يوم نحر ... وانقطع دابر الشانئين... فحين شاءت الكرامة أشاعت في والنجود والأغوار، أن الكلمة في ساح الوغى وطن ... وأن الموقفَ بابُ العالمِ لإحدى الحسنيين. ففي صباح الحادي والعشرين من آذار الخير نادى

المنادي أن يا خيل اللّه اركبي، فلبى نشامى الجيش العربي النداء... يتقدمهم الحسين، طيب اللّه ثراه، وقد ظل رجع نِداه في الليلة الأخيرة من عام سبعة وستين ملء الأسماع: ... إن للّه جنوداً إذا أرادوا أراد.

البحر الميت

البحيرة المقلوبة.. بحيرة زُغَر

في ذلك المنخفض السحيق تلهبك مسافة البحث عن الحقيقة.. ويروقك سماع سرد الخرافة.. تغفو هناك مواعيد القرون الغابرة التي بعثرت الحلم رمادا.. حيث ادرك الإنسان المحاججة.. وانهيار جدر الوهم.. فهنالك صفحة النهايات.. واقتراب الكلام من الفعل وصورته. هناك تركت الارض العالم يسقط ويغور بآثامه.. مدن ذهبت لم تترك خلفها سوى بقايا حكاياها.. ليولد حضور المدائن الذاهلة المزنرة بالتوبة.. مدن تبحث في دربها عن الحياة.. فبدت كأنها أول العالم وآخر النهايات..

استفاقت في البحر الميت محطات حث الخطى.. نحوها أو بعداً عنها.. ففعل حث الخطى هناك لا يعلن الضياع بين الإقبال والإدبار.. إنه الفصل بين الخطيئة والتكفير.. فما الذي تستطيعة الكلمات في حضرة المكان وعبرة التاريخ.. وأي سحرٍ وجودي تراءى في قصص الأيام الخوالي.. وغفا جوار سدوم وعمورة.. أهو الأنخساف متخلياً عن ارتفاعه ليزرع بالقار خلود الجسد..؟

في حضرة هذا السكون الوقور.. في حضور لوط والقصص تتراءى اللغات بعضاً من صمم.. فها هي الغيرة تأكل أقلامنا توقا لأسرار

البحر.. و ها هو يدغدغ البوح في الدواخل..

سيدي البحر.. ها نحن نشرع أبواب الحكايا.. نضمّ لحاف هذا الجمال على جسد صفحات بيضاء.. علها تزغرد ببعضٍ من فرح.. فما الذي يمكن لي أن أقوله في حضرتك؟.. وأي شرفٍ عظيمٍ نناله لحظة الكتابة.. فلمثل هذا الجمال خلقت الكلمات ... فسلام لروح أنبيائك المتألقة بالروعة والجمال.. والغفران.

في حضرة ذلك المساء.. كان الليل في سكنه.. والقمر بهي في كينونته.. والسماء أكثر ما تكون صفاء.. وموجات البحر نائمة.. وادعة.. أضاءت قناديلها لي وحدي...

ليلتها كنا أربعة؛ أنا.. والبحر.. والقمر.. ومروري العابر.. كان مروراً فقط.. سفر يسابق باكورة الصباح.. وتمنٍ لحظة ذاك ورجاء..!

ليلتها.. وفي هدأة البحر.. كان القمر أجمل ما يكون.. وكانت الأرض أجمل ما تكون.. وليست صدفة أن يكون البحر والقمر في فلك واحد.. وعلى ذات المدار.. وأنا ارقبهما في علياهما.. واستدارة عجلات تذهب بي بعيدا عن أفلاك تسبح تكاد تلتقي...

لا أفتأ أذكر بحنين طافح بالدهشة صورة البحر والقمر.. والأرض.. تلك التي عاودتها تبتلا وضراعة.. أنشدت لها كل مزامير

داوود والغجر.. هي تسكن في القرار.. لها الظل العالي بين الفلك تسبح تلك التي تراءت لي في ذات ليل.. في ذات بدر.. في ذات مكان.. وهل غير الوطن؟!!!

تلاقينا.. لم ننبس ببنت شفة.. كان حضورا بتوليا واكتفيت.. طيف يعاودني دون سأم.. صوره الليل.. أمام شرفته.. قبالة شرفة القمر.. جمهرة النساء وجمر الهوى..

شرقي هو البحر، دون شك.. ويعرفني، لا محالة.. ويخال له كل ذات قمر لون التي أقلتني عبر الطريق منه وإليه.. ولا يفتأ يذكر عمر قمر تلك الليلة.. وإلا فما معنى أنه يراودني عن نفسي كلما عانقتني المدن والبحار؟.. وكلما لاح طيف وطن؟.. وكلما حزمت حقائب السفر؟.. ليست سوى شرفة الوادي سكنت ذاكرتي.. صارت مدلاجي إلى قمر البحر.. وليل الوادي.. وامرأة الملح.. تساومني منذ عقود أربع على عروش الذاكرة؟!!!

كل شيء.. يمر.. يعبر.. يمضي.. يبتعد.. يتلاشى إلا الوطن.. يحضر ذات الحضور والدهشة.. وقد صار حورية الفكرة، واستحالة شتات الذاكرة.. تناهى فوق عرش الأشياء.. وقارب كثيرا بين الوهم وبيني.. وبين المخيال وخيالي.. فعندما يغدو الكائن فكرة يخلد سرمدا.. وحين يفترش الحب عطر الياسمين تستحيل الأرض شرنقة الانعتاق

والهوى.. ويرقى الكون معارجه صوب البحر..! فالحب بعض صفائه.. والليل بعض زبد..

هناك على مقربة من اللسان مقام نبي.. يحرس البحر من سفحه.. يطل على مدن الحكاية.. أدمة وصغر وسدوم وعمورة. ففي اللغة أدم أدما و أدمة اشتدت سمرته وهو معنى ملائم للون التربة في منطقة البحر الميت.. والتي تستخدم إلى يومنا مادة لعلاج الامراض الجلدية. وصغر، وهي صوعر التروراتية وزغر في المصادر الاسلامية.. وسدوم وعمورة.. عُرف البحر باسمه.. حيث موطنه.. وقد آوى إلى جبل يعصمه بإذن ربه من الخسف..

وسدوم وسدوم من صدم.. وهو في العربية الندم والهم والحزن، فهو سادم ونادم، ومياه سُدم وأسدام متغيرة.. وسُدُوم وسَدوم مندفق.. والسديم الماء، وسدوم مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له سَدُوم؛

قال الشاعر:

كذلك قَومُ لوطٍ حين أَمْسَوْا كعَصْفٍ، في سَدُومِهِمُ، رَميمِ

وعرف البحر باسم البحيرة المالحة وفيه معادن تستشفى بها منذ قرون ما قبل الميلاد وقد استخرج العرب الانباط منه القار وصدروه إلى مصر لصناعة السفن ومادة من مواد التحنيط.. وقد سمتها المصادر

العربية القديمة الحُمَرَة، أو الحُمّر يلقحون به كروم فلسطين والنخل كما يذكر الاصطخري.

وعرف بأسمي البحيرة المنتنة والبحيرة الميتة.. لأنه لا حيوان فيها ولا سمك.. ومن أسمائه البحيرة المقلوبة وبحيرة سادم وعمورة

وتعرف ببحيرة صغر نسبة الى مدينة من مدن لوط.. والمعروفة في المصادر التروراتية صوعر والاسلامية زُغَر.. وهي في الساميات تحاكي كلمة صغر في العربية.

فأل حسن أن ترى فيما يرى النائم امرأة تملأ الأفق عن يمينك.. امرأة بكامل أنوثتها.. وزينتها.. وحليها وعطرها.. تراها هناك في الأعالي تنظر صوبك.. تغتال الحضور تتناسل أطيافا.. وحبورا.. وتسابيح كهان حاروا في تفسير رؤياك.. أهي تلك التي سكنتنك والوادي..؟ أم ذاك البوح وتماهي الروح والجسد؟!.. كل يأخذ شكل القداسة والشرعنة.. ويطفو سديما فوق الأرض.. تتخلق الأشياء شيئا فشيئا.. فيكون الهواء والماء.. الضوء والعتمة.. الأرض والسماء.. كلانا.... صورتا اللهفة ودهشة الروح في لقيا الحبيب....!!! فالقاسم بيني وبين العالم تلك الربى والوهاد.. فأنا حين أكتب ويحضرني المداد والفكرة.. أسكن محرابها.. يملأني الفيض الصوفي.. تستحيل الأرض والفكرة والذاكرة والخطاب والكلمات بلاد.. بلادي.. أكتبها

كيف أشاء.. أكسوها.. أرسم غدران جدائلها.. وكحل عينيها.. أعيدها سيرتها الأولى على ورقي.. عذراء.. وحدي من يهبها بذرة التكوين.. فأعيد تشكيلها وفق مشيئة النشأة والانتساب.. أرضاً عربية!

جدارا

أُمُّ قَيس، إمكيس أمْ مُكُوس؟

تنثال الذكريات في ربوع أم قيس مُبْكِراتُ ندىً..

تمنح الأرض خصباً.. وشلال بِذار ..

هي بوابة التوق لِعَذْبِ الإياب..

ودرب البراري الجميل..

وتحنان الخطى..

تبوح زرقة حجارتها بحكمة فلاسفتها، فها هو أرابيوس يسكب روحه لكل العابرين:

"أيها المار من هنا

إليك أقول:

كما أنت الآن كنت أنا،

وكما أنا الآن ستكون أنت،

تمتع بالحياة

فإنك فان".

وكأنما وقف أرابيوس في القرن الرابع قبل لميلاد مستغيثا إطلاق العنان للفرح، ليعلن في غيابه الحضور.

أم قيس

سيدة مدائن العشق..

ما هجرها الفرح..

ولا تيبس عود الزهر فيها..

ولم تسكت أحاديث السمار في ليلاليها العذاب.

أم قيس.. مدينة تقرئ الدنيا السلام.. وتلقي عليها التحايا ما مرَّ بها بشر.. أشرعت نوافذ الفرح للآراميين والفينيقيين واليونانيين، تهديم تحاياها وأمنيات طول البقاء. فالعبارات التي انفلتت من ميلاغروس حنينا ظلت مشبوبة لتلقى الحنين.. فنقش على عالم الحجر الأزرق خبايا روحه.. ليتناهى النداء مسامع كل من مر بقبره في جدارا، فاستيقظت الدروب على أثير الكلمات:

"إن كنت سورياً، فلك مني تحية، وإن كنت فينيقياً، فلتعش يا سيّدي، وإن كنت يونانياً فأتمنى لك الصحة، وأما أنت، فأجب على التحية بمثلها."

إنَّ الذاكرة التي نجسدها من خلال الكتابة تتلون بعددنا وبعدد الأماكن التي احتضنتنا في إطار التذكار والواقع.. وهنالك من الأماكن ما لم نألف وإيّاه تذكاراتنا الفردية، بل يَعظُم ليشكل فينا ذاكرة جمعية، ترقى به لِيُكوِّن جزءا من الكينونة الوطنية، وذاكرته التاريخية

التي تُوَلِّفُها أوابِدُهُ وزخم المكنوز التراثي المادي والشفاهي.. فيكون بحجم الوطن حدودا، ترتسم ضفافه عند حد الذاكرة وما حلا لها من امتدادات في الأفق.. فجدارا صرح نبلائها، ومدارج المروءة والإباء، وقد زرعت الوجدان علياء وآلاء بيمين طهرها، وهي تهتف بعبق سناها، وسفر خلودها، وشمائل عظمتها، حيث آدابها وأشعارها وشعاع نورها ووحي رسلها.. حضارةً.. ورسالة.

وذاكرة المكان الحقيقية لا تنسلخ عن الواقع بأية حال، إلا في الغياب الزمني المحسوس، والذي يُبقي يَقينَهُ الأثرُ المحفوظ في جوهره المادي الباقي، أو فيما يعتلج في الصدور من مشافهات وبقايا صور تلونها الذاكرة وفق المشتهى.. وشأو القصائد بأنسام معانيها وحروفها حيث تزهو حصافتها وفصاحتها.

ومهما حاولنا تجميل الذاكرة التي تحتوينا في أم قيس، فإن واقع الدلالة المكانية يشكل مرجعية ضخمة تغني الذاكرة بجماليات ساحرة أخاذة.. وتقرب المسافة بين الواقع وريشة الفنان، فَتَلازُم سِحرِ الطبيعة والعبق التاريخي والتراثي الذي يزخرف المكان، بشوارعه المبطلة ومسارحه وأسواقه ودكاكينه وحماماته، وأعمدة شوارعه وبواباتها، يشكل إبداعا وعبقرية اختصت بجدارا دون سواها. فالذاكرة في أم قيس فن إبداعي نسكبه بوحا كيفما نتوق، ولا نؤدلج فيه أي بُعدٍ كان

سوى تفكيك الواقع وإعادة تركيبه كما ينبغي لبهاء جدارا، وهي مهمة عسيرة يحار فيها المبدع والملهم، إذ أن حنق المسافة وضيقها بين الواقع الفتان والمتخيل المبدع تترك للذاكرة الترحال بين ما ترى العين وما تنظره البصيرة، وتنحصر المسافة بينهما حد الالتصاق.

ورغم السكون الظاهري في آثار أم قيس، فإن البنى التاريخية والوظيفية لهذه المواقع تشي بحركية صاخبة تسرد منتجا فكريا وأدبيا وتاريخيا يجعل المكان توليفة نتاج مبدع يُحفِّزُ الذاكرة على نبش المكان وصوغه حاضرا جميلا، له ذات الحضور أيام ارابيوس وميلاغروس، والديكابوليس..

جدارا..

حضور التاريخ..

والتَّوَرُّد..

يُجَلِّلُ هاماتها الشوق..

تَوْأمَت نفسها بأحداق شموسها

وبراءة الطفولة..

تزرع نعناعها لفرسانها..

وتريق على شرفة الحق واللظى دماء غاصبيها.. وهي المليحة تَعْصُب جَبهَتَها بأَنَفِ الأردنيات كما يشأن لا كما يشاؤون.

جدارا مدينة القصائد والشعراء، ماذا تراهم كتبوا فيها ولها؟ ومن الذي منح الآخر بهاءه، وعبقرية الإلهام، ميلاغروس، ومينيبوس، أم حجارتها السود؟ وقد زركشت الأفق بالأخضر والأزرق، وكل أقحوان البراري وزهر البساتين، وماذا همست لهم أرض بيسان والجولان عن فاتنة الديكابوليس جدارا؟ ففي لحظات الكبرياء، وعلى خشبات مسارحها علا صوت ثيودوروس خطيبا، يعلم مدن العالم في القرن الأول الميلادي الفصاحة، وعبقرية المكان، ويبثهم المجد والعنفوان في سَوْرَةِ البناء والتحدي.

وتصبح جدارا سيدة المدائن في القرن الثاني الميلادي، يكسوها التألق والمجد بغاياته ووجوهه الفكرية، والثقافية فخرا لم تدانيه في زمانها سوى أثينا، وقد رأى ميلاغروس في مسارحها وأعمدتها وشوارعها المبلطة ومعابدها ما يؤهلها لأن تكون قرينة أثينا في الشرق، غير أنها ربيبة الحضارة الهيلينستية، التي مازجت روح الشرق بخصوصيتها مع الفكر الروماني المادي، مما منحها روحا نتقمصها ولا يدرك سحرها سوانا.

في الصف العلوي من المسرح الغربي لجدارا تحضر الأشياء ومكنوناتها، وتقفز كل لحظات الزمن الجميل أمامك عالِمَةً ومُعَلِّمَةً، فعلا خشبة مسرحها، ميلاغوروس وأرابوس وثيودوروس، وهم ينتظرون

السيد المسيح مباركا المكان بجلاله وروعته.

أي ألحان تلك التي تسمع الآن مع نسائم الغروب في مسارح أم قيس، وهي تشي بروعة تلك الأماسي المقدونية والهيلينية، وناي الراعي وهو يقتفي آثار خطى المسيح، إنها ألحان الأرض والرؤى تنساب أمامك على مسرحها وقد جالسنك حسناوات المدن العشر منذ باكورة الندى وحتى هزيع الليل الأخير.. إنها عتبات القرن الثاني الميلادي بمسارحها وعشاقها لا يخرج المرء منها إلا عاشقا متيما.

تسامرك في ليالي جدارا الأنجم الضاحكات.. وعذوبة الأنسام الندية.. ورجع الصدى من غابر التاريخ، وهي التي نفثت في قلم استرابو عشق المكان، فكتب في القرن الأول قبل الميلاد: "إن الرومان الذين يتلذّذون بالحياة يصعدون إلى جدارا".. يأتون إلى مدينة العشق والشعر والمسارح.. يأتون إلى أنوثة الأرض وهي تزدان بخصبها.. "لينعموا برطوبة قممها" .. حيث تفجؤهم الدهشة بباكورة النظرة الأولى نحو طبريا واليرموك والأخضر الممتد في الصدر قبل ترابها وحجارتها.. فيا لأشجان روما في جدارا، وأهلها "يقضون أوقاتهم بمشاهدة المسرحيات التي تقام على مدرّجاتها".

جدارا تعلو كما النسر ينشدها إلفاً وسكناً..

تشرف على الأزرق الممتد في الأفق..

وعلى بساط الأرض المختالة ريا وخضرة..

تحاكي التاريخ بكل اللغات، وهي التي حملت لنا مخطط المدينة اليونانية والرومانية، واحتفظت بكل ألقها الروحي الشرقي منذ آلاف السنين. فاحمل حدقة العين على التجوال في مدينة التاريخ الوادعة.. واطلق لها سحائب الذكرى في الأكروبوليس اليوناني، وعرج على كل طرقاتها وورد بواباتها، التي يفوح عبق التاريخ من ردهاتها، وهي التي تأسست في عهد المقدونيين، واصطبغت بالحضارة الهيلنستية بعد سيطرة انتيخوس الثالث عليها في القرن الثاني قبل الميلاد، وتعرضت بعده في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد للاحتلال على يد القائد الروماني جاتيوس، الذي أكرمها وفاء لابنها ديمتريوس محرره من العبودية، فنالت جدارا حظوة الانتساب إلى الديكابولوس حتى خضعت لسيطرة هيرودوس، وقد دخلتها بعده جيوش الفرس، وظلت مطمعاً لكل غريب ووافد إلى أن اعتمرت أكاليل الغار بدخول جيوش الإسلام زمن الفاروق وبقيادة شرحبيل بن حسنة إليها، ففاضت تقىً وندىً تملأ الدنيا وتُذكي السُؤددا.

وحيثما وليت في جدارا فثمة ما يأسر الروح ويفيض الوجدان، فما الذي يرويه لنا بيت الملكاوي عن الناس في أم قيس، وعن ودورهم في بناء الأردن الحديث؟ وما الذي تحفظه لنا عتباته عن ذلك الاجتماع

بين الشيوخ والزعماء تركي المفلح العبيدات وسليمان الروسان وعلي خلقي الشراري وغيرهم من رجالات الأردن في شماله، وفرضهم حكومة وطنية على ممثل الحكومة البرطانية تضم كل ألوية الأردن؟

جدارا عروس الشرق لم تهدأ بيوتها ولا ساحاتها ولا طرقاتها، منذ العهد المقدوني حتى يومنا هذا، فهي المدينة التي تسمت بهذا الاسم الآرامي والذي يعني الجدار والسور، إنها المدينة التي تحتضنها الطبيعة بسياج تَشَكَّل واديا في بعض جهاتها ومرتفعا في آخر. أما الاسم أم قيس فله من الاشتقاق الشعبي قصة غير قصته التاريخية. حيث إننا لم نجد بين أسفار التاريخ ما يشير إلى الاشتقاق الشعبي لاسم المدينة أم قيس، وهو أن ملكة بلغت من العمر عِتيًّا دون أن يكون لها ولد، وكانت قد نذرت أن تسميه قيسا إذا رزقت بمولود ذكر، فلما ولدته دعته قيسا تيمناً باسم الإله السامي المعروف قوس. وحقيقة اشتقاق التسمية ودلالته مأخوذة من طبيعة المنطقة التي كانت في العصرين المملوكي والعثماني ممرات تجارية مهمة، حيث الشونة الشمالية، مخزن الحبوب والقمح، ومنطقة الخراج، البلدة التي تؤخذ فيها ضريبة غلَّة الأرض على سكانها من غير المسلمين، وتبقى هذه الضريبة التي فرضت زمن عمر بن الخطاب حتى لو أسلم أهلها، ووادي الغفر، وهو في العثمانية باج غفر، وهي الضريبة التي تؤخذ من التجار مقابل استخدام الطريق، وكذلك الحال في أم

قيس، والتي هي تحريف للكلمات: مقيس، مكيس، مكوس، وهي ضريبة المُكوس التي تؤخذ على من يدخل البلد من التجار.

جدارا ..

سيدة الفصول،

حورية طبريا..

حارسة حرمون..

غزالة الجبل..

ينحاز لها القلبُ نبعَ مسراتٍ

يهمي في بيدر الصبوات..

فسيان تحدَّر القلب إليها

أم صعد..

تبقى جدارا هناك..

تفرش زرقة السماء..

سجادة مخملية للروح..

ونهرا من رحيق.

جرش

حاضرٌ بَهِيّ ومجدٌ تليد

جرش .. درب العاشق المدنف.. ومحجة الروح.. مؤثرة.. ومستنهضة سواري أحفادها من الأردنيين الأباة.. وقد تحدّر على طرقات أبنائها لحن المحبة سفراً خالداً..

جرش تعملق حضاري عمن سواه، وانفتاح آفاق الألق الثقافي يدفع إلى عمق الطرح في استحضار التعاقب والحركية والتواصل الذي عاشته جرش، مدينة الطرقات المرصوفة والأعمدة والمسارح المشبعة بالتبتل والعابقة بالنجوى.

مَنْ ترى أبقى طفولتها كدحنونة تهبط إليها على أنغام رعاتها، وهم عند مسائها عُشاقها الحالمين.. وقد رقرق الدمع عيونهم الحرى بعمق جذورها وألفة ملامحها، تاركة وراءها التاريخ.. وصانعة حاضرها.. بل تشتهيها مسلات الغد حية على أفقها تقصُّ الحكايا.. الولادة والبعث بين تكبيرات سحرها وغسقها.. إنها جرش.. انفلات السرد وشجر الخلود.

إن البحث اللحوح عن دلالات اسم جرش وأسماء المواقع حولها مقاربة بين الناس في المكان، والمكونات الثقافية التي تشكلهم والبيئة

الجغرافية للمفردة التي أطلقت على المكان حيث يسكنون.. وهو حالة بعث لاشتقاق التسمية ومصدرها.. وخروج عن قولبة المفردة وفق نظامها المعجمي الذي يبقيها أسيرة معنى لفظي أو اصطلاحي ضيق يعفيها من رحابة الدلالات التي تعكس فضاءاتها ضمن ديموغرافيا وزمان وأمكنة تمنحها خصوصية الأدلجة والأنسنة التي أرادها لها السكان آنذاك والتصور الذي يتراءى لنا نحن المتلقون، فلجرش وجوارها من التنوع وتعدد الأسماء ما يمنح مفرداتها شرعية الرحابة والانعتاق من معجمية اللفظ.

وتشي أسماء الموقع الجغرافية من مدن وقرى ومظاهر طبيعية عامة ومحلية بنظرة الناس الذين أطلقوها على المكان نحو زاوية المدلولات التي تنطوي تحتها المفردة.. وهي في التبونوميا دلالات ترتبط بالجغرافيا في بعديها البشري والطبيعي.. ولا تتعداهما إلى سواهما. ففي منحى الجغرافيا البشرية لك أن تسرح الفكر بدءا من العصر البرونزي والعصر الحديدي وتعريجا على حضارات اليونان والرمان والبيزنطيين والعصور الإسلامية المتعاقبة، وفي منحى الجغرافيا الطبيعية لك أن تسامر شجر البلوط والزيتون وتسألها عن السواعد التي غرستها لنأكل ونتفيأ، ولك ألا تحار من جوابها وهي تشي بسر غرسها الروماني.

وتقترب المفردة كثيرا من معناها المعجمي الضيق الذي يخنق فضاءاتها كلما فَصَلَنا عنها وقت طويل يُراكم فوقها طبقات لغوية أخرى غير تلك التي اشتقت منها.. إذ يغيب عن المفرد شُفعاؤها من المصادر التي تمنحها إضاءة دلالية تقربها مما أراد لها أصحابها.. وتسهم في قدرتنا على تصنيف الاسم على نحو تاريخي أو لغوي أو دلالي.

ولا ينبغي أن نجمع أسماء المواقع الجغرافية على نحو معجمي، كما لا ينفع جمعها على نحو مفهومي.. فهذا شأن المعجم اللغوي الذي يتداولُ أصحابُ اللغة مفرداته على نحو بدهي وفق ذهنية جمعية لمعناه مع شواهد استخدامية تعطي المعنى المعجمي أو الاصطلاحي شرعية التراتبية في المعاجم اللغوية، وهذا الأمر لا يبيح لنا سرد أسماء المواقع وفق هذه المناحي.. لأننا في كثير من المرات نحوم حول الاشتقاق نجده، أو نخمنه أو يغيب فلا نرى فيه سوى صوت يشير إلى مكان.. فيعمل فينا التصور التخيلي والاشتقاق الشعبي عمله لنقارب بين الساكنين واسم موقعهم وبيننا وبين الاقتراب من دلالة المكان فيبقى الأمر بعيدا عن التأول والتأويل، فأين يذهب بك اسم قرية عمراوة في شمال الأردن على سبيل المثال لا الحصر؟ .. سلسلة من التكهنات والافتراضات التي تزيد دوما من غموض المعنى والاشتقاق والدلالة.

لا يملك المار بجرش أن يقرأ بعضها ويمضي.. فالوقوف على عتبات بواباتها يستغرقك من هدريان في النصف الأول من القرن الأول الميلادي حتى هذه اللحظة.. وقد حار الدارسون في تلك العظمة ذات الأقواس الثلاثة.. أهي بوابة المدينة أم قوس النصر.. وها هو هدريان يدخل المدينة منه ويمضي.. وتبقى جرش ويبقى قوس النصر مدخلا للولوج إليها بكل العنفوان والألق..

أي مفاتيح لأسرار الأرض هذه وهي تقودك إلى الشوارع المبلطة في جرش.. وأية سواري رفعت على جنباتها لتحمل البنود الخافقات.. والقناديل التي تتدلى عناقيد كروم من تيجانها الكورنثية.. تغازل قمر السماء .. فتمضي بك الشوارع الجرشية مئات الأمتار هُنَّ وقع أقدامك التي ارتسمت على خطى كل من مروا منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.. فتتهجى أعمدتها عن يمينك أبجدية التاريخ .. وتسرد التي عن شمالك أسداف الحقب..

ولو أعملت في الأرض سبراً لأوصلتك الحقب حتى فرش الصخر الأم.. ولتحدرت الأرض حقبا تتسلسل دون وحشةٍ ولا سراب يباب.. ففي عصور ما قبل التاريخ تعاقبت على جرش العصور البرونزية والحديدية.. إلى أن تعشقتها الحضارات اليونانية والرومانية والبيزنطية.. وارتفعت فوق بواباتها خافقات الرايات الأموية والعباسية والإسلامية المتعاقبة..

جيلا بعد جيل.. وظلت ذاكرة المكان حية.. برايات خافقات اختالت تيها وهي تعانق راية الثورة العربية الكبرى.. بكل تجلياتها.

بين الرقيم وجرش مسافة الأرواح المجندة.. التي تقودك إلى اسمها الآرامي جرشو.. فها هو أحد النقوش النبطية يعلن صراحاً أن باب جرش موصول بسيق الرقيم.. وأنَّ مَنْ يولد في بترا ينتسب معها إلى جرشو وتمنحه غدرانها.. ومفتاح بواباتها.. وملكوت أرضها فيرقد فيها سرمدا .. فها هو نطريوس بن ترفاطس يولد وينشأ في الرقيم وتؤول به الأيام ليعيش ويدفن في جرش.. فالنقش النبطي يعلن تأويلا أنه في الحسنيين مولدا ورقادا.. ولم تفتأ المصادر الكلاسيكية تتحدث عن رياضي كتب مقدمة في الرياضيات، وأخرى في السياق، فقد عاش نيقوماخوس الجرشي في القرن الأول الميلادي.. مفاخرا بالانتساب إلى مدينة العظماء.. حيث خلد الاسكندر المقدوني على المسكوكات شرف تأسيسه لجيراسا.. وتمضي رواية المجد الجرشية تكلل جبين روما غارا وفخارا.. وينتشي جونز وهو يسطر قصة الإبداع في قلب الوطن في صفحات كتابه مدن رومانية.

جرش فضاءات الربيع.. وغابات الأماني.. وجسر الوصول إلى زنابق الحلم .. فها هو القرن الأول الميلادي يعلن ميلاد المسرح الجنوبي.. يتلوه القرن الثاني وقد سطر معجزات الفن المعماري في قوس

النصر وشارع الأعمدة وسبيل الحوريات والمسرح الشمالي.. وقد سبق أن انضمت جرش في سنة تسعين ميلادية إلى حلف المدن العشر مما منحها قوة الأمن والرخاء الاقتصادي

وها هو طريق الملوك يمنح غزالة غابات ساكب وريمون ثراء وازدهارا عز نظيره في مدن عصرها.

ويا لنيران فارس وهي تغتال الحلم.. وتحيل المنجز سرابا.. فأي قرن سابع ميلادي حلَّ بجرش ليغرقها في بحار الظلمة وموج الأرق.. حتى دخلها العرب الأمويون فاستحال سبيل الحوريات سواقي لقافلة الطريق.. وللمراعي والكروم.. وعادت بوابة جرش مدلاف النصر وبوابة الشمس..

أرتيمس يا معشوقة البراري والسهول والشجر.. وفضاء الياسمين.. أيُّ البراري تلك التي تحمين.. وأي وحوش في ميادين طرادها تضمين تحت جناحيك.. فها هي جرش تمنحك شرعية ألوهية الصيد.. ويبني أهلها لك معبدا في فضاء التوق إلى الأمان، فمن الذي منح صاحبه الحماية والأمان.. جرش أم ارتيمس؟

ماذا أراد الهيلينيون من بناء معبد زيوس في جرش؟ وهو في معتقدهم سيد الفضاء والرعد، والريح العاوية، وسيد المعبودات الأولمبية، وهو ابن ريا التي أخفته في كريت خشية أن يبتلعه كرونوس

والده، فلم تخطئ الشاة أمالتسيا الوعد وهي ترضع الصبي، وهو الذي صارت الحوريات سواقيه، وهو بعد أن اشتد عوده أصبح سيد آلهة اليونان والرومان، فهل اتخذوا من جرش دار نداماه ومَخبَّ مَطِيِّةِ نحو الأفلاك؟ فهنا جيراسا أقرب ما تكون إلى نجمة الصباح.. وفتّان الزرقة في صافيات الأيام.

ولعل زيوس قد اختار لقومه المكان فتخيروه له، وهو الذي تحكم بالريح وجمع السحاب وأعطى الرعد دويِّه وصداه، وانهماره رهاما فوق ذرى جرش وسهولها، وهو الذي ارتضى فضاءاها مساحات تحليقه نسرا في الأعالي، ولعله تخير جرش اقترابا من شجر البلوط أحبُّ الأشجار إليه، فمن ذا الذي اقترب من صاحبه؟ هذه المغروسة في الأرض تجذرا وفرعها يعلو متساميا في سماء الوطن، أم ذاك الوافد برطانته وجهالته من جبال أولمبوس ينشد وطنا هنا؟ وما درى أن بيتا واحدا له سيكون شاهدا على مروره العابر، في أرض لفظت كل الغرباء وظلت تنشد ود جذورها ولسانها وعشقها في يعرب والأردنيين، وإن خطب ودَّها أبناء العصور الكلاسيكية ونعتوها باسم بومبي الشرق.. وزينوها بكل ما يليق بالمدينة الزاهية فقد انطوت جرش في نسيج الوطن الحضاري صفحة وضاءة مشرقة تدلل على عبقرية المكان.

عجلون

عبقرية المكان بكل تجلياته

لك في عجلون أن تقطف القمر..

أمدد ذراعك تلتقطه..

اسلك سهوب التأمل..

وسلسبيل الشروق..

غصنا يتسامى..

نحو عطرها المنثور..

وذروة اشتعال الشوق في مشكاوات قلعتها..

ولتصحو صباحا على عصافير غاباتها..

وتَبَسُّم الأزاهير التي تُطبق على الأفق أركانه..

وتَوَشُّحِ الصبح بالندى والضياء..

وعطر الشوق..

عجلون..

شَفَةُ البوح في فضاء الغمام..

وسنبلة التسامي..

في كل سنبلة ألف شهيد..

تقرأ عليهم الباعونية

ما تيسر من سفر الوطن..

وينادي ابن منقذ

من برج قلعتها لآذان الفجر..

ويهديها الأبيض ثوب الطهر دون انتظار..

فتستحيل حقولا..

ومربض قافلة تحث خطاها إلى إحدى القبلتين..

فَتُشعِلُ القلعةُ فتيلَ قناديلها تضيء المدى.

مذ درجنا خطواتنا الأولى في دروب العمر والوطن وعينا على عجلون قمماً شماء.. يسكوها الأخضر في نصف عامها.. والأبيض الطاهر في نصفها الثاني.. فهي الجذلة الرَّيّا.. موطن الأمن والمنعة.. والعصية المنيعة بالسواعد التي شكلتها الطبيعة الجبلية بوعورة مسلكها.. والهادئة الوديعة التي أسَّس أهلوها فيها وعيهم ووجدانهم.. والقِرى.. والهلا.. والانتساب للمكان وطنا وسكنا وعنوانا.

تنحني هامات المدن أمام عجلون التي تحتضن باعون.. القرية التي تنتسب إليها عائشة سيدة الفضل والأدب.. بغية المريدين والمستزيدين نورا وعلما وتصوفا، صاحبة "فيض الفضل"، و "البديعية"، و "الملامح الشريفة في الآثار اللطيفة".. فمَنْ يُسْمِعُ البوصيري عذب القريض "في

حسن مطلع أقمار بذي سلم".. وهي التي تاقت بِوَجْدِها الصوفي إلى الحبيب المصطفى، وتألقت فأصبحت "في زمرة العشاق كالعلم".. عائشة الباعونية سيدة الجبل والمدارس وحلقات الفقه والتصوف.. والشاعرة عذبة المنبت واللحن، وهي التي تتأنق في شعرها:

"كأنما الخال تحت القرط في عنق.. بدا لنا من مُحيّا جلَّ مَن خَلقا..
نجمٌ غدا بعمودِ الصبح مستتراً.. خلف الثريا قُبيل الشمس فاحترقا"

ويتناسخ التاريخ، وهو يُقلِّبُ الردهات في قلعة جبل عوف.. يقف أمامها مندهشاً.. وقد علت البحر فنافت على ألف متر.. فَتَموَّجَ الأفقُ على مناحيها.. وادي الريان، والموجب، وكفرنجه.. فماذا أراد الأيوبي من لَفِّها بالحرير.. والندى؟.. حين ابتناها في القرن الثاني من الألفية الميلادية الأولى.. لِتُطلَّ من كوكب الهوى على بردى.. واليرموك.. وأرنون..!!

وقفت عجلون.. بجبالها وقلعتها وأهلها تحرس الحمى.. عين على الأردن وأخرى على القدس.. تَرْتُقُ الجرحَ برموزٍ لم تُفْصِح قَلعَتَها عن سِرِّها.. وقفت في وجه الرطانة والغرباء.. لتقرأ من سفرها الأردني فصيح الكلم.. فنعدو لقدس طهرها آيبين.. نزف الصبح بشرى للقبائل.

وها هو اسم عجلون الآرامي يتشكل من مرابض الأنعام والعجول، في كلمة عجل، ومن واو ونون علامة تصغير للتحبب.. أو من اسم

الملك المؤابي عجلون في قرون ما قبل الميلاد.. فعجلون وجلعاد صلابة الصخر ووعورة التضاريس.. وقاهرة الخصوم.. وقلب الوصال بين النيل والفرات وسواحل المتوسط والأفق المزنر بنياشين صلاح الدين الأيوبي.. على شجر البلوط والصنوبر والسرو.. فعجلون في قلب الوطن انسجام وتكامل، فلا ضدية ولا ندية بينها وبين الكينونات المكانية المحيطة.. وقد نذرت نفسها للذرى والمعالي.. إيثارا لجوارها.. وعينا لها وله على القادم.. بتنوعه وتقلبات طباعه..

ولقد حبا الله عجلون سحر التنوع في الطبيعة.. وها هي اليوم تفرد للطيور البرية في الأردن فضاءها محمية لحماية الطبيعة.. وقد كانت أم الينابيع في عجلون المنطلق والأساس للسياحة البيئية.. وقد كانت الرؤى الملكية تتجه نحو عجلون.. الطبيعة الخلابة.. والتاريخ الذي يعبق مجدا.. والمحمية السياحية.. لتكون منطلقا نحو المستقبل الذي يحمل معه كل تباشير الخير الأردني القادم بحول الله، والذي يتكئ على موروث عز نظيره في الثقافة والأدب والطبيعة الخلابة والتاريخ التليد.. وقيادة حادي الركب سليل بيت المصطفى.. صاحب الهمة والعزم والمضاء عبد الله الثاني ابن الحسين الملك الباني .

طليقة هي ذرى عجلون.. تمتد نحو الفلك في مدارات جبل عوف.. وقد طاب مقام بني عوف فوقه أيام الدولة الفاطمية.. وقد أسبلت ربى

عجلون العنان للقيا الثقافات والحضارات، فها هو اسم بلدة حلاوة يعلو صحن كنيسة بيزنطية في موقع الطنطور.. في عجلون يغازل الندى صباحات الذرى وابتهالات المؤمنين جوار مقامات الأولياء والصالحين، فقد احتضنت عجلون تَشَرُّفا مقام سيدى بدر، ومقام الخضر، ومقام البعاج في عجلون، ومقام عكرمة في كومة الحجارة الطهور الدالة عليه في خربة الوهادنة..

عجلون فضاء المطلق.. ووهج الطموح وتناهي الأمر إلى المشتهى والمبتغى، وكسر المحال، واتساع الرؤى لتقتل ما وسوست به نفس التقاعس.. فانتشت عجلون، وامتدت رباها، وعلا صوتها، ووصل مثار نقعها الآفاق.. رأته رأي العين وعاينته ضفاف النيل والنهرين وبردى وشواطئ الوطن الحبيب المستلب.

ويطرق بابُ التساؤل مغارةَ وردة عن مناجم الحديد فيها، وعن السِهام التي تُمطِرُ، من كُوُى قلعتها، كُلَّ مَنْ يقترب منها مقتحما، ناهبا. قلعة الربض حارسة الحضارة والتاريخ من رطانة المحتل القادم بحجة حماية المقدسات.. فيا لَصَغارِ الحُلُومِ وأصحابها يحتمون بمواشير الأماني والسراب، فما القلعة وأهلوها، وتلألؤها فوق الذرى، وعلى امتداد الأفق، إلا النور يمنح الناس والأرض في وطني شرعية المعتقد والذود عنه، فها هي قرية لستب تطلق خطاها إلى طهر النبوة، ليضم

أديمها رفاة نبي الله إلياس عليه السلام، وعلى مقربة منه ترقد في عنجرة سيدة الجبل، فهنا اليقين الذي لا تَبَدُّلَ فيه ولا نكوص.

وما أن تغذَّ السير مرتقيا إلى عجلون حتى تجيش بك المشاعر حرى، وأنت تقلب فؤادك حيث عبق التاريخ وأصالته، واتقاد العزائم مستحثة ألقها إذ تختصر المسافة بالشهادة والدم الطاهر الزكي وقد صلى الشهداء وابتهلوا إلى الله أن يكون جزاء نهجهم وصدق أنفاسهم شهادة أن لا إله إلا الله وفوح الجنة... منادين أرجَها وقد اشتدت ريح أعدائهم..إنهم صحابته وأولياؤه الأجلاء.. عليهم السلام والرحمة.. شاهدوا عصورا من الظلمة والابتلاء.. منذ أول حرف في مسودة ظلمات الغزاة الفرنجة باسم الدين.. وحنقهم المتقلب على الوجوه والأفئدة سعير نار يَفُحُّ سمه في أثير الكون..

وها هو شاهق الذرى في عجلون شاهد الزمان ماضيه وحاضره وغده القريب البعيد.. في قائمة الشرف العجلوني: الصحابي الجليل عكرمة.. والشاعرة المتصوفة عائشة الباعونية.. ونبي الله إلياس عليه السلام.. أسامة بن منقذ، والظاهر بيبرس.. وصلاح الدين الأيوبي والقائمة تطول.. فالصورة وما علاها.. تبدي أعمدة الحق والنور.. وراية الفتح.. وقول العزيز.. منهج حياةٍ.. وصدقَ الصول لحظة بعد أخرى...

أرابيلا

أرابيلا.. قمر الشمال، وعروسه، والسابحات..

أرابيلا.. ميس الريم وَدَرْجُ الجمام..

ما الذي تخبئينه أيتها المعشوقة؟ ما الذي لم يُبَحْ بعد؟..

ما الذي ناجيته للمورقات، لبيادر القمح.. لحوران؟.. وقد وشَّيْتِهِ الغار والندى.. يا صهوة المجد وعز المفتدى.

وحديثنا اليوم هو بوح الأرض، ومبعث البطولات، وإلحاح الواجب.. فحينما تهفو القلوب إلى العلى .. تتسابق نحوه مواكب الشهداء، وتخفق رايات خبرت ساح الوغى.. وتُسلُّ المواضي إلى العلياء، يخضبها الأردنيون أحمر قانيا، ويسابقون الومض في بذل الروح وجراح الجسد.

تشمخ سهول إربد وهي تعمر بأهلها، وخضرتها التي تطغى على المكان من أشجار وحقول تنبض بالحياة، وَيُقْسِمُ المحبون أنهم يسترقون السمع كل مساء لوشوشات الدحنون والأقحوان، ولتسابيح الأربديين. وما نجوم الهدى؛ شرحبيل ومعاذ ووقاص، رضوان الله عليهم، وحبل جهادهم الموصول.. حين لم يغمد لهم سيف ولم تلن قناتهم إلا للحق مشرقا في تاريخنا العربي .. وقد ظلت ذؤابة المجد موصولة لزيد وعلي وعبد الله.. فحين فرد صقر شعبان جناحيه طاعت في فيافيه سمر العوالي، فأوضحَ كل ما حَجُبا..

إربد ... حضور بهيٍّ، واخضرار الشرايين من القلب إلى جنات الكروم، واكتمال البدر في أريافها..

تدخل إربد الأرجاء فيعلن الوطن أعراسه، ويزفها عروسا للشمال...

إربد قطر الندى، وشدو اللحن في الليالي المقمرات... وساح السبق وتنافس المتعاقبين، أيها أولى بالحضور والبهجة في حضرتها قمر المساء أم خيوط الصباح لمرايا نباتها وبناتها؟ إربد سابغات المجد وحكايا نسائها، أساطير مواسمها وقدسية ينابيعها، اربد السمار ومنابر النجوم والفضاءات الحميمة. إربد اخضرار الخافقين.. واشتعال الزهر.. وزهو الربى الممتد لجينا وأقمار عاشقين سيجته أقاحين القصائد واشتعال قوافيها.

لقد حفظت لنا الأسفار دروس تعلُّق الناس بإربد، منذ قطنها البشر في العصور التي سبقت التاريخ، فلم يكن شمالي الوطن غفلا في رحلة التمدن والاستقرار، فقد بدأها الأردن قبل غيره، ويشهد تل أربد على زخم الحركية البشرية منذ أكثر من ألفيات سبع، فكان التل موطن الإنسان ومحله، انتمى له وتعلق به، فجعله فضاء رحبا ومجالا حيويا مارس فيه الأوائل أنشطتهم وحياتهم، فقد خَطَت إربد، في عصور ما قبل التاريخ، قبل غيرها نحو التمدن، فكان سور المدينة، والتي ما زالت

بقاياه شاخصة في الجزء الشمالي الغربي من التل، الذي ظل شاهدا على حضور تغلات بيلاسر الثالث إلى المنطقة، وإعادة بناء السور في القرن الثامن قبل الميلاد، والذي كان قد تهدم أكثر من مرة بفعل عوامل طبيعية وبشرية.

فإربد.. ليست على قلق كأنما الريح تحتها، وما عَناها نبيُّ الشعراء، فهي فاتحة الشام على قداسة الأرض شرقا وغربا ، وفاتحة الصبح على ليل الفرات، وظل الشجر لقاصدي الكنانة... إربد مفصل الروح وزهو الإنتماء..

يتزاحم المجد على بوابات بيت أرب إيل؛ البيت الذي عظّم الله وكبّر، ويتهادى أقحوانها المحبون ... نقرأ صفحات تاريخها بكل اللغات، فمنذ الألفية الخامسة قبل الميلاد وإربد تنقش سفر خلودها بكل أسمائها؛ بيت رب إيل، ورب إيل، وأرابيلا ، والأقحوانة وإربد.

اربد بوحُ الفصولِ.. والحمائم، منها ترتحل إلى هديل القصائد، وأليها تؤوب وقد هدهدتها حكايا الندامى، وقد انتشى صبحها نديا ... يمخر المدى.. هي زهرة الشرق ... وأقحوانه الحب .. فحيثما يممنا بين الأردن واليرموك يمم الزهر وعنفوان الشباب.

في إربد يبقى الحمى شامخاً، بصدق القول والعمل، وتغليظ مواثيق على النفس وعهود، لتجسيد المنجز فضاء رحبا، ترتقي مساحته سمو

الرؤى وعلو الطموح، وتتدفق في وجدان الأردنيين في شمال الوطن، ومنه، مشاعر الإحساس بالفخر، وفرض تلبية النداء، وقد نقشت الذاكرة وسوما وأوسمة تخلد أرض اليرموك، تُبقي دم الشهداء نديا زكيا.

في مواسم إربد تتراقص المشاعر جذلى، تنبعث طيبة النفس، أندلسية الدفق، موسيقى عازف مبدع، وتنبثق همم فلاحيها فعلاً مُجليا، تتوق له ساحتنا الأردنية .. فكأنما تنشد الأرض تراتيل مجد وخلود لا يملك المرء إلا أن يظل أسيرها حتى لحنها الأخير.

إن المواسم والأماكن والإربديين ثلاثية تسكننا جميعا، لا نملك إلا الارتحال معها نحو الأفق البعيد الأرحب، فمحطاتها مفعمةٌ بحنين الأردنيين والأردنيات، وصدق الانتماء وتجذره. ففي كل عطاء ومنجز تتراقص خلجات النفس تيها، وتتسارع دقات القلب تُقاسم النشميات والنشامى، حب الوطن، والقائد.. وتخفق راية هاشم عالية تبلغ طبقات المجد .. وتفتح أبواب الدنيا.. تؤدي رسالتها تواترا وتوارثا، مقدمة التضحيات ما لها إحصاء، بدءاً من المصطفى الهادي حتى سليلها وحادي الركب عبدالله الثاني.

تتراسل الروح في إربد من شغاف القلب إلى شغافه .. طيف مولدٍ، وامتداد عمر ومرابع أهل، وهوى قلب ضاقت عنه رحابة الكون،

وصباحات مجد سياجها سُمُرُ العوالي ... غَوثها الشهداء.. وحماتها أبطال من آل هاشم .. خيلهم بضبحها ومثار نقعها ظِلّ أعاليها.

سهول إربد صهوات وربى .. وعِزٌّ مفتدى، وشيوعُ هوىً ... ورايات معتضد ... فسلام عليك يا سيف الله... وقد سُلَّ منهج نصرٍ لأمة تاقت لصهيل خيلها ولمع يمانيها.

على اليرموك نقشت ذاكرة التاريخ أسفار كتائب نصر وثارات دين وسيوف سُلَّت، إذ حان المُفتدى بالصوارم، وقد شُرِّعَت لتلال الغيم، ولدماء فراس.. حين شاد صروح الأماني ليرتقي شهيدا.

وفي وقفات التاريخ الإربدي نستلهم معنى أن الكون يدين لجحافل الأبرار ومواكب الشهداء.. وأن سيفا واحدا من سيوف الله يُسلُّ يَكسي الروابي ويُلْبس الأرض ثوب الحق... فَتَغْزِلُ الشمس أشعتها ليَزُفَّها الصبحُ.. وقد غلت المهور بعزم رجالها. ويظل حبل المجد موصولا ... مبتداه في التاريخ هاشم ... ومبتداه في الحاضر هاشم ... ومع الهواشم، وبهم، نمضي .. نستمد العزائم والرؤى ... ونصوغُ إشراقة الغد الأردني الأحلى .. ونُعلي القوافي بأن تبقى الربى سيفاً ومنتسبا...

تفتح الأبواب وتقرأ سورة الزمن، وقد هدهدت نوافذ الفجر وانتشت أسرارها نبعا رقراقا تروي رجالها وتأسر الفؤاد تراث حضارة شعبت العلوم .. فإربد جني الثمر والحكمة المتفتقة.

ما الذي تخبئه إربد خلف تلها، ما الذي تسكبه من كؤوس الفرح والحياة .. أليس غرامها جمرا .. أليس صباها طروا فطورا .. اليست من يزجي الحنين إلى الحنين؟ والغرام من دفتر لعشق بنشوته المجنونة؟ ومدارات ظلها الشاخب من سدف الغيب، وسورة الأهلة إلى صدور الواهلين ورماح الأبطال ...

لكِ الألق .. وجميل الوعد وسوسنة الحلم .. وسلام عليك طال الزمان أم اختصرته الأقدار. سلامٌ لأطفالها وعلى بيادرها، وسلام على تلها الموسوم بالكبرياء والمتشح بالشموخ.

الأقحوانة مدينة الثقافة الأردنية

بين تل اربد وبيت عرار مربد وعكاظ... وآيات تتلى مُذ أَمَّن صاحبُ العشيات الأردنياتِ نَسْجَ ثوبه الأبيض، ومواراته، بعد وأده مرتحلا، في ذلك التل الذي تشكل أديمه قبل ألفياتٍ خلون، فدعاهُ العرب الكنعانيون بيت أرب إيل؛ أي البيت الذي عظّم اللّه وكبّر. هي إربد ... زهرة الشرق ... وأقحوانه الحب.. وموطن البهجة والتفاؤل والمرح، فحيثما يممنا بين الأردن واليرموك تمنحنا زهرة السعادة نفسها وتكرس فينا عنفوان الشباب. اليوم ينهض العلماء والفقهاء الإربديون؛ أحمد بن سليمان الاربدي، ومحمد بن احمد بن موسى الكفيري، وعبد اللّه بن خليل بن فرح الرمثاوي، و أبو بكر حرز اللّه الاربدي، وقاسم بن محمد الأربدي، ويأخذ كل ركنه في مسجديها الكبير والمملوكي، فقيها وعالما، يعتمر إكليل الأقحوان ... يقرأ سورة القدر، فتتنزل الملائكة... لتلقي السلام على شرحبيل ومعاذ. اربد مدينة يتزاحم المجد على أبوابها ... ويتهادى أقحوانها المحبون ... نقرأ صفحات تاريخها بكل اللغات، فمنذ الألفية الخامسة قبل الميلاد وإربد تنقش لوحتها رشاقة فنان ... وشِعر فيلسوف، فكانت بيت رب إيل، ورب إيل، وأرابيلا، والأقحوانة وإربد. وقد ظلت إربد وادعة مطمئنة، تشيع سهولها الممتدة على المدى الأمن والأمان لكل

زائريها، والمارين عبر دروبها وطرقاتها، فهي كما نعتها، وجوارها، صاحب صبح الأعشى، طريق الحاج إلى بيت الله الحرام، وزيارة نبيه، وإلى الأرض المقدسة، وممر القاصدين إلى الديار المصرية. وفي دروب اربد يشيع السلام وتلقى التحايا على من يمرون بها، فنقرأ على شاهد ميلاغروس في أم قيس: إن كنت سورياً، فلك مني تحية، وإن كنت فينيقياً، فلتعش يا سيّدي، وإن كنت يونانياً، فأتمنى لك الصحة، وأما أنت، فأجب على التحية بمثلها . ولأن للحياة معانيها في اربد فقد ظل شاهد الفيلسوف آرابوس الأبيقوري، ينثر أقحوانا أحمر يشي بحميمية العلاقة الإنسانية .. الفياضة وجدا صادقا، يخاطب كل الأحياء بعده: أيّها المارّ إليك أقول، كما أنت الآن، كنت أنا، وكما أنا الآن ستكون أنت، تمتع إذاً بالحياة، لأنك فان . إن معاينة مسوغات ترشيح مدينة للثقافة الأردنية بين قامات مدن أردنية تضرب جذورها للمجد نسبا وللتاريخ عبقا وللسؤدد وعزائم الرجال سببا يجعلنا نفاخر بأهلية كل منها لهذا الشرف، فإذا كانت الكرك والسلط ومادبا والطفيلة ومعان قد انحزن إلى شقيقتهن عروس الشمال فإننا نحن الأردنيين سننحاز للمجد الأردني وللثقافة الأردنية وللأردن، فاليوم في إربد وغدا في كل مدننا الحبيبة تلك. ويبقى التحدي والرهان على كواهلنا نحن ورثة كل ذلك التراث، وكل

هذا البناء الحضاري، وتلك المكونات الحقيقية التي أهلت اربد لتكون مدينة الثقافة الأردنية لهذا العام، ونحن الذين نقشت ذاكرتنا على حكايا خان حدو، ودار جوده، ومدفع رمضان، ومقام الشيخ التميمي وعوض الهامي، وبيوت عرار والشراري وسعيد جمعة، ومكتبة مدينة اربد، أقدم مكتبات المدن الأردنية.

واليوم، وقد اكتملت كل البنى التحتية، أو كادت، لشرعية تسمية اربد مدينة للثقافة الأردنية، من جامعات ومسارح وملتقيات ومنتديات ثقافية وفرق فنية ومعارض، فلا بد من تفعيل الحراك الثقافي الحقيقي الذي يضمن الديمومة ويبتعد عن الاحتفالية الكمية، فقد كسبت اربد الرهان دوما، وكانت في عيون الاردنيين عروسا بكامل بهائها وحلتها، وجنة من جنان الأردن، تحرسها العيون وتبنيها السواعد ... ويرقص دحنونها وأقحوانها على اليرموك ... وقد لمعت فيه السيوف وارتفعت البيارق.. وعلا النشيد: على اليرموك قف واقرأ سلاما.

نهر اليرموك..
قصة التاريخ والإنسان

ممشوق ذلك السهل.. مزهو بما تطهر.. قناديله صوب السماء ضياها.. واسراب حمائمه اللخمية تدرك منازلها.. وبواشقة الغسانية اتخذت من يواقيصه مقامها.. إنه اليرموك.. حيث التقى الجمعان.. جمع الطغاة والكثبان المذراة العابرة بحول ربها.. وجمع الذاكرة والحضور والحلم وأشرعة النصر عمادها سيف الله خالد.. وأبو عبيدة عامر.

يا أيها الصوت المزنر بالشيح والقيصوم من بيداء الجزيرة.. أيتها الروح التي تاقت لدحنون وقامات الدفلى على اليرموك.. أغلى الأسماء ما تسميت به يا قيس بن هبيرة.. فها هو فضاء اليرموك يسترجع الصوت المتعالي محلقا فوق ياقوصته وسفحيه يتسامى نحو المجرات ملبيا دعوتها:

"جلبنا الخيل من صنعاء تردى بكل مدجج كالليث حام.. إلى وادي القرى فديار كلب إلى اليرموك بالبلد الشّام"

يا جيش الظفر وقد شققت عباب الطريق والثغور من صنعاء إلى اليرموك.. راياتك تخفق باسم الله منقوش عليها نجوم الهدى والظفر:

يزيد ومعاوية ابني أبي سفيان، عمرو بن العاص، شرحبيل بن حسنة، وعكرمة، والقعقاع، وسهيل ابن عمرو، والزبير، وضرار وقافلة تطول

وها هو أبو سفيان يسير خلف الكراديس العظيمة من الخيل والجيش يلهب الحمية مناديا مكبراً: اللّه اللّه.. إنكم ذادة العرب عن حُرَمِهم وأوطانهم.. فيا عون الذياد.. وإنكم تاللّه أنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

اليرموك.. هذا النهر المتحدر صوب الحياة.. يغمر السهول المخضرة.. المستحمة بنور الشمس في صباحاتها الجذلى.. حيث يقيم اليناع والنعناع فوق حناء الأرض المجبولة بدم الشهادة.. فها هي جنبات النهر تقرأ حتى الساعة أسفار الروح والجسد الطهور.. وحين يتحدر لحن الخرير هاما صوب الاردن.. ترقى شقائق النعمان نشوانة فوق جلال تلك الخطى تسمو في فضاء الحكاية.

يا قلب الجند وواسطة عقده.. تصافحك غيوم النصر.. تظلل جلال مقامك.. يا سيد اليرموك وحارسها.. يا أيها الأمين على أمة تاقت لنواصي خيلها الضابحة وهي تمخر جُدُرَ الأفق.. ها هو النهر يركض صوبك كل نهار يقرؤك السلام..

إيه يا أبا الدرداء.. يا قاضي الجيش.... قَلِّب أسفار جندك في

اليرموك.. وارسم لنا طريق الحسنيين.. لنمضي معا نصنع الغد.. طلائعاً يقهر فيها قباث بن أشيم وهم المستحيل.

ويصحو اليرموك كل صباح على صوت المقداد بن عمرو يرتل القرآن.. يقرأ الفتح.. والعاديات.. ويأخذ أبو سفيان بن حرب مقعده فوق صخرة شاهقة على اليرموك.. شيخا جليلاً.. يقص علينا مطلع كل يرموك.. مذ يومها.. كيف أن ثلاثين ألفاً أقلّ قليلا أو يزيدون عبروا الطريق إلى الغد وقد داهمهم خميس بعشر أضعافهم.. خذنا إليك يا أبا سفيان.. وافتح لنا النوافذ المغلقة.. واقرئنا نشيد الأرض.. وابتهاج الفصول.. وكيف قَسَّم ابن مسعود غنائم الجند.. وقُص علينا صهيل الروح وهي تؤثر خِلَّها بقطرة ماء حد الموت.. وكيف أن أكاليل الغار حارت في اعتمارها بين خالد وأبي عبيدة.

وارتفعت على اليرموك رايات النصر تطير على ميمنة الجحافل مشدودة الذؤابة بيد معاذ بن جبل.. وترفرف بأجنحة الطهر بيد نفاثة الكناني.. وتحدرت الراجلة أحلاما باسقة وقامات نخل يؤمهم هاشم بن عتبة.. والتمع الأفق على شرفات السفوح يضيئه سيف من سيوف الله يحكم القبضة يتقدم الخيالة زوارق نصر فوق اليرموك وخيل محجلة تحمي الضفاف..فكان يوما واحدا، أيها النهر الخالد، يكفي خالدا لينزرع النداء والشهداء شجرا باسقاً..ما يفتأ يتلو: "إذا جاء نصر الله والفتح"..

وفي الحمحمة كان الأشتر الإيادي شمس من شموس الحق في بهم الليالي.. بدا نسرا محلقا في كل ضربة سيف منه تزداد ثكالى الروم ثكلى..

فغدا اليرموك.. نهر الفرح الممتد شريان ندى.. وينبوعا يصدح شوقاً لوهج الانتصار.. ونهر الغضب في الزمن المستحيل.. يشمخ فيه دفق الماء من هاتيك الملحمة.. ينساب بطعم الشهادة يروي سهب الوادي.. مباركاً ضفتيه.

في ذلك اليوم الأغر كان اليرموك على موعد مع النصر.. يطلع على شمس يوم جديد.. تكتحل هدبها بأديم أرضه.. ويمضي النهر في مجراه نحو الشريعة حيث لقيا البشرى والفرح ولهفة السؤل مع الأردن.. يوم ارتوت الأرض بنبعة من جبل الريان إلى الأرض العطشى فخالت الدنيا أن اليرموك يتنسب إليها دلالة واشتقاقا، فها هو يرد في السريانية يرموكا، ويرد في اليونانية يرموكدس ويرموكس، وفي اللاتينية هيروميكا.. والكلمة يرموك على صيغة يفعول مثلها مثل يبرود.. ولعلها من الجذر الآرامية رمك.. وهي في الساميات الشرقية القديمة كالاكادية: صب واستحم وغمر وهدر. وفي العربية من أرمك.. الرمادي الغامق دلالة لون التربة.. والرامك المقيم في المكان ولا يبرح. وعرف النهر عند السكان المحليين أيضا باسم شريعة المناذرة.. وهناك

من أعاد اشتقاق الاسم إلى هيروس ماركوس أي القديس ماركوس وهو احتمال ضعيف.

ﻓﻲ اليرموك بعض من ذاكرتنا.. ووعينا الحضاري، فكان واقِعُنا دافِعَنا للاعتقاد بحتمية الديمومة والاستمرار، فَتَولَّد الحِرصُ على نصاعة الذاكرة حِرصَنا على احترام مقدرات البقاء، وتعظيم المكان، وخلق انسجام تسلسل الأحداث والمشاهد الحياتية اليومية أو المواقف التاريخية التي تُلْزِمُ الأَشخاصَ، خلفاً وسلفاً، حالةَ الفخرِ والاعتزازِ والاستعداد للتضحيةِ من أَجل هذه الذاكرة التي ترتقي لحظتها إلى درجة الهوية. وتجسد ذاكرة النصر أنبل المشاعر وأغلى اللحظات وقد ائتلفت القلوب حباً للوطن والعقيدة ... فاستيقظ الوجدان رفعةً وتحفزاً للذود عن ثراه.

إن ذاكرة الوطن مركب من مجموع العلائق التي تضبط إيقاع الحياة بكل أبعادها ومقوماتها، فهي توليفةٌ تُرْتَضَى بحسِ المواطنة الإيجابية وبَداهةِ الانتماء دونَ مواربة أو مِنَّة، وكأنما هي حالة وجودٍ لا غنى للمرء عنها، ويَعْتَقِدُ أن سواها حالة طوباوية يكاد صاحبها ينسلخ من رحم الحياة، فذاكرة الوطن مبتدأ التكوين ﻓﻲ توافق رسم الذات الأنا والذات الهوية... وهذه هي أبجدية الطرح ﻓﻲ يوم من أيام التاريخ والوطن، فذكراه ذكرى سخاءِ عطاء .. ووفاء لشهداء وهبوا الوطن

الأَغْلَيَين؛ الدم والروح، ليظل عنوان عزٍ وشموخٍ ... ندى ذكراهُ رشادُ الرؤيةِ وإشراقةُ المستقبل.

وترتبط الذاكرة بالمكان والزمان والشخوص، وكأنما هي المبرر للاستمرار الايجابي، أو المُقَوِّم الذي نَتكئ عليه لخطاب الآخر ومحاججته، ولستُ أحسبُ أنَ ذلك حالة ذهنية ووجدانية فحسب، بل أساس من أسس تكوين الذات والهوية، سيما وأن العولمة لا تعترف للشعوب بذاكرتها، فتجتثها بحتمية التكوين، وتسلبها خصوصيتها التي تُكَوِّنُ أَناتَها وتَرْسُمُ ملامحها، ولعل الأمم التي لم يحفظ التاريخ عليها ذاكرتها تلاشت، أو تماهت في غيرها واضمحلت حد نكرانها وجوداً وذاكرة.

سهل حوران أهراء القمح والأخضر الممتد

تتبعثر أنداء التربة في حوران أيام كانت فيها أهراء روما وسلة خبزها.. حيث كانت تكتسي الأخضر على المدى.. وترتدي عباءة الخصب والندى تشرع أبوابها إكراما وقرى لعابر الدرب والسبيل.. تغفو عاشقة وتستفيق على أنس الدروب والقوافل.. ما اغتالتها جحافل روما وما أفرغت كواريها.. وظلت شريان الخير الدائم.. يسابق خيط الشمس حيثما أدرك..

وشاء لحوران أن تكون سيدة الخير العميم والجرار الملأى وكورة المحاصيل.. تمسك الرغيف وتبسطه.. تمنحه دونما انحناء.. وقّعت صكوك الحب والعطاء طواعية فأدركت روما وقد انتابها العوز لأهراء حوران.. تلك الشرقية الولود.. قمحا وزيتونا.. وأقماراً..

لقد سكنت حضارات قديمة إلى حوران وباحت لتربتها وزروعها بالاحتياج.. وفها هي روما تستحيل أسيرة الاحتياج لخيرات حوران فتتوجها مملكة لأهرائها.. فيا لحوران وهي تفرز الغث من السمين وتعلن سنابل قمحها هبة الأرض الحورانية التي حباها الله خصبا ووفرة وجودة محاصيل وثمار تبسط يدها من غيرما منة تنهي قصص الجوعى.. وتعيد الدم ساخنا إلى العروق.. وتكسو الأفق في إربد وأم

الجمال وجرش حُبًّا وحَبّاً..

حوران سيدة المعاني واللغات.. وقد عدها العرب القدماء الملجأ والكهف، وسماها الأشوريون حو را نو بمعنى النقرة، وغازلتها النقوش السبيئة فأضفت عليها اسم البلد الأسود، وهي سمة حرّاتها البازلتية السوداء، ونعتها الأراميون باسم حوريم بمعنى بلد الكهوف.. وقد حور اليونان والرومان التسمية لتصبح اورانتيس.

يا لنقاء حوران وقد عاشت إيقاع الزمان على تقلباته فها هو رافا الجبار وعوج الجبار ملكا الرفائيين يتخذون في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد حوران سكنا ومنتسبا.. يعقبهم سكان الجبال الآمويون، ثم العرب الأيطوريون والعرب الأنباط.. ويستدير الزمن بتقلباته على حوران فيتعاقب عليها الحوريون والآشوريون والسلوقيون فالرومان في القرن الأول قبل الميلاد.

ولا تخبئ لنا حوران سوى الأجمل مما ظهر من تاريخها.. فها هي تقص علينا جمال الفارسة الضجعمية ماوية وهي تقود العرب ضد روما وتجبرها على ما أرادت من لحظة المجد وهي تفرض قسا عربيا على بيت المقدس قابضة على عنفوان العربية الحرة.. وهي التنوخية التي انجبلت بتربة حوران الخصبة المعطاء في فضاء عروبي حر أطرافه بني سليح والمناذرة والغساسنة

لقد كان الألق في حوران يقطف رأس سنام مجد الشعوب التي تعاقبت على دنياه.. فلم تبرحه قوافل الخير من عوز.. فهيهات يكفيها زمن وأزمان.. ففي حوران يكبر الحلم وقد صار المدى سنابل خير.. فلأجل حوران أسرجت الفرسان مطي خيلها..

وقد مثلت حوران مجتمع الريف العربي خير تمثيل.. حيث سمات الكدح والكد سعيا في طلب الرزق والفلاحة وانتاج المحاصيل والثمار التي تفيض عن الحاجة فتكون سلة الخير لبلاد الشام، مثلما كانت تاريخيا صومعة القمح لروما والأنباط، وعكست حوران فوق ذلك عمق التجذر التاريخي للمنطقة بما فيها من تعاقب الأمم والحضارات واللغات مما منحها غنى حضاريا لا تدانيها فيه سوى قلة من البقاع، فقد ارتفع في حوران في غيرما فترة زمنية صوت الثورة على الباطل والمستعمر، فقد ظهر في حوران العرب الصفويون الذين تنبئ عشرات الألوف من النقوش العربية الشمالية المسندية عن دور العرب في مقارعة روما وفارس وغيرهم من الغرباء، وسجلت أسفار التاريخ بحق حوران بروز العرب الأنباط حماة للقوافل وناظمين للمد الحضاري العربي، وبرزت كما أسلفنا العربية ماوية وهي تقارع بيزنطة لترضخ لإرادتها العربية في جعل حاكم كنيسة فلسطين عربيا لا رومانيا فكان لها ذلك.. فالقافلة الحورانية في الكفاح تطول شموخا يناطح النجم.

ولقد ضمت حوران فيما ضمت قضاء عجلون ونواحي الكفارات والوسطية وجرش وكان رمكزها إربد، وقد تبعها قرابة مائة خمسين قرية، فيما تذكر مصادر الإخباريين. ففي حوران ظل ذاك السهل ممشوقا.. مزهوا بما تطهر.. تضيء قناديله الأفق لاسراب حمائمه اللخمية التي تدرك منازلها.. ولبواشقة الغسانية اتخذت من يواقيصه مقامها.. ففي حوران مشهد اليرموك.. النهر المتحدر صوب الحياة.. يغمر السهول المخضرة.. المستحمة بنور الشمس في صباحاتها الجذلى.. حيث يقيم اليناع والنعناع فوق حناء الأرض المجبولة بدم الشهادة.

وفي حوران تشمخ سهول إربد وهي تعمر بأهلها، وخضرتها التي تطغى على المكان من أشجار وحقول تنبض بالحياة، وَيُقْسِمُ المحبون أنهم يسترقون السمع كل مساء لوشوشات الدحنون والأقحوان، ولتسابيح الأربديين.

إربد قطر الندى، وشدو اللحن في الليالي المقمرات... وساح السبق وتنافس المتعاقبين، أيها أولى بالحضور والبهجة في حضرتها قمر المساء أم خيوط الصباح لمرايا نباتها وبناتها؟

إربد سابغات المجد وحكايا نسائها، أساطير مواسمها وقدسية ينابيعها، اربد السمار ومنابر النجوم والفضاءات الحميمة. إربد اخضرار الخافقين.. واشتعال الزهر.. وزهو الربى الممتد لجينا وأقمار

عاشقين سيجته أقاحين القصائد واشتعال قوافيها.

وفي حوران تهفو الروح إلى تلك الارتعاشة التي تخلقت فيها دهشة الكشف والريادة.. حيث علا الحضور الحضاري العربي النبطي والجذامي سواه من تصارع القوى بين روما وفارس.. ففي أم الجمال كان الأجداد يتوقون إلى تأصيل الهوية وتجذير مقومات البقاء.. وقد آلوا على أنفسهم المضي فيما بدأوا من القبض على المنطوق بتعلم الكتابة.. فكان العرب الأنباط منارة من منارات الهدى نحو تطور الكتابة التي كانت تتقلب بين الآرامية والمسندية والنبطية لتتولد من رحم المخاض النبطي والسرياني الكتابة العربية المبكرة.. فتشتعل البادية الحورانية توهجا مبعثه العرب في ام الجمال في نقشيها الأول والثاني.. التواقان حنينا لنقش وادي رم.. لتكتمل صورة جناحين يعتبقان ندى في سماء وطن الصباحات والنجاحات منذ عمر الإنسان هذه الأرض.

وتتابهى حوران بجدارا.. مدينة القصائد والشعراء، فماذا تراهم كتبوا فيها ولها؟ ومن الذي منح الآخر بهاءه، وعبقرية الإلهام، ميلاغروس، ومينيبوس، أم حجارتها السود؟ وقد زركشت الأفق بالأخضر والأزرق، وكل أقحوان البراري وزهر البساتين، وماذا همست لهم أرض بيسان والجولان عن فاتنة الديكابوليس جدارا؟ ففي لحظات الكبرياء، وعلى خشبات مسارحها علا صوت ثيودوروس خطيبا، يعلم

مدن العالم في القرن الأول الميلادي الفصاحة، وعبقرية المكان، ويبثهم المجد والعنفوان في سَوْرَةِ البناء والتحدي.

سطوة المكان.. على مساحات الهوى.. وسنين الصبا والشباب.. وحفر الذاكرة بالحارات والأزقة والشوارع.. هذا نحن مركب من الأرض.. وبيادر القمح.. وطابون الصباحات الربيعية.. فعطر الندى ينضح خبزا.. وقد انتثر على جنبات الدروب دحنون واقحوان حوراني يزركش المدى المدهام.. فيا لقمر حوران وهو يصنع ذاكرتي من الوريد إلى الوريد.. ويتربع فوق عرش القلب.. واللحظات.. فيرتسم ربيع هوى.. وانتشاء روح.. وقد أغرقها عسل اللقاءات..

حوران حضور الدهشة في همس الفيافي وهي تفتح نوافد التاريخ مشرعة مضاءة يعدو المجد فوق حروفها ليعلن ميلاد الكتابة مسندية ونبطية وآرامية.. فلم تهم حيرى في ليالي الجهل.. ولا تخلقت في سدم الصدفة والفجاءة.. بل نهوض أحلام وعزائم.. هاديها النجم يرسم الغد قنديلا يجلو ظلام اليباب في دول الاستلاب والصدفة بين روما وفارس.. ليعلن المدى براري تاقت لأنداء أكف أهليها.. أنباط ولخميين وغساسنة وجذاميين..

حيث الكهف والغابة "تَطِيرُ حَواليَّ البِلادُ بَرَاقِشاً"

غابات برقش أقرب ما تكون إلى الوجدان.. تتسلل فينا رائحة التراب مشبوبة بحاسة الانتماء واسترداد لحظات الصدق الطفولي.. فالمكان حالة وعي تعبر في أفق الدروب المضّاحكة حواريها.. البسّامة أقمارها.. فمن فوق تلك الربى التي استعارت من الجنة بعض قبس وبهاء تنهض الغابات غيّ تندلق شلالاً أخضر.. تسامر نهر الأردن غرباً.. وتحرس كبرياء التاريخ في فحل التي تَسمَّت في أسفار المؤرخين والجغرافيين كورة فحل، حيث كانت مركز اللواء.

في ناحية الجنوب من اللواء تتلهف الروح للقاء محمية الأحياء البرية في زوبيا ورأس برقش.. حيث تعبر أنفاس الصباح الغابة.. تحتضن أشجارها متلهفة للقاء في ذلكم الرأس الذي يُحَلِّقُ عالياً فيما يدنو من تسع ماية متر فوق مستوى البحر. هناك يوقظ المكان تذكارات الأماني.. وتعزف مع شفق الأفق شجي اللحن.. فيستحيل المساء قطر ندى وبيادر صبوات... فوق ذلكم الرأس المشرف على سهول حوران.. أهراء القمح والأخضر الممتد.. وصوت أحقاب التاريخ الخالدة التي تاقت لحوليات أوراقها الروح، يكتمل البهاء ويعمرنا اليقين بأن هاته الأماكن حبسنا وحريتنا بمحض الإرادة والاختيار.. نجوس تفاصيلها

كما تجوس دواخلنا.. نتأمل الحكايا التي ارتجلناها عن جبل الشيخ وجبال الكرمل.. فيحتوينا المكان مفعما بشوق الخلايا لنفحة الروح الأولى التي استسلمت لسحر الطبيعة في غور بيسان الآسرة للخفوق في دواخلنا..

في غابات برقش تسفر الأشجار عن حضورها المدهش الرابض قروناً في بحر الأخضر المتماوج.. وهي تعلن عن كم لا يحصى من أشجار البلوط والزعرور والبطم والسنديان.. وعن ذاك التنوع والغنى العظيمين في الغطاء النباتي والحيواني مما يمنحها الحضور والتميز..

تعمر قامات أشجار الغابة الذي يسكن الصدور.. ففوق أوراق كل واحدة فيها وجوه نعرفها.. هي بعض ملامحنا.. لون الحياة في سيمياء وجوهنا.. وها هي أعشاب البرية وأزهارها، تمتد سجادة تتراقص الأوان فوق صفحتها.. تأخذنا عبر مساحة العمر مبدعة عشقاً وحميمية وبهاء..

زرقة السماء في الأعالي وزركشات الطبيعة فوق الربى والسهول وتاريخ مجيد لا نطوي في الغياب صفحة تحوي سطرا من سفره، تمنح الأردنيين ذاكر الحنين.. وإكسير التشبث بالوطن.. فلا نكتمل بدونه... تلوذ به إرهاصات العمر.. وبطون الأسرار والغياب.. فيه تسترجع

الحكايا صداها.. نوافذا على طفولتنا.. ودفاتر عشقنا.. وتأخذنا إلى أزقتة التي علق توهجها في حروف كتبنا المدرسية وأناشيد الصباح.. "موطني موطني..".

سيان في سفر الوطن مَن مِن أبنائه يدفع مهر الجمال.. ويعلن الدهشة الأولى في الحضور والاستكشاف.. فحروف أسمائهم محفورة في سفر الوطن.. وتلويحة وجوههم السمراء مجبولة من قداسة ترابه.. فتلك السواعد القوية والأذهان المستنيرة والهمم العالية من أبناء الأردن حملت أمانة صون الحمى وبعث منجزه وتقديمة للعالم بما يليق.. حيث جاء الإعلان عن اكتشاف مغارة برقش ظاهرة جيولوجية فريدة.. ناجزت بجمالها كهف جعيتا في لبنان.. فقد مُنِحت المغارة من البتراء لونها الوردي، ومن مغارة جعيتا تلك الدلايات والكتل المخروطية الهابطة والصاعدة بتناسق عجيب يعود إلى ألفيات عديدة.. والكهف تجويف طبيعي ضخم يضفي مدخله إلى دهاليز تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة وإعادة التأهيل ليكون معلما سياحيا يليق بالمكان وتنوعه وجماله.

وعلى امتداد الأفق الأخضر، وإبحارا في القرون الخوالي، وما اعتمر فيها من تجلٍ في الخلق الرباني والجهد الإنساني نهرب منا إلينا.. نحوم في مدارات الشوق.. نبدأ حيث اللحظة.. ندخل طقس التواريخ..

نستعيد نبض اللحظات على جدر القش والطين وقد كانت مرايا الوقت والفصول.. في تلكم المدارات تتغشى أمواج الأحاسيس ثواني العمر.. وتستوطن السعادة مساحات قلوبنا المفتونة بسحر المكان.. فإذا كان الماضي لا يعود فحسبنا منه بالأثر والذكريات.. فهي زادنا الذي يمنح شعاب الروح التشبث بقنديل الحياة الذي لا ينوس..

لقد اطّوَّفْتُ في معاجم اللغات السامية علّي أجد أصلا اشتقاقيا غير عربي لاسم المكان برقش، فما وجدت فيها ما يقترب من الاسم إلا في الأرامية، إذ يرد حرف الشين أو الواو والشين علامة تصغير في نهاية الكلمة فيكون الاسم من برق ملحقا بأداة التصغير الشين. ولكن مع هذا تأويل نخشى الدخول في دائرة الوهم. وفي العود المحمود إلى معاجم اللغة العربية، مثل لسان العرب، نجد ما يروي الظمأ ويشفي الغل.. ويقترب بنا من كبد الحقيقة، ويعفينا من الدخول في دوائر التخمين والتهويم والزلل إذ يرد في اللغة العربية الفعل بَرْقَشَ، بمعنى هرب، فإن كان ثمة ما يهرب في محمية زوبيا فتلك الطيور والحيوانات البرية النافرة في أسراب السحر والجمال، ولكننا لا نطمئن إلى هذا المعنى، فنمضي مع صاحب لسان العرب ننشد المعنى الصراح، لنجد كلمة البِرْقَشَة، وهي التلوين بألوان شتى، فالنبت إذا لُوِّن سمي برقشة، وليس أبلغ من واقع الحال في الغابة التي حباها الله بتنوع بناتي والوان

أزهار برية تكسوها سجادة مزركشة ومنقوشة بسحر طبيعي أَخّاذٍ. وتقول العرب تبرقشت البلاد إذا تزينت وتلونت.. ولما كانت الغابة على ما هي عليه من سحر وجمال فإن اسمها يطابق ما يمضي به ابن منظور بقوله: "تركت البلاد براقش أَي ممتلئة زَهْراً مختلفة من كل لون؛ عن ابن الأَعرابي؛ وأَنشد للخنساء: تَطِيرُ حَواليَّ البِلادُ بَرَاقِشاً، بأَرْوَعَ طَلاَّبِ التِرِّاتِ مُطَلِّبِ".. فيا لأرض المحمية وهي تَتَبَرْقَشُ اخضراراً.. ويا لذاك الطائر الصغير من الحُمَّر المتلون الذي ينعته العرب البرقش.. فبأيها سميت الغابة وبأي دلالة تحلّت.. فإنه عربي تنسجم كل دلالاته ومعانيه مع اسم المكان برقش، والذي يسمية السكان المحليون بالظهر لإشرافه وعلوه عما حوله.

إن الأمكنة الأردنية على اختلاف أعمارها ومواقعها وهج أُنْسِنا.. ودثارنا الحنون.. نتعلق بهدبها تعلقنا بإشراقة شمس ربيعية.. هي بعض من حقيقتنا.. كفل حياتنا.. حبل وصلنا الذي لا يتراخى.. نمده درب مسافاتنا على شغب الطفولة الندي.. نمدة درب مِضيٍ تارة ودرب عودٍ تارة أخرى.. وليبقى الوطن يقين اقتراب الخطى من ملاعب الصبا.. فالأماكن الأردنية حُجرات قلوبنا لو ندري.. قِبلة مشاعرنا.. كم كادت ذواتنا تنفلت من عقالها فيَحُزُّنا الضياع لولا حدبها وهمسها بأسمائنا التي نحب... ففي الأماكن التي نألف نمتطي الوجد شوقا يرتد صداه

في كل الفصول عنوانا للدهشة.. ومذاقا للانعتاق.

طبقة فحل.. ويوم ذات الردغة

فهل مثلهم فينا في الحروب القعداء؟.. حيث الخيول الجرد في ساح الوغى علم.. ساعة تُصافح النفوس المنايا.. ففي فحل غدا الأفق " كليلة ذي العائر الأرمد" وأضحى التمني غنيمة الأياب.. ساعتها انبرت السيوف المسلولة.. رجال ما جبنت خيولهم وما اصابها جفل.. فسار أبو عبيدة من دمشق بعد فتحها إلى فحل في غور الأردن "يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد".. وقد جعل خالدا بن الوليد على مقدمة الجيش.. وهو من مادت الأرض بمن عليها لغضبته في سبيل الله أيام الأردن في مؤتة واليرموك وفحل. وكان أبو عبيدة قد أمّر على الناس شرحبيل بن حسنة، وهو الذي إذا القوم قالوا: مَن فارسٌ؟ عنوه.. وقد ظل مقامه شاهدا على أنه صاحب الأردن تعشقته الأرض وعشقها فاطمأنت روحه الطاهرة بجوار الأردن وصحبة معاذ وزيد وجعفر وقافلة الحق في أرض الصحابة والرسالات والأنبياء.. وقد نال يوم فحل شرف الانتساب إلى قافلة الخير والنصر.. حين حدا في الركبَ ضرار بن الأزر وعمرو بن العاص وعياض بن غنم.. ولقد كان عمر بن الخطاب يَكِلُ أمر الحرب إلى عياض في كثير من أيام المسلمين لخبرته.. فقد ولي قيادة جيوش الفتح في الجزيرة الفراتية بعد وفاة

أبي عبيدة عامر بن الجراح، وكان ابو عبيدة قد طلب من ابن الخطاب ضم عياض إليه بعد عودة خالد بن الوليد إلى المدينة، وهذا مؤشر على ما لعياض من وزن يوازي ما لخالد.. فهم من أنبأتنا الأيام والصحف البيض أنهم يغشون يوم الوقيعة الوغى ويعفون عند المغنم.. فلما ظن الروم أنهم مباغتيهم من جهة بيسان تصدت لهم سيوف الحق وقد آلى شرحبيل على نفسه يومها ألا يبيت إلا على جاهزية.. فناجزوهم ففاقوهم قوة وإيمانا وتحقق لهم النصر في فحل.. وطاردوا فلولهم فأدركوها في الرداغة، حيث الوحل قد أجهد خيل المسلمين، لكنها شهدت مقتل الألوف من أراعنة الروم. فبعد اليرموك بعام وَهِمَ هرقل أنه سيوقف الفتح في بلاد الشام، فاحشتد جند الروم في غور الأردن قرب طبقة فحل.. ولقيهم كبار الصحابة في واقعة عرفت بواقعة فحل أو يوم الردغة، قضى فيها المسلمون على القوة الرومية في بلاد الشام. وفيها قال القعقاع بن عمرو التميمي:

كم من أبٍ لي قد ورثت فعله، جمٌّ المكارم بحره تيار/ وغداة فحل قد رأوني معلما، والخيلُ تنحطُ والبلا أطوار/ ما زالت الخيل العراب تدوسهم، في حوم فحل والهَبَا موار/ حتى رَمَين سراتَهم عن أسرهم، في روعةٍ ما بعدها استمرار.

في فحل لا تخونك الرؤى.. وتقطف من الأشياء بواكيرها.. ففي مرقى الصعود إلى ربوات المجد.. تختنق الحروف في الكلمات.. تنفلت لتعبر فوق الجسور العتيقة خيولا تصهل ساعة الفجر تنبئ باشتعال الضاد في قناديلها.. تلك التي أضاءتها جمار عمرو وعياض وخالد والأصحاب.. يوم ردغة الوحل الذي تمرغت فيها قامات روما.. وأضرمت لغة الأرض نارها في كل النهايات من واو وسين..

ولقد عرفت كتب التاريخ والجغرافيا اسم كورة فحل من أجناد الأردن، والتي تقع بقاياها الأثرية على التلال الشرقية لوادي الأردن، كما عُرفت تاريخيا واحدة من المدن العشرة الديكابوليس، وقد حَرَّفَ الرومان اسمها السامي فحل إلى بيلا ، بجعل الفاء شفوية والحاء لغيابها في الأبجدية اللاتينية هاء.. وقد ورد اسمها في النصوص الهيروغليفية على شكلين؛ السامي في فحر وفهل، واللاتيني في بيللوم، وقد دللت الحفريات الأثرية على تواصل الاستيطان فيها قرابة ثمانية الآف عام منذ العصر الحجري الحديث. وفي المنحى الاشتقاقي فإن فحل اسم كنعاني قد ييحاكي ما جاء في النصوص المصرية على صيغة فحر، وقد تطورت صيغته اللغوية إلى فحل في الآرامية، وربما عكست التسمية دلالة الخصوبة، وهي ما بتطبق واقعا على كثير من أرضي الوادي، وفيه محاكاة للفحولة والخصب في الكائنات الحية جميعا. وقيل ان

بيلا قد تسمت بهذا الاسم تيمنا باسم مدينة بيلا اليونانية مسقط رأس الاسكندر المقدوني، فأيا كان اشتقاق التسمية ومهما كانت دلالتها فإن طبقة فحل شهدت ازرهارا وعمرانا كبيرين في مراحل تاريخية مختلفة، وقد اسهم الموقع المميز على طرق التجارة بين مصر وبلاد الشام، والموقع العسكري الاستراتيجي والأرض الخصبة في تلاقي المجد والتاريخ على عتباتها، والمخلفات واللقى الأثرية شواهد مادية دامغة على ما ورد في أسفار التاريخ الكلاسيكي والعربي الإسلامي على دور المدينة في البناء الحضاري الأردني خصوصا والشرق القديم عموما في الفترات الهيلينستية والرومانية والاسلامية.

في تلكم الأرض منذ النبل الأول.. عرفت أسفار التاريخ أن للأرض أبا واحداً وأما لا يشبه قسماتها سواها.. وفي تلكم اللحظة .. مذ شق النبل جدر الهواء نحو الضفة الأخرى فلق الأحرف عن واو وسين.. وأعاد للكلمات حروف الحاء والطاء.. وجلجلة الضاد.

وفي تعاقب الأيام صارت الأرض تعلن إرثها.. ضرعها وزرعها.. وخطى الإياب.. وأنفاس الصباحات.. والغاديات بما تريد وما لا تريد.. فإذا فحل.. طبقات تناجز طبقات في التسامي لقطف النجوم... وإذا بذاك المنخفض السحيق.. يخبئ فلسفة العلو في حكمة التواضع..

في تلكم الأرض امتلك الوادي السنا.. وتمتمت ضفافه بالمعجزات.. فالخطى شرف النبوة بين عيسى ويحيى وإلياس.. والمجرى قداسة أنهار بين الأردن واليرموك.. والثرى أديم طاهر انجبل بدماء الصحابة والشهداء من اليرموك إلى أجنادين وفحل والكرامة.. ففي فحل وعلى امتداد غور الأردن دفن الآف الصحابة الذين استشهدوا في غزوات ومعارك الاسلام، ومنهم من وافته المنية في طاعون عمواس، فيرقد في الغور قادة فحل عامر بن الجراح وشرحبيل بن حسنة عامل الاردن وفاتح غوره، وضرار بن الأزور الشاعر والفارس المغوار شقيق خولة... فحكاية الوادي إذن عبير مسك ونضارة أقاحين.. نجنح فيه صوب نخل الأرض.. وظلال البيارق..

وادي الشلالة..

حضور التاريخ وانزياح الواقع

تنوخ أشجار الزيتون فوق الأرض الطيبة، تؤطر جبنات الوادي بالأخضر المبارك، وتعلن مواسم الزرع والحصاد رحلة الأرض الربيعية منذ كانت حوران تملأ كواوير وأهراء روما قمحاً وتعمر خوابيها بالزيت..

ويشكل وادي الشلالة حداً طبيعياً بين منطقة الرمثا من جهة الشرق وقصبة اربد وبني كنانة من جهة الغرب، ينتظم عدداً من المواقع الأثرية والتاريخية والحواضر والقرى المأهولة على جانبية، وهو شاهد على تاريخٍ يعود إلى العصور الحجرية والبرونزية، فما زالت المؤشرات الأثرية المادية تنبئ عن حضور المكان واهتمام الإنسان به منذ تلك العصور.

هناك تصحو المواسم على نشيد الأرض والشجر.. ويستفيق زُرّاعُها وآذان الفجر يسبِّحون حمد الخالق ويشكرون نعمته.. أنها الطيور تُطلق أجنحتها وقد شقشق الفجر ضياه في فضاء الوادي وعلى جدائل السهوب.

في حوالى القرن العاشر قبل الميلاد سكن الآراميون المناطق الداخلية من بلاد الشام، في سوريا والأردن، وقد تمثل شاهد هذا التواجد في أسماء القرى والمدن في شمال الأردن، والمجاور بعضها وادي الشلالة، مثل بشرى وسال وعلعال وملكا وربما عمراوا، وتدلل الشواهد على تواجد الرومان والبيزنطيين والدولة الاسلامية في عهدي المماليك والعثمانيين في خرب وتلال الوادي الذي يعد أحد روافد نهر اليرموك، حيث يسيل مجراه أيام الشتاء الماطرة صاباً في النهر. ويتراوح الوادي ارتفاعاً بين أربعمائة إلى ست مائة متر، وقد جفت كثير من عيون الماء السيالة فيه نتيجة الاستخدام البشري الكثيف وقلة نسب مياه الأمطار، ولم يبق منها غير القليل مثل عين القطارة والشلالة.

وكم نستذكر قبل هجمة التحولات على تضاريس منطقة الوادي، والجور على أرضه الطيبة المعطاءة، ما كان ينبت فيه من كنوز نباتية برية لا بد أن في بعضها فرادة عمن سواها، وطيور الحسون والحجل وسواها، وكيف أنها فَزِعَت أو اصطيدات فاختفت إلى غير رجعة..

ينتظم وادي الشلالة سلسلة من المواقع الأثرية التي تعكس الاستيطان البشري فيه من آلاف السنين، وهي مواقع تقع على ضفتي الوادي مباشرة أو في المناطق المجاورة القريبة.. فما كانت كرومه ولا سهوله عرايا يوما.. تنتشي على هَمِي مزمار الشتاء.. فعلى خرير

ينابيعه كانت أشجار التين واللوز والرمان تسبل الأغصان.. وتسلم روحها لعليل النسائم.

الرمثا المدينة الرئيسية في سلسلة الوادي، تعود مخلفاتها الأثرية إلى فترات تاريخية مختلفة مثلت الآرامية وممالك شرقي الأردن في العصر الحديدي واليونانية والهيلينية والرومانية، والعصور الاسلامية المختلفة. وتشير صيغة التسمية إلى اشتقاقه من الآرامية، من الجذر رام، أي علا وارتفع، مع النهاية ثاء، وهي علامة التأنيث السريانية مُعَرَّفةً بالألف اللاحقة لها.

هنا.. على ضفتي الوادي تسكن البلدات وادعة تؤنسها الأقمار، ويرويها سقيا الغمام.. ففي الطرة وجدت مخلفات أثرية تعود إلى العصور الكلاسيكية والإسلامية، وبرزت في الفترة المملوكية محطة مراقبة ونقطة بريد بين مصر والشام في عهد السلطان الظاهر بيبرس. وفي بلدة الشجرة تشهد خربتها إلى الشمال الغربي، على ضفة الوادي الشرقية، والمعروفة باسم خربة ماجد، على تنوع الاستيطان البشري، فقد دللت الشواهد الأثرية التي وجدت على السطح أو من خلال الحفريات على أنها تعود الى العصور الكلاسيكية والإسلامية. ويستمر انتظام الوادي للمواقع والقرى حيث نشاهد في بلدة عمراوة مسجدا قديما يعود إلى العهد العثماني، ولعله بُني في فتراتها المبكرة

أو في العصر المملوكي المتأخر، وقد قام على انقاض موقع أثري بعض شواهده من أعمدة وحجارة بازلتية وتوابيت قبور ظلت ماثلة حتى وقت قريب.

إن الدروب والضفاف في فضاء الوادي سكن النفس والروح.. واشتعال الذكريات.. وتوارد أطياف وخواطر وأحداث.. لا يمَلُّك المكان هناك، ولا تَتَنُكَّص في التردد عليه.. فيه بعض حكايا العمر.. وخطى شرخ الصبا.. وأولى نقوش الذاكرة التي تقتحم على المرء صورته التي كانت..

أما مِن الخرب الأثرية فنجد خربة العدسية إلى الشمال من عمراوة في وادي المدان، وخربة المصاطب إلى جوارها من جهة الشمال الغربي، وفيهما بقايا شواهد على العصور الكلاسيكية والاسلامية. ويمثل تل أم جرين "أم الرجلين في الاشتقاق الشعبي"، وخربة الحويرة واليصيلة وخربة المغير مناطق أثرية وتاريخية مهمة ارتبطت بمدن الديكابوليس والعصور الاسلامية المبكرة والمتأخرة.

لقد كان وادي الشلالة وتفرعاته يعودان بالأرض إلى فطرتها.. بتولا.. تنثر نباتات البرية ألوانها وعبقها على مراياه والسفوح.. في ذلكم الوادي لا تشعر بالوحشة والوحدة وإنما تسكنك الوداعة والألفة.. لتسكن إلى شعب فيه أو ظل شجرة أو تبسط الأرض أخضراً بزركشات

الأزهار.. تجاورها وتناجيها..

يعتبر وادي الشلالة جزءاً من التشكل الطبيعي الجيولوجي الذي يمثل أحد تفرعات حفرة الانهدام، وهو رافد مهم من روافد نهر اليرموك، يمثل نقطة التقاء الجيوش الاسلامية معه في منطقة المقارن، فالوادي يعج بالحياة منذ عصور ما قبل التاريخ، ومضى ليرتبط بالمدن العشر المشهورة بالديكابوليس، حيث قربه الشديد من بيت راس واربد وايدون وام قيس، وتشير الشواهد إلى صلته بتلك المناطق عن طريق سلسلة من الممرات والانفاق.. وقد نال وادي الشلالة وما ينتظم من مواقع مكانة مهمة في وقوعه على طريق الحاج الشامي إلى الديار المقدسة في الحجاز وفلسطين. وهو في منظور الأقاليم والتقسيمات الإدارية على تماس مباشر مع مناطق بيسان وحوران والجولان، حيث تعاقب إداريا على أغلبها، فهو تارة ضمن حوران، وأخرى ضمن الجولان، وفي فترة الأجناد تَبِعَ أجناد الأردن مع بيسان ومناطق شمال فلسطين والأردن.

ضفتا الوادي تبدوان في مواسم السنة الربيعية والماطرة من أكثر المناطق خصباً وخضرة وجمالاً، وقد اشتهرت ضفافة بزراعة أشجار الزيتون والمحاصيل الصيفية والشتوية، وكانت الينابيع تتفجر فيه متدفقة على المزارع التي تقع على أطراف مسيله أو أوديته الفرعية؛

اليصيلة وراحوب والشومر وشيحا ووران والقطارة.

وقد أسهم المسح والتنقيب الأثريين في موقع الشلاف وأم جرين واليصيلة والزريقون وخربة ماجد في التأكيد والتدليل على بوادر استيطان بشري يعود إلى العصر الحجري الحديث والعصر الحجري النحاسي والعصر البرونزي والعصور الكلاسيكية والإسلامية المتعاقبة. أما ما يمكن مشاهدته من آثار في مواقع وادي الشلالة المختلفة، فالكهوف والمدافن الصخرية، وبقايا معاصر العنب في اليصيلة، والأحواض المائية والقنوات، والأرضيات الفسيفسائية في خربة ماجد والأسوار التحصينية وبقايا المعابد وأماكن التقدمات علاوة على اللقى الأثرية الصلصالية والفخارية، وبقايا البيوت الطينية ذات الأرضيات الغطاة بالملاط الطيني في الزيرقون.

وتظهر عند التقاء وادي الشلالة وتفرعاته بوادي اليرموك في منطقة المقارن في الذنيبة سكة الحديد الحجازي، ونفقها، ماثلة للعيان، ويبدو سد الوحدة المائي من شفا الوادي الشمالي الشرقي حيث قرية الذنيبة منتظراً تخزين مياة الأمطار التي ترفده من سيول وادي العلان والشلالة وتفرعاته والشريعة في فصل الشتاء.

هنا في وادي الشلالة كتبنا أحلى قصائدنا.. وحمَّلنا حجارته ومسيلة وعيون مائة أجمل أسرارنا.. وارتبطنا بالأرض التي تعلمنا

منها فلسفة الصعود والهبوط وتناوبهما.. وأن المنال قريب ولكن بعد مغالبة ما يعترضك من عقبات.. أحببنا في قراه ومدنه والناس.. حيث كان الكبار كباراً.. نُقبِّل أيديهم.. ونترحم عليهم.. وعلى ذاك الزمان الجميل...

الطريق بين رأس النقب والراجف

درب يوقظها الشتاء على لون الأبيض الذي يكسو الأفق العالي، فوق سلاسل الشراة، حيث يتعشق الثلج القمم وهي ترقب بوابة التاريخ من بترا إلى سبأ، ومن إرم ذات العماد إلى عتبات الحرف المسندي في صرواح.

في الطريق بين رأس النقب والراجف تشتعل الحروف الثمودية منذ عشرات القرون، تسكن قارعة الطريق مشاعل لقافلة النوق إلى بترا، وفرسان ثمود وهم يحرسون الأفق والمدى.. هناك مكثت مجموعة نقوش ثمودية في موقع عماده رجوم حجرية، اعتدنا عليها في مواطن النقوش العربية الشمالية، الصفوية والثمودية. ففي الموقع الذي يدعى "رجم الدَّم"، حاك الصخر حروفا ثمودية، ظلت تحفظ ملامح أهلها، قابعة على يمين الشارع المعبد بين رأس النقب والراجف. وعلى الجهة المقابلة منه إلى الجنوب، سلسلة جبال الشراه، حيث الأعالي التي لا تنتهي فوقها السنوات والعقود والقرون فلا تمل الانتظار.. تظل تكتب سفر الناس وأسماءهم وعن القوافل والركب وعن عدد النوق وعن الروح والجسد وكل ما يعمر الجنوب.

إن منطقة تقع بين الشراة والنقب وبتراء مؤهلة لوجود نقوش ثمودية فيها، فهنالك آلاف النقوش التي تنتشر في منطقة النقب والحسمى ووادي رم، ولعل هذا المكان المُشرف يشكل نقطة مراقبة تطل على امتداد جبال الشراه، وحافة الصحراء الشرقية، ولذ فإننا نخال أن أصحاب هذه النقوش هم من آهلي الثكنات العسكرية التي أوجدتها السلطة الرومانية، كوحدات مساندة من القبائل العربية.

وها هي رسوم الزمن وخطوطه توقظ التاريخ الزاهي.. والأنفاس المتلاحقة كدحاً وعملاً وبناءً، فقد علت مجموعة نقوش ثمودية واجهة صخرية شبه ملساء، ملاصقة لرجمين حجريين بازلتيين كبيرين، بدت المداميك السفلية لهما واضحة، مما يدفع إلى الاعتقاد بأنهما قبران بنائيان. وفي الجوار بقايا سور طولي في مدماكين، وبطول ثمان مائة متر يتجه شرقاً وغرباً، وفي ذلك إشارة إلى الاستيطان بموقع تتبدى أهميته بمجرد المرور إليه.. حيث يعلن أن صفحة من التاريخ قد سطرت أحرفها هنا.. وأن يدا متمرسة بالحرف العربي الثمودي هي التي نحتت الصخر.. وخلدت الذكرى، فمنذ ذلك الحين والطريق لا يسترخي من تعب، ولا يعاف أهله من ضجر، فرائحة الصهباء تحية صباحاته.. وتجديد لمشرق الشمس التي تمر كل يوم توشِّحُ الذرى بجدائلها.

أما في الجهة الشمالية الشرقية من موقع النقوش، فتوجد مخلفات إنشائية ذات حجارة كبيرة الحجم، وتظهر واجهة صخرية محاطة بسور ذي أربعة مداميك، حجارته متوسطة الحجم، تتقدمها إنشاءات معمارية على شكل ممر يوصل إلى هذه الساحة، وعلى الجانب الجنوبي من هذا البناء يوجد صهريج مائي كبير لتجميع المياه.

أما إلى شمال موقع النقوش، وعلى بُعد مائة وخمسين متراً، تتواجد بقايا خربة تتوسطها ساحة، يبدو فيها بناء بأربعة مداميك من الحجارة الصوانية، مسقوف، يبدو أنه يعود إلى الفترة العثمانية، ويستخدم من قبل بدو المنطقة لتخزين أعلاف المواشي.

رغم كل تلك المسافات من الأعوام ظلت الحروف التي نقشت فوق جلاميد الصخر تعيد قصة العرب الذين جابوا المكان على سعة أفقه من وادي القمر إلى أم البيارة وجبال حسمى والشراة والمريغة.. فلم ترحل حكاياهم ولم يبهت لون حروفهم.. وظل طيفهم في رسمهم ونقشهم ليعلن الزمان والمكان والذاكرة قصته العروبية روحاً حاضرة وفعلا باقيا متجدداً.. فلتقرأ نقوشهم إذا على قبورهم، على ضفاف الوهاد والوديان وعلى الذرى.. إنهم العرب من ثمود وبترا.. ما محت خطوهم ولا آثار حروفهم الريح ولا غارت ذكراهم في تلافيف الزمن وما ابتلعتها الأرض خطى عابر سبيل.

لقد نُقِرَ نقش وائلة على واجهة صخرية بازلتية كبيرة، ذات سطح خشن نسبيا، تَخَيَرَّ الكاتب منها الجزء الصالح للنقش فوقه، وقد تعرضت الصخرة بفعل عاديات الزمن للكسر إلى نصفين فذهب الكسر بحرف البداية اللام.. " (ل) وائلة".. وقد جاء هذا النقش القصير مرافقا لنصوص أخرى على ذات الحجر، فكتب من اليسار تجاه اليمين، ليبدأ بعده مباشرة نقش ثمودي آخر، وقد علاه كذلك السطر الثاني من النقش المجاور. وجاءت حروف النقش واضحة جيدة الكتابة، ولولا ذهاب حرف البداية اللام نتيجة الكسر لاكتمل النقش. ويظهر إلى يمين النقش شكل دائري يفصل النقشين، وبتفحص الصخرة اتضح أن الشكل الدائري قد تشكل طبيعيا ولا يندرج ضمن حروف النص.

وجاء النقش الثاني على ذات الصخرة التي نقش عليها النص السابق، حيث يبدأ النقش بعده مباشرة من اليسار نحو اليمين ثم يعلوه سطر ثان من اليمين إلى اليسار، وقد جاءت الحروف بذات اليد التي رقمت النص الأول، فبدت واضحة مقروءة، لم تنل الثقوب الصغيرة على جسم الحجر من شكلها.. فأي سواعد تلك التي شُغلت بنقش الحرف على صمم الصخر.. فأنطقها أسماء سَيفه، وغيل وزيد الأشقاء بدلالة لفظة ابن فاصلة بينها.. وكم استحمت هذه الحروف بهمي المطر

الجنوبي.. وها نص آخر جديد رُقِمَ على صخرة رملية كبيرة، إلى يسار صخرة النقشين السالفين، ورغم خشونة سطح الصخرة، فإن الجزء العلوي المخصص للكتابة صالح للنقش فوقه، فمن زوايا الصخرة الصوانية السوداء ومن على صفحتها الخشنة، تلمس النقاش جزءا مناسبا للكتابة لتنبعث الحروف من غورها.. تبث روحها فوق المكان.. تعلن اسم زياد في نص ثالث وقد انتسب لوالده غُيَيثة.

ويتجلى لفظ الجلالة في حضوره الأزلي حارسا مباركا لتلك الدروب التي ما انتابتها رخاوة.. ولا أصاب أهليها خورٌ.. فمن ذات المكان ومن عصور ما قبل الاسلام أعلنت نقوش الطريق عن أسماء مركبة حفظت لفظ الجلالة من أيام ثمود.. فعرفنا منها، في حصيد الكلام وشهقه الحروف، الأسمين سعد الله ووهب الله.. فدرب السعادة هبة الله في حضور اسمه العظيم في المكان والطريق العامرة بأهلها منذ القرون التي سبقت الميلاد.

لقد أضافت النقوش الأثنا عشر إلى قاموس الأسماء العربية الشمالية عشر أسماء جديدة، واسم قبيلة لم تذكرها النقوش الثمودية من قبل. وندرك من خلال أشكال الحروف أنها من القسم الثمودي التبوكي الذي يؤرخ ما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين، وهو ما أسماه بعض الدارسين بالنصوص المختلطة، أو الصفوية الجنوبية. وقد

حفرت هذه النقوش حفرا غائرا على واجهات بازلتية كبيرة، ظهر أنها كُتبت في وقت متزامن وبيد متمرسة، وقد ظهر على أشكال حروفها التجانس الذي يوحي بأن كاتبها واحد. وقد رافق بعض هذه النقوش رسومات حيوانية، فجاء إلى يسار النقش الثامن رسم غير مُتقن، لعله رسم ناقة، بينما رافق نقشاً آخر رسمان، يبدو الأول وكأنه رسم كلب، أما الثاني فهو أقرب ما يكون إلى رسم النعامة، دون الجزم بذلك.

وبعد.. فإن الطريق بين رأس النقب والراجف مليئة بالمشاهد التي تُحضر الذاكرة حية.. تخبرنا عن ولادة الممالك والحضارات.. وهي حين تروي لنا قصص نهوض آدوم وبترا.. تستند إلى حقائق التاريخ وشواهده.. وإلى التراكم المعرفي الذي تكتنزه المواقع من نقوش وعمائر وغيرها.. ففي تلك الطريق تجد متعة الحقيقة وصدق الذاكرة.. ومنتهى الجاذبية في تلمس المرجعيات التي تشكل الهوية.. تلمسه في نبض النقش واشتعال الحرف على ظاهر الصخر والحجر.

وادي الحسا.. فضاء الرحابة واليناع

أيتها الناقة التي أَشْعَلتِ حروفَ الشعر فيمن حَمَلْتِ رَحْلَهُ من بطحاء مكة "مسافة أربع بعد الحساء".. أوتشهدين على الندى وزهو الحضور؟ فقد طاب المشرب.. ورفّ على المبسم بَشُّ اللقاء.. غُذِّي السير أيتها الناقة فالحسا بوابة الشهداء نحو مؤتة.. ها هي مطيهم وخيلهم تجوس المكان.. يسبقهم توقهم إلى الجنة.. مرّي سريعا نحو الحسا بابن رواحة.. فكم تبتغين من النشيد وترداد القريظ..؟ "إِذا بَلَّغْتِني وحَمَلْتِ رَحْلِي".. هنا دم فروة.. أولم يأتك ما أبرق الجذامي لسلمى: "ألا هل أتى سلمى بأن خليلها، على ماء عفرى بين إحدى الرواحل".. غُذّي السير فما دمي سوى سقيا ظمأ لسعفة الرماد.. وأرض اربدّت على مسايل عفرى إذ أنشد الشهيد: "بلغ سراة المسلمين بأنني سَلْمٌ لربي أعظمي ومقامي".. أبرقي يا ركوب عبدالله.. فالروح تنهمر توقاً لفروة والأصحاب..

ولقد طال الدهر بأوابد الوادي.. وطاب لحكاياته عبق الرياحين.. وظلت عيون الماء تتلهف لذاك السهل المطمئن، صابَّةً في غدرانه.. تنعش ذاكرة الحجر المنتصب شاهداً على حضارات الشعوب التي تعاقبت على المكان محتسية التراب استنباطاً للماء.. فما فتئت العرب تقول

احتسينا حسياً أي أنبطنا ماء حسي.. وليس صدفة أن يكون هذا التوارد اللفظي مع الحسي واستنباط الماء، وبين الاستنباط والعرب الأنباط.. وتشهد مواقع الوادي الأثرية على فعلهم الحضاري المجلي. وفي تجوال الفكر والخاطر في لسان العرب لابن منظور نقرأ في معنى الحِسّي: "الرمل المتراكم أَسفله جبل صَلْدٌ، فإِذا مُطِرَ الرمل نَشِفَ ماءُ المطر، فإِذا انْتَهى إِلى الجبل الذي أَسْفلَه أَمْسَكَ الماءَ ومنع الرملُ حَرَّ الشمسِ أَن يُنَشِّفَ الماء، فإِذا اشتد الحرُّ نُبِثَ وجْهُ الرملِ عن ذلك الماء فنَبَع بارداً عذباً".

تتدثر عيون الماء ومسايل الأودية والغدران بتلك الوهاد والتلال.. تجري عذب نمير احتساه العرب من بني أسدٍ.. وروّى الحجيج على فُرُشِ الحصى حيث ينزُّ السلسبيل.. فعاود مذاقه الرحالة النابلسي والسنوسي والصفدي واصفين حث الخطى إلى شرفاتها.. بلَّ صدىً من قطر الندى!

تحمل النظرات إلى تلك التّلال والإكام ما يكفي من الحبور.. ويبعث ذاك المَفْرَج بين الجبال شعور الاحتماء.. واتساع المسلك.. ففي مسيل الحسا منافذُ تحرسها الشواهق.. ومجرى نميرٍ ضافٍ الجنباتِ غدقُ.

منذ قرون وحمامات عفرى والبربيطة الهادئة والوادعة تكتنز بما حباها اللّه من معادن يستشفى بها، ودرجة سخونة معتدلة، تصل إلى قرابة خمسين درجة مئوية، تشيع الاحساس بالدفء والشفاء.. وهو ما منحها فعالية عالية في زرع الثقة والطمأنية لكل قاصديها.. وقد نشد الناس الاستشفاء فيها منذ عهد الرومان.. ولأمر ما امتدت يد القتل البيزنطية فيها إلى أول شهداء الإسلام في بلاد الشام فروة بن عمرو الجذامي!

هنالك.. في واحد من تفرعات وادي الحسا تريق الشمس لعابها.. ففي وادي اللعبان تنسج الأرض خيامها الصيفية اللاهبة، مُسيِّجَةً بالفراغ المطبق الحواسَّ.. تتهيأ موج سراب يتزاحم ركاماً سابحاً.. تسمع للظمآن فيه صدى لهاث.. ففي وادي اللعبان تُقسِم إن خطوة الفرار الأولى بدأت هنا..! لكنها الفصول تتعاقب كما تتعاقب الأفكار.. وتنداح المسافات.. فيدهمُ الوهمَ مُهرُ الحقيقة.. إنها الطريق السلطاني.. درب الملوك الذين ما أردت مراكبَ خيلهم الهزائمُ.. وإنها خربة الضريح النبطية.. بهاءُ نهارٍ خبأته خيوط الشمس قروناً قرب درب القوافل في رحلتها بين بترا وبصرى وبين مؤاب وآدوم.

أمام بوابة الزمن الأردني في وادي الحسا يستفيق التاريخ على شواهد الآثار التي تحكم القبض على لحظة الدهشة.. وعلى تهطُّل

قصص الذاكرة.. فمذ وهلة الإشراف على الوادي السحيق تتفتح أمامك شرفات الطبيعة الآسرة.. تأخذك تنهداته ومنحدراته.. وتَعانُقِ التلال باستدارتها وسطحها الأملس مع تفرعات الأودية والشعاب.. في وادي الحسا تحضر البيئة بكامل عناصرها تشكل روحا وجسدا وحياة.. وتفتح صفحتها لتقرأ جيولوجيا صخرية عجيبة بازلتية وجيرية ورملية.

لقد أسهم التنقيب المستمر في اللعبان بالكشف عن مخزون حضاري مبهر، يعكس نواحي اجتماعية واقتصادية ودينية وفنية ومعمارية فذة.. تسكنها روح الشرق وهندسة الحضارة.. في الخربة تتفرسك الدهشة.. وتقرأ في سفر التاريخ توهج الوادي.. وتكتشف في تقلب الحجر وعلى تراتب مداميكه أسماء الحارث ومالك وعبادة دونما نقش يرقم رسمهم.

هناك يهزك نداء التاريخ بكل اللغات ورطانة الشعوب.. فالمكان يحتضن رسم شعوب يممت شطر المشرق والمغرب، فكانت علامات الحضارة الهيلينية والبيزنطية والنبطية والعربية الاسلامية.

وينعتق المكان في ذاك المرتفع نحو الذرى والقمة ذات الصخر البازلتي البركاني.. فوق تلك القمة تهتف "نكون أو لا نكون".. وتستحق الشمس أن تتربع صدر السماء تصخي السمع لصوت التاريخ العربي

ﻓﻲ ذاك الحمى.. ففوق القمة يربض معبد خربة التنور النبطي.. هناك حيث لا تحاصرك الجدر.. وتمنحك الصقور فن التحليق والإشراف.. ويغمس ذلك اللون الأسود كيانك بمسوح الوقار.. هناك فقط تعرف أن شعور الحرية والانعتاق يعني أن تكون جنوبياً.. وأن ترتدي عباءة الحارث وعبادة.. وأن تعبر كثبان الشك إلى اليقين.

ﻓﻲ التنور يمور وجه الأرض.. وقود نار واشتعال حروف.. ورائحة خبز.. ومَفْجَر سائل قاني فوق قناة مذابح المعبد.. هناك تتجلى آيات الخالق ﻓﻲ قولى تعالى: "حتى إِذا جاء أَمْرُنا وفار التَّنُّورُ".. ففي محفل الوادي يحلو مثل قول الراعي:

فَلَمَّا عَلاَ ذَاتَ التَّنَانِيرِ صَوْتُهُ، تَكَشَّفَ عَنْ بَرْقٍ قَليلٍ صَواعِقُهُ

أما عن اشتقاق الاسم فآرامي الأصل منحوت من بيت نورا "بيت النار"، أو مركب من تن "دخان" ونورا "نار".. فهو يفيد ﻓﻲ الآرامية والساميات الأخرى ما يحوم حول هذه الدلالة ، ولعل اللون الأسود البركاني الذي يعلو جبل الخربة سبب تسميته بهذا الاسم اتساقا مع الاشتقاق اللغوي الآرامي.

وادي الحسا شريان وصلٍ، تمتدُّ مدائنُ الورد على ضفتيه.. حيث تُعنونِ الضفة الأولى وجه الزمان بمسلات النصر المؤابي، وتُعنونِ الأخرى صروح الحق الآدومي، إذ استعصى على الغرباء عبورها إلى

زِيَفِ التاريخ.. إنه الجنوب رمزية المبدع.. حُلم المسكون بالانعتاق.. تشابك الأسئلة.. حماسة الحوار.. إنه الامتداد صوب جميع الجهات.. يتقدم الأشياء جميعاً.. لا يساوم على ذلك.. سوى أنه يسابق الدنيا إلى الوطن.

في كل رابية جالت وفود الشمس تألف ساحها

ضانا.. لم يزل مسرى نداها يعلن الفجر على ضفة الروح واعتلاء السنابل.. فوق ناصية الأرض.. من هناك عرف الأحرار أزمنة الشهادة.. وساق الغمام عبق الرياحين على أكُفٍّ العذارى احتفاء بهالات البهاء..

إقرأ حروف الصخر والشجر.. رتل.. وَسَمٍّ اللّه.. "ومن دونهما جنتان، مدهامتان، فبإي آلاء ربكما تكذبان".. فمن أين تبدأ همسها ضانا؟.. وقد ساقت احلامها المترعات والأماني العذاب.. في كل رابية جالت وفود الشمس تألف ساحها.. تلتمس القبس مستأنسة أسفار مجدها وميلاد أقمارها.

ضانا أين مني بيناع الثمر؟ وأسرجة الأخضر الممتد إلى هناك.. خيولاً تَسْبَحُ في ملكوت اللّه.. عذراء تلاحقها الروح.. قبائل الزمان والمكان.. وأسراب القطا.. فاسرج خيولك يا صديق فأمامنا سفر طويل.. فمن فينان إلى اشتعال القناديل في ضانا.. دم المراق بلا أثواب حداد.. ذاك المعتمر قبس النور.. حيث العناق الأزلي بين دم الجذامي الشهيد وخضاب الأرض.

منذ عصور ما قبل التاريخ تنساب أنغام الحياة كل صباح في ضانا موقظة جاراتها بتراء والسلع وعفرا.. وعلى تلك الشواهق المشتعلة جمالاً ينغرس السرو متشبثا بالأرض من قرون تحرس نوادر النبات

والشجر التي تفرد بها المكان.. ترتل في محراب ضانا مجد الخالق فيما حبا.. وتقتفي في شوامخ المحمية على مداها الممتد صوب مجد الزمان ورحابة المكان تلك الأنواع النادرة من حيوانات البرية، النمر، والبدن، الوشق، والثعلب الأفغاني، والقط البري، والزواحف.. وقد تاقت ضانا لعباب الغيم ومدارات الأفلاك فحلق في آفاقها العقاب الملوكي والصقر والنعار.. وضحكت في أعشاشها التي تراود المكان قرابة الثمانين نوعا من الطيور.. فعلى الأرض سلام وفي الأفق جلال.. فضانا مهد البيارق من آدوم إلى هاشم.

ضانا انسجام أسطوري بين الجبال والوديان والمناطق الأقليمية الجافة وشبة الجافة في مناخات البحر المتوسط والمناخ المداري السوداني والطوراني مما منحها تنوعا طبيعيا وبيئيا تألقت فيها عالية أشجار البلوط والعرعر والطلح الاستوائي والرتم.. فيا لبواشق ضانا وهي تتقلب حيرى بين شرفات الهوى في أعاليها وبين صهوات الصفوان تعمرها أشجار عمرها بعمر المكان وأزمنة التحولات والاشتعال في تقلب الانسان بين الحجر والمعدن في فينان.

وقد أبى الحضور التاريخي والحضاري إلا أن ينسجم مع البيئة الطبيعية والحيوانية والنباتية في ضانا، وقد عانق الأنسان منذ العصور الحجرية صخرها وشجرها، فصار دأبا وديدنا عند الأردنيين توارث

هبة الله وسحر الجمال الآخاذ فحلت ضانا في عيون الأنباط وظلت مهوى فؤاد المسلمين بعدهم إلى يومنا.. وقد رأى فيها اليونان والرومان جناناً تفوق الوصف ومنبع عطاء إنساني غير في معطى المادة التي استخدمها الإنسان.. فعلى الحد الجنوبي من جهة الغرب للمحمية كان الأردنيون يصهرون المعدن.. فتستحيل أدواتهم الحجرية والصوانية معدنية نحاسية شكلت نقلة نوعية في التطور الحضاري في الشرق الأدنى القديم.

ضانا تحنان الطبيعة وسحر جمال وعطاء موصول لمن أحسن إليها، فقد جاء إنشاء المحمية تحديا لقدرات الانسان الأردني في ذلك الجزء العزيز من الوطن، فبرز فيها جهد تصنيع الفخاريات الموشومة بمظاهر الطبيعة المحلية وما تعكسه من نبات وشجر وحيوان، وتنبه أهل المنطقة إلى الثمار التي تجود بها أشجار المحمية فسوقوها، فكانت ضانا عصية على تقلبات المناخ طيعة بيد أبنائها تمنحهم الخير الوفير ما منحوها العناية والجهد، فتلك الربى والوهاد والمنحدرات الصخرية التي تنسجم بتناسق عجيب مع شجر السرو والبلوط والعرعر وحيوانات البرية على أنواعها تعلن البهاء والغنى والتنوع في الأقاليم النباتية والحيوانية فمن شاهق ضانا إلى أخفض بقاع الأرض يمتد سحر المكان وتتجلى عظمة الخالق ويعلن الأردن زهوه فيما حباه الله من جمال

طبيعة وطيبة أهل وحضارات ممتدة موصولة.

على تلك الربوة المطلة على ابداع الخالق فيما خلق وتجلي المنجز في عودة ألأهل حيث مراتع الصبا وأنفاس الخزامى في قصص الجدات وذكرياتهن يوم رفعن يدا بيد مع ازواجهن مداميك بيوت ضانا العتيقة المتجددة، حيث العود أحمد، حراسا للمحمية وللتراث وباعثين الأمل في غد مشرق يحمل الخير والعطاء والمنجز.. قرية ضانا تراث قرية أردنية عريق.. بيوتها المصطفة جنبا إلى جنب تشي بحميمية العلاقة بين الأهل والجوار، وتعلن انسجامها مع صخر ضانا وشجرها في تراصه وتناغمه بما لا يترك مجالا في تفضيل سواها عليها..

تنحاز ضانا إلى الجمال والتنوع صخورا ونباتات وحيوانات وطبيعة.. لكنها البتول العذراء في خدرها.. تدغدغ صخرها وأغصان أشجارها نسائم هبوبها رقيق عذب من سماء بلادي.. ومناخات البحر الأبيض المتوسط المعتدلة.. وقد حافظت ضانا على مروروث بيئي غني ومواقع أثرية وتراثية تعلن الفعل الإنساني من آلاف سبع خلون على أقل تقدير.. في فضاء هذا الأخضر الممتد ترسم الصقور والبواشق على صفحة السماء الصافية زركشات الريف وتلاوين أزهار البرية التي تعلن الحضور والتجدد في كل فصول السنة.

أثواب ضاناً البهية نسج قصيد واشتعال حروف.. تمنح العالم من حولها جمال ورود.. تستدير حوله أفقاً وفضاء.. تقلده وشاح الجمال.. وتصنع من غارٍ وسناء إكليل مجد القرون وصهيل الحرف في سفر الوطن.

تخضر أحلام ضانا في دي تيفلوس.. مدينة الكروم وبساتين الفاكهة.. أدمة الأرض.. حاضنة آدوم.. فيا للقوافي ونواصي الكلم حين تغدو على عتباتها فضاء ليزيد بن أبي سفيان وهو يقرأ أبجدية الحضور ودفء السهوب في رغبات الروح لقاء ربها مع الحارث بن عمير الأزدي وصاحبه فروة الجذامي.

ومن هناك فوق شاهق السلع ظل نابونيد حارسا على زهوة ضانا وندى هضابها.. فماذا نقش على سفح صخرها؟.. ومن يفك الرمز ويشفي الغليل؟.. ويفتح نوافذ التاريخ على مخبوء مدينة الكروم التي نسجت حرير الضحكات عند حسناوات آدوم.. ولونت وجه القمر بأسرار ربيعها.

وادي فينان..
دهشة التعدين الأولى في الشرق القديم

ترى كم من الأهلة راودت نفسها على ذات المكان؟.. وكم وشوش هديل اليمام أفنانه؟ إنه الجنوب يرقى إلى شرفات الروح شذى رياحين..، وشدو نايٍ يسبح في فضاء الغمام.. فطوبى لتلك الدروب التي بدأت في فينان أولى خطوها.. وارتحلت منذ الألف الرابع قبل الميلاد صوب أرض الكنانة وييمت شطر دجلة والفرات..

فينان انسدال أفياء فوق ظفائر ضانا.. وانغداق عيون أحصت قروناً سلسبيل صباها.. فلم يشأ كل ذاك الوقت الموغل في التناهي والقدم أن يُربد تربتها.. أو يُفني أخضرها.. أنها فينان حيث الاتساع والرحابة ففي أخضرها الممتد في الأرجاء نسبح فلا يدركنا البصر.. لا من هرج أو مرج بل من انبساط وتناهي بين أقاصي حدود الدار والمحمية.

لقد استغرق مخاض الوصول إلى المعدن ألفياتٍ عديدة.. وتكاد تغيب في رحلة الحقب هذه مؤشرات الفعل الانساني في فجوات حضارية ومعرفية تنثال فيها أسئلة الحيرة.. ويعمل التخمين والفرض حدا يقرب بنا إلى الخيال والاسطورة والخرافة لجسر هوة نتوق فيها إلى معرفة أُسِّنا الأول، ومَنْ تناسلنا في رحلة الحياة غفلا عن مدركهم.. وفي رحلة الإنسان من عصور البدأة وحيرة التشكل والتكوين والمدرك ورحلة

الصدفة ودهشة الكشف على بداءته وبداهته.. ونستجمع من على سطح الكوكب ما تبعثر وتبقى من أثر تدخل فعل الكائن الحي في تشكله شكلا مُعدَّلا عن فعل الطبيعة.. وهي لحظة نادرة تلك التي تشكل فيها وعثرنا فيها على أولى خيوط الفعل المعرفي المدرك.. والذي أخذ يتراكم بناءً معرفيا في ألفيات تلت.. جَوَّزنا لأنفسنا فيه منح ذلك الجهد سمة الفعل الثقافي. إن تقنيات الإنسان الأولى تتمثل في أدوات بسيطة صنعها من الحجر أسهمت في تعاطية مع البيئة المحيطة، وكان دافعه إلى ذلك الحاجة وصراع البقاء، ومع الألف الرابع قبل الميلاد كان جنوب الأردن على موعد مع فينان الغنية بالمعادن، فحفر أفران الصهر على درجات حرارة عالية، فصهر النحاس واستبدل به أدواته الحجرية، وقد غدت البيئة من حوله مطواعة لأدواته الجديدة أكثر مما سبق.

لقد ظل المكان عامرا منذ العصور البرونزية والحديدية فيما بين ألفين ومائتين والف وثمان مائة قبل الميلاد حيث انتقل فيه الإنسان من استخدام الحجر إلى التعدين فصهر الأردنيون آنذاك النحاس في أفران ضخمة ما زالت شواهدها ماثلة، تحكي قصة التحولات الكبرى في الشرق الأدنى القديم حيث أدركت الأمم والشعوب أهميته فتعاقب على المكان الرومان والأنباط والبيزنطيون والعرب المسلمون على تتابع عهودهم.

ولعل فينان في اشتقاقها عربية الأصل والمعنى والدلالة.. فالفنواء

الشجرة الواسعة الظلال، ذات الأغصان الممتدة المنتشرة، فذات الأفنان في التنزيل الطويلة.

لقد كانت فينان على طرف ضانا بمثابة البوابة والفناء، فهي الساح الممتدة على أبوابها وجنباتها. ولعل دلالة معناها تحاكي في الوسيط الفينان أي ذو الأفنان يقال شجر فينان و شعر فينان طويل حسن، وقد وصفها شيخ الربوة في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر على أنها خربة في نواحي الشوبك، "واقعة على مياه متدفقة، كانت ذات مزارع حسنة في عهد عمارتها حيث يستدل من آثا رها أنها كانت ذات حضارة ومدينة راقية"، بيد أن الاسم فونو قد ورد في مصادر المصريين من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، في نص من نصوص رمسيس الثاني حيث يشير إلى منطقة فنيان واحدة من المناطق التي سكنها البدو. أما الاسم في اللهجات الكنعانية فقد أبرزته نصوص التوراة على فينون وفونون، وهو الوجه والجانب في الفينيقية والأوغاريتية والسبئية.

ولعل سحر المكان والطبيعة ظل محروسا لعشرات القرون بسكنى الإنسان المنطقة وعمارتها، وهي شاهد على الفعل البشري الخلاق في أنشطة العمران واستخراج المعدن وصهرة في أفران النحاس، الماثلة بقايا تخليص المعدن من شوائبه في بقع قاتمة إلى يومنا. ولم تكن ضانا بكل ذلك السحر الطبيعي بعيدة عن نشط الإنسان في فينان فقد أقام

الجدر والسلاسل حفظا للتربة من الانجراف، وشق القنوات المائية وحفر الآبار الكبيرة وبنى البرك لخزنها، وطواحين تدار بالماء، وهي تقنيات متقدمة في تلك المدينة ذات العمائر والشوارع والمنشآت التي تعكس استيطانا بشريا متقدماً.. ونهوضا بشرياً يشي بالتحولات الكبرى في استخراج المعدن واستخدام الطاقة في هذه الجغرافيا الأردنية، في مكان تجلت فيه الطبيعة هبة ربانية ذات سحر وبهاء ومنجزا بشريا يسجل لأهليها.

لقد جاء التعدين في فينان الأكبر اتساعا في الرقعة والأكثر انتاجا وانتشارا، ويبدو أن الفترة النبطية قد شهدت استنزافا واستخراجا للنحاس جنبا إلى جنب مع ما استخرجوه من القار والنفط من البحر الميت وتصديره تجاريا إلى مصر، ولم تخل تلك الفترة من محاولات الاستنزاف الروماني لهاتين المادتين. وقد نالت المنطقة في العصر الحديث من الدراسات الجيولوجية والأثرية والأنثربولوجية ما يعكس درجة الاهتمام في الكشف عن مكنونات المكان التي لم يكتمل استكشافه بعد، وقد ربطت الدراسات البيئية بين فينان ومنطقة ضانا الطبيعية فعمدت بعثات الاستكشاف إلى التنسيق مع الجمعية الملكيةِ الأردنيةِ حمايةِ الطبيعة بهذا الشأن.

إن فينان جغرافيا الاستشهاد على عمليات نهوض معقدة في جنوب

الأردن بدءا من عصور ما قبل الميلاد، وما تواسق ذلك مع تناغم الصخر والشجر وجيوانات البرية وطيورها، وهي مثال حي على الاختلاف البيئي والطبوغرافي من ارتفاع شاهق وغور سحيق وغنى في الطبيعة جمالا وثروات. ولقد أهلت هذه الميزات لتنوع في الاستيطان وأسهمت في التكيف البشري والتحول بأنساق المجتمع إلى تطورات حتمية وفق المتغيرات التي شهدها الموقع من عصر البلايستوسين الجيولوجي إلى فترات الاستيطان في المراكز القروية على تعاقب أحجامها في العصور الأثرية، والتي برزت في العصر البرونزي منه ملامح التغيرت الاجتماعية، ثم التاريخية فيما بعد.

فهناك في فينات تسمع دوما طرق معاول.. بسواعد ما كلت وما أصابها وهن، واللهب النحاسي يعلو في الأفق يملك مفاتيح لفظ الخَبَث.. فمن أين جاء اللهب بكل تلك الحكمة؟ ليمتلك سهوب الذاكرة من عصور ما قبل الميلاد مرورا باندلاع صهيل ذكريات الشعوب التي تعاقبت على فينان معترفة حضورها العبقري! ففينان فعلت ما أرادت لا كما يريدون.. ضحك مبسمها في ضانا.. وخَلَّفَت طِيبَ الصنيع في أفرانها وطواحينها وقنوات مياهها.. فيوم أعلنت الحضور كانت الدهشة ولحظة التجلي والانتقال من فجاجة الحجر إلى هيكلة المعدن.